

د. راوية عبد الحميد شافع

المرأة فى المجتمع الأندلسى

من الفتح الإسلامى للأندلس حتى سقوط قرطبة



المرأة في المجتمع الأندلسي

من الفتح الإسلامي للأندلس حتي سقوط قرطبة

(٩٢ – ٤٢٢هـ) (٧١١ – ١٠٣١م)

دكتورة راوية عبد الحميد شافع

الطبعة الأولى

٢٠٠٦م



عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

الناشر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

٥ شارع ترعة المريوطية - الهرم - ج.م.ع تليفون وفاكس ٣٨٧١٦٩٣

Publisher:EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES
5, Maryoutia St ., Elharam - A.R.E. Tel : 3871693
E-mail : dar_Ein@hotmail.com
book ein @ yahoo.com

الموقع الالكترونى web site: WWW.Dar -Ein.com

الإهـــداء

إلى زوجي محمود وأبنائي إسلام وجهـــاد

إلى أمـــي دولـــت وأبـــي عبد الحميـــد

إلى كل من ساندني في مشوار العلم والحياة

تحية عرفان وتقدير

د. راوية عبد الحميد

شكر وتقدير

يجب علي أن أزجي بالشكر والتقدير لكل من ساعدني علي أتمام هذه الدراسة وأدين بشكر خاص لأستاذى الدكتور أحمد مختار العبادي الذي أشرف علي هذه الدراسة وأحاطني برعايته وتوجيهه ونصائحه الغالية أطال الله عمره وأمدنا بمزيد من علمه .

وشكري الخاص لأستاذي المرحوم الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم الذي أدين له بفضل كبير رحمه الله وجعل هذا في ميزان حسناته .

كما أتوجه بالشكر إلي أساتذتي الذين ساعدوني ؛ الأستاذ الدكتور محمد مرسي الشيخ . والأستاذ الدكتور حمدي عبد المنعم حسين والأستاذة الدكتورة سحر السيد عبد العزيز سالم لما أولوني به من رعاية علمية ومعنوية .

والله ولي التوفيق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يتناول موضوع الكتاب " دور المرأة في المجتمع الإسلامي الأندلسي من الفتح الإسلامي للأندلس وحتى سقوط الخلافة الأموية" على مدى ما يقرب من ثلاثة قرون وثلث القرن من سنة (٩٢- ٤٢٢هـ) (٧١١- ١٠٣١ م). وقد تم اختصار العنوان منعاً للإطالة إلى " المرأة في الأندلس من الفتح الإسلامي حتى سقوط الخلافة بقرطبة" .

ما من شك في أن أي موضوع يتصل بدراسة المرأة يكون له طابعه ومذاقه الخاص لما لتلك القضية- " وإن كنت لا أميل إلى اعتبار المرأة قضية في الإسلام"- من جذور ضاربة في عمق التاريخ الإسلامي، كتب عنها الكثيرون من الكتاب الإسلاميين والمستشرقين، البعض منهم كتب بدافع الغيرة لها وعليها متسلحاً بالمنطق والحق، والبعض الآخر كان متحاملاً لأسباب كثيرة، إما لتفسير وفهم خاطئ لبعض النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الخاصة بالمرأة، وإما بتقليد أعمى لبعض العادات المحلية والقبلية المتبعة، والتي لم يحاولوا بذل بعض الجهد في الرجوع إلى أصلها، وهل تتفق مع ما تدعو إليه الشريعة الغراء من إفساح المجال أمام الجنسين في أخذ فرصتهما كاملة في كافة المجالات بصرف النظر عن النوع ذكر أم أنثى.

ومن هذا المنطلق أردت أن ألقى الضوء على حقبة تاريخية مهمة في تاريخنا الإسلامي المجيد، فيما يتصل بحياة المرأة الأندلسية المسلمة ومكانتها ، في فترة زمنية معينة وهي فترة حكم الدولة الأموية في الأندلس.

وقد حاولت قدر الإمكان أن أتناول الموضوع بحياد كامل، فلم أحاول أن أبرز الإيجابيات مع التغاضي عن السلبيات، وإنما بحثت الموضوع من كافة جوانبه. والحقيقة أن المرأة الأندلسية لم تخذلني بل أعطتني أكثر مما كنت أظن أنها فاعلة.

ولا شك أن المرأة الأندلسية قد تمتعت بمكانة خاصة في ظل دولة بني أمية في الأندلس، قلما نجدها في عصر آخر سابق أو لاحق، فقد كان لها حضورها القوى على مسرح الأحداث الاجتماعية، والسياسية والعلمية.و الاقتصادية وغيرها..

ومع قلة المادة العلمية في كتابات المؤرخين وتناثرها وبصفة خاصة في المصادر العربية والإسبانية، تطلب الأمر مني مرونة فائقة في معالجة الموضوع حتى استطعت في النهاية وبقدر الإمكان الخروج بموضوع أدعو الله أن يكون مترابطاً ومتكاملاً. وأن يكون قد حقق الهدف منه في إلقاء الضوء على كافة الجوانب الخاصة بحياة المرأة الأندلسية في عصر الدولة الأموية في الأندلس.

ومن أهم الصعوبات التي واجهتني في هذا الموضوع، تجميع المادة العلمية الخاصة بالفصل الأخير لهذا الكتاب، وهو دور المرأة الاقتصادي، إذ أن الكتابات في هذا الموضوع كانت متناثرة هنا وهناك في بطون المصادر، ولم تمدنا المصادر إلا بإشارات صغيرة لا تشبع نهم الباحث، ولذلك بذلت جهداً كبيراً في محاولة تجميع تلك المادة حتى خرجت والحمد لله في النهاية بحصيلة لا بأس بها أرجو أن تكون متكاملة. ومن الجدير بالذكر هنا أن اختياري لهذا الموضوع ربما يبدو غريباً للوهلة الأولى، إلا أنني أعتبره موضوع العصر رغم أنه يناقش فترة زمنية مضى عليها وقت ليس بقصير، فقد كثر الحديث في عصرنا الحالي عن المرأة وحقوقها وما يهمنا هنا محاولة إبراز أن المرأة الأندلسية المسلمة نالت حقوقها كاملة. ولكن في إطار الشريعة الإسلامية وليس في إطار أي نظم أندلسية أخرى.

وقد أبرزت هذا الدور للمرأة الأندلسية من خلال ما أمدتني به المصادر والمراجع من نصوص صريحة لا تحتمل التأويل.

أما عن الآراء التي أثيرت حول المرأة الأندلسية وخاصة في دوائر المستشرقين، فقد تناثرت هذه الآراء واختلفت اختلافا بيّناً بينهم، منهم من تفهم وضعها بصدق من خلال فهمه الصحيح ودراسته الجادة للمصادر العربية التي تناولتها، ومنهم من انزلق في أحكام خاطئة بل وجائرة أحيانا، وقد فندت تلك الآراء في متن الكتاب.

ولي كلمة أخيرة حول تلك الدراسة وهي أنها أمتعتني ووجدت فيها نفسي إلى درجة أنني أحسست أنها تمس كل امرأة مسلمة في كل مكان وكنت أرى من خلال كل مرحلة من مراحل البحث أن الحديث لا يقتصر على المرأة الأندلسية فقط، بل إلى كل امرأة مسلمة، وكنت كلما صادفني إنجاز لتلك المرأة في تلك العصور البعيدة وددت لو أبلغته لكل امرأة في عصرنا هذا كي تقتدي بها، وتفخر بإنجازاتها الرائعة على الساحة الأندلسية.

قسمت هذا الكتاب إلى أربعة فصول، مهدت له بدراسة تمهيدية حاولت فيها إبراز دور المرأة في المجتمع الإسلامي بصفة عامة، مع التركيز على بعض النماذج المشرفة، وإبراز حقوق المرأة التي كفلها الإسلام. بل وواجباتها في المجتمع الإسلامي أيضاً.

كذلك قمت بدراسة تمهيدية لتاريخ الأندلس من خلال عرض سريع مع ربط الأحداث التاريخية بمدى تواجد المرأة على مسرح الأحداث في الأندلس منذ بداية الفتح الإسلامي.

أما الفصل الأول وعنوانه " دور المرأة الاجتماعي في الأندلس" فيشتمل على ست نقاط أساسية: النقطة الأولى تحت عنوان "الفاتحون المسلمون للأندلس والزواج المختلط بالإسبانيات من الفتح الإسلامي حتى سقوط الخلافة الأموية" حاولت التركيز من خلالها على إبراز دور الفاتحين في عملية دخولهم الأندلس وهل دخلوا أفراداً كجنود عسكريين فقط أم دخلوا في صحبة عائلاتهم وأسرهم؟ كذلك أبرزت فيها عمليات الزيجات التي تمت بينهم وبين الإسبانيات.

وأما النقطة الثانية فهي عن التسري بالإماء والجواري عن طريق السبي مع الإشارة إلى مدى حب أمراء بني أمية للجواري الإسبانيات وخاصة الشقراوات منهن.

والنقطة الثالثة والتي جاءت نتيجة للنقطتين السابقتين، وهي ظهور طبقة اجتماعية جديدة مسلمة وهي طبقة المولدين، كنتاج للزواج المختلط والتسري بالإماء والجواري. وأوضحت من خلال تلك النقطة مدى تأثير وتأثر هذا العنصر السكاني الجديد في الحياة الأندلسية. ثم انتقلت إلى النقطة الرابعة عن فن الغناء والموسيقى، وأوضحت أثر النساء المولدات والمشرقيات في التجديد في هذا الفن.

أما النقطة الخامسة فكانت عن عادات المرأة الأندلسية في الزي واستخدام أدوات الزينة والتزين بالحُلي والتطيب بالعطور. وختمت هذا الفصل الأول بالنقطة السادسة والأخيرة: عن موضوع الزواج والطلاق، وأوضحت فيه مدى تمسك المرأة ببعض الحقوق في وثيقة زواجها، بل وصل الحد أحيانا إلى إملاء بعض الشروط في الوثيقة.

أما الفصل الثاني وعنوانه " دور المرأة في المجال السياسي في الأندلس" فيتكون من أربعة نقاط أساسية: أولاً مدى تأثير أمهات الأولاد على الولاة والأمراء والخلفاء في عصر الدولة الأموية. مما أدى إلى مشاركة المرأة في الأحداث السياسية. وإن كان معظمها كان يحدث من وراء الكواليس بالتأثير على أزواجهن أو أولادهن. فتحدثت عن "أيلة" أو "إيخلونا" زوجة الأمير عبد العزيز بن موسى، وكيف أهمت بأنها أحد الأسباب التي أدت لمقتل الأمير بتسلطها عليه وبسماعه لنصائحها وتنفيذها. وتحدثت عن "سارة القوطية" وكيف كانت العنصر النسائي الأول في ظهور طبقة "المولدين" ثم تحدثت عن "عجب" ومكانتها لدى الأمير الحكم الربضي، وختمت النقطة الأولى " بطروب البشكنسية " ودورها البارز في محاولة وضع ابنها عنوة على كرسي الإمارة في الأندلس، وفشلها في تلك المحاولة.

والنقطة الثانية عن " دُر " أو " ونقة" جدة الخليفة عبد الرحمن الناصر. والنقطة الثالثة تحدثت فيها عن السيدة " صبح البشكنسية " ودورها البارز والمهم في حياة زوجها الحكم المستنصر، ثم الحاجب المنصور بن أبي عامر. ثم ختمت الفصل بالنقطة الرابعة عن أمهات ولد المنصور بن أبي عامر وأبرزت من خلالها عمليات المصاهرة التي تمت بين المنصور وملوك إسبانيا المسيحيين وكيف أهدوه بناقم على سبيل المهادنة وكسب الـوُد.

أما الفصل الثالث وعنوانه " دور المرأة في المجال العلمي في الأندلس " فقد قسمته إلى ثلاث نقاط رئيسية، جاءت النقطة الأولى عن دور المرأة في الأدب الأندلسي مع ذكر أمثلة لشاعرات الأندلس المشهورات مرتبة ترتيباً تاريخياً من بداية الفتح حتى نهاية الدولة الأموية. في محاولة لإبراز دور كل منهن، ومدى ما أسهمت به في مجال الحياة العلمية والأدبية في الأندلس.

ثم جاءت النقطة الثانية تحت عنوان الكاتبات والمعلمات والخطاطات والمذهبات. أوضحت من خلالها الأنشطة العلمية التي ساهمت فيها المرأة من خلال كتابتها للمخطوطات والكتب الثمينة والتعليم وتذهيب المصاحف وتزيينها. ثم ختمت هذا الفصل بالحديث عن شعر الحب والغزل عند المرأة. ما قيل فيها وما قالته: وأبرزت كيف كانت المرأة الأندلسية صريحة في إبراز مشاعرها بدون تورية أو مداراة.

أما الفصل الرابع وهو آخر فصول الكتاب. وجاء تحت عنوان " دور المرأة في المجال الاقتصادي في الأندلس" فقد جاء في أربعة نقاط أساسية.

أولاً: المهن والصناعات التي مارستها المرأة الأندلسية، وضربت أمثلة على ذلك منها صناعات الأطعمة والأشربة والغزل والفقه والتوليد والخاطبة وغيرها. ثم انتقلت في النقطة الثانية عن أسواق الجواري وأنواعهن وذكرت أن الإسلام لم يعمل على إيجاد ظاهرة النخاسة والعبيد أو الرق، بل كانت موجودة بالفعل، بل ومستشرية قبل ظهور الإسلام، وعلى العكس عمل الإسلام على القضاء عليها وهذا ما حدث بالفعل تدريجياً.

ثم تحدثت في النقطة الثالثة عن حالة الجواري الاقتصادية، وكيف كانت الجواري يملُكن من الثروات الطائلة، ما مكنهن من إقامة بعض المنشآت الدينية والدنيوية الخاصة بهن.

وفي النقطة الرابعة والأخيرة من هذا الفصل تحدثت عن مكانة المرأة في المجتمع الإسلامي بصفة عامة، وكيف وصل الحد في محافظة المجتمع على نسائه إلى درجة استنفار الحملات الحربية للدفاع عن امرأة أسيرة مسلمة وقعت في يد الأعداء.

تمهيـــد

رأيت من الضروري في تلك الصفحات القليلة القادمة أن أتعرض بشكل سريع لبعض نماذج من النساء على مستوى التاريخ الإسلامي كله بدءً من نهاية العصر الجاهلي قبيل ظهور الإسلام بوقت قليل حتى يومنا هذا، فالمرأة في المجتمع الإسلامي كلٌ لا يتجزأ. ولذا رأيت أنه رغم أن موضوع الكتاب منصب على دور المرأة في المجتمع الإسلامي الأندلسي بصفة خاصة أن أتعرض ولو بسرعة وإيجاز لدور المرأة في المجتمع الإسلامي بصفة عامة.مع الإشارة إلى بعض الآراء التي أثيرت حول ما قدمته الشريعة الغراء لها من مكاسب معنوية ومادية.

فوضع المرأة قبل ظهور الإسلام كان في غاية الإنحطاط والتدني،ولا نجد أمامنا أبلغ من قوله سبحانه وتعالي : ﴿ وإذا بـــشـــر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بُشـــر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون ﴾ [١]

صدق الله العظيم.

ولم يكن المجتمع العربي فقط هو الذي ينظر إلى المرأة تلك النظرة، بل أن جميع الأديان والأمم السابقة على العرب أساءت إلى المرأة، فكان الإغريق على سبيل المثال يعتبرون النساء من المخلوقات المنحطة، التي لا تصلح لغير دوام النسل وتدبير المترل، ويماثلهم في هذا الرأي الصينيون والإيطاليون والأسبان والرومان وغيرهم..

بل إنه من الأمور الطريفة في هذا الصدد إبان ظهور البعث النبوي الشريف، أن يعقد مؤتمر في بلاد الروم أو البيزنطيين، ويُطرح به سؤال هام. هل للمرأة روح؟! والأطرف أن يجمع المؤتمرون على أن النساء أشياء لا روح لها ويمكن بيعها وشراؤها ويتصرف فيها الرجال كيفما شاءوا.[٢]

أما عن السبب الرئيسي لتدني وضع المرأة في المجتمع الجاهلي وغيره.. فيتضح لنا من خلال البحث أن عمليات السبي التي كانت تتعرض لها الأنثى هي السبب الرئيسي، فيقول الفرنسي جيشار: إن عمليات السبي التي تعرضت لها الأنثى كانت تؤدى إلى ضياع هيبة وكرامة القبيلة التي تنتمي إليها الأنثى وترتب على ذلك ظهور عملية " وأد البنات " أي دفن الأنثى الصغيرة حديثة الولادة حية عقب ولادها مباشرة، فقد فضلوا لها " القبر" على أن تصبح جارية أو عشيقة لرجل آخر من قبيلة أخرى.[٣] والحقيقة أن جيشار أصاب إلى حد بعيد في تحليله لتلك الظاهرة، فالمسألة إذن ليست ضغائن شخصية ضد العنصر الأنثوي، وإنما هو الخوف العربي على ضياع الشرف والكرامة .

١- سورة " النحل " الآيات (٥٨، ٥٩).

٢- عبد العزيز بن عبد الله: المرأة المراكشية في الحقل الفكري – صحيفة معهد الدراسات الإسلامية. مدريد – المجلد السادس. العدد ١ – ٢، ١٣٧٨ – ١٩٥٨، ص ٢٥٩.

٣- Guichard (Pierre): Structures Sociales Orientales et ccidentales dans L'Espagne musulmane. Paris 1977. p41.

أما بعد ظهور الإسلام وقضائه على كل تلك العادات بنصوص قرآنية وأحاديث نبوية صريحة يحُــض أكثرها على أن الجنة تحت أقدامهن وعلى البر بالنساء: عندئذ انفتح الميدان فسيحاً أمام المرأة فشاركت في كافة العلوم النقلية والعقلية. وابتكرت في الشعر والغناء، وأصبحت كثيرات منهن متعلمات مثقفات.

فيحدثنا البلاذُرى قائلاً إنه عندما جاء الإسلام، لم يجد بين النساء سوى خمس نسوة يقرأن ويكتبن فقط.[1] ورغم ما قدمته الشريعة الغراء للمرأة المسلمة إلا أن بعض المستشرقين يبخسونها هذا الحق، فيذكر المؤرخ الانجليزى بنتر " Painter" وذلك بعد أن يتعرض لمركز المرأة الأوروبية البالغ التعقيد على حد تعبيره في المجتمع الإقطاعي الأوروبي المعاصر للمجتمع الإسلامي، وكيف أنها- أي المرأة الأوروبية- كانت دائماً إما تحت وصاية زوجها أو والدها أو أكبر ابنائها وفي كل الأحوال خاضعة مستسلمة تماماً لتلك السيطرة والوصاية. ثم يعود ويقول رغم ذلك كانت أحسن حالاً من معاصرتها المسلمة.[2]

ويؤيد بنتر مستشرق آخر وهو الإسباني خوليان ريبيرا "Ribera " الذي يذكر أن العصر الإسلامي لم يهتم بتعليم المرأة. ولم يحترم تلك الرغبة فيها وأرجع السبب في ذلك إلى المحدثين ورجال الدين المشارقة بصفة خاصة، وكيف أنهم كانوا ضد تلك العملية التعليمية. وإن كان ريبيرا استثنى المرأة الأندلسية لأسبابه الخاصة التي أرجعها إلى تأثير الحضارة المسيحية على المجتمع الأندلسي. وانعكاسها على وضع المرأة فيه مما جعلها أكثر تقدماً ورقياً من مثيلاتها المشرقيات.[3]

رغم أن الحضارة المسيحية التي سبقت دخول الإسلام في الأندلس. لم تقدم للمرأة المزايا التي قدمتها لها الحضارة الإسلامية. والحقيقة أن كلا الرأيين فيهما تجنٍ كبير على الحضارة الإسلامية، وما قدمته للمرأة، وتلك مسألة لا تحتاج إلى مناقشة، فكل من له دراية صحيحة، ولو قليلة بالدين والحضارة الإسلامية، يعرف تلك المزايا الكثيرة التي قُــدمت لها بشكل لم تحصل عليه المرأة الأوروبية حتى وقتنا هذا.

أما إذا كان وضع المرأة قد خضع لبعض التدني في بعض العصور الإسلامية، فهذا لا يرجع إلى الإسلام كدين. وإنما إلى القائمين على تطبيق الإسلام كدولة.

١- البلاذُري: (أبو العباس أحمد بن يحيى) فتوح البلدان، القسم الأول. نشره الدكتور/ صلاح المنجد. القاهرة، ١٩٥٦م، ص٤٥٨.

٢- Painter: History of the middle eges. Great Britain, 1979, pp.121-122

إسمت غنيم: المرأة في الغرب الأوروبي في العصور الوسطى. دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٣م . ص١٠٩.

٣- Ribera Y Tarragó: Disertaciones y Opúsculos. Madrid. 1928. Tomo I. pp. 344-345.

وفي هذا الصدد تقول الدكتورة " فاطمة المرنيسي" عن أن العلاقة بين الرجل والمرأة: هي التي أدت وبشكل أساسي إلى تدهور العالم الإسلامي. فهذه العلاقة المتضادة كانت داء أشقى المجتمع، وحكم على نصفه الأنثوي بالعيش في شلل تام.[١] وكانت أولى المشاكل التي واجهت المرأة في ظل المجتمع الإسلامي مشكلة الرق أو العبودية.

ومعروف أن الإسلام لم يشرع الرق بل شرع العتق، ولم يسبقه أي من الحضارات شرعت العتق. ولذلك عندما ظهر الإسلام وجاء بالعتق سبق بذلك التطور الدولي الحديث بزمن طويل في تقرير فك الرق[٢] وعمل الإسلام على فك الرقيق بوسائل شتى، إذ جعلها فداء لأعظم الجنايات مثل القتل الخطأ، وأخفها مثل الحنث باليمين [٣] بل فضل الإسلام الزواج بالجاريات على الحرائر سليلات البيوتات وبخاصة المشركات منهن ويتضح ذلك في قوله تعالى ﴿ ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ﴾.[٤] ورغم حالة التدني التي عرفتها المرأة في العصر الجاهلي، لم تكن هذه هي القاعدة بل وجد بعض الاستثناء، نضرب مثالاً لذلك " هند بنت عتبة " فقد ضربت مثلاً رائعا للمرأة القوية، التي نالت حقها وأخذت شهرة عريضة بل أُخذت مشورتها في أدق تفاصيل حياتها وبخاصة الزواج فقد كان لها حرية الاختيار في القبول أو الرفض. فقد خطبها رجلان في آن واحد، فجاءها أبوها يخبرها فقالت له صفهما لي، فلما وصف كلاً منهما اختارت أحدهما لصفات أعجبتها فيه. بل هناك من رفضت وأعلنت ذلك صراحة مثل الخنساء.[٥]

ويذكر الأستاذ جوستاف لوبون: أن الإسلام كان ذا تأثير عميق في حال المرأة في المشرق، فهو قد رفع مستوى المرأة الاجتماعي خلافاً للمزاعم المكررة على غير هدى. والقرآن قد منح المرأة حقوقاً إرثية بأحسن مما في قوانيننا الأوربية، ولعبت المرأة دوراً في منتهى الخطورة. فقد كان منهن العالمات البارعات والشواعر الماهرات ممن ذاع صيتهن في العصر العباسي في المشرق والأموي في الأندلس.[٦]

١- للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع: انظر مقال الأستاذة الدكتورة/ فاطمة المرنيسي. أستاذ علم الاجتماع، بجامعة الرباط. في مجلة " فكر وفن " تحت عنوان "الأيدلوجية والإسلام" العدد (٤٧) ميونخ، ألمانيا ١٩٨٨م. ص ٦٥ وما بعدها.

٢- عباس محمود العقاد: المرأة في القرآن، دار الهلال، القاهرة ١٩٦٧م ، ص ٣٠.

٣- شوقي ضيف:العصر العباسي الثاني، دار المعارف، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٧٣م، ص٨٠.

٤- سورة "البقرة" من الآية (٢٢١).

٥- أحمد الشامي: عقود الزواج في الإسلام، كلية الآداب، جامعة الزقازيق. ١٩٩٢م. ص١٠، ١١.

٦- عبد العزيز بن عبد الله: المرأة المُراكشية في الحقل الفكري، ص ٢٦٢.

وأيضاً حول ما قدمته الشريعة الإسلامية للمرأة المسلمة تقول الدكتورة " زينب رضوان" إن الشريعة الإسلامية بمبادئها السامية، خصت المرأة بالعديد من الأحكام فأحاطتها بالعناية وأوصت بالترفق في معاملتها ومنحها الأهلية الاقتصادية لتلقى الحقوق والتكاليف أسوة بالرجل، بعد أن كانت أداة للخدمة والاستمتاع ومجلبة للذل والعار وبعد أن كانت الأنوثة سبباً من أسباب انعدام الأهلية كصغر السن والجنون[١] وكفل الإسلام للمرأة أيضاً حق المشاركة السياسية عملاً بقوله تعالى ﴿ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك...﴾ إلى قوله تعالى ﴿ فبايعهن﴾.[٢]

فقد شاركت النساء في بيعة الرسول ﷺ بعد فتح مكة، واجتمع إليه وفد من نساء قريش ترأسهن "هند بنت عتبة" وكان لها حوار طويل مع الرسول يدل على مدى ذكائها وفطنتها وتمتعها بقدر كبير من الوعي لحقوقها السياسية وحقوق من تمثلهن من النساء اللاتي ذهبن معها[٣] وحتى بعد وفاة الرسول ﷺ لم تقف المرأة المسلمة مكتوفة الأيدي عن المشاركة في الأحداث السياسية الجارية على الساحة من حولها، فنرى السيدة "عائشة" زوج الرسول رضي الله عنها ورغم خصومتها الشديدة مع سيدنا "عثمان بن عفان" ؓ تطالب بدمه من خصومه. بل وتتهم سيدنا "عليّ" ؓ بالتأليب عليه والتواطؤ على قتله، وتحالفت مع أعدائه، وقادت المسلمين في الموقعة الشهيرة التي عُرفت في التاريخ الإسلامي باسم موقعة "الجمل" نسبة إلى الجمل الذي كانت تركبه السيدة "عائشة" سنة ٣٦هـ. وكانت في هذه المعركة هي القائدة العليا للجيش، تصدر الأوامر وتُعين الأمراء، وتوجه الرسل إلى الأمصار المختلفة.[٤]

١- زينب رضوان: الإسلام وقضايا المرأة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣، ص١٣،١٢.

٢- سورة "الممتحنة" : من الآية (١٢).

٣- راجع الطبري، لمعرفة المزيد عن الحوار الذي دار بين هند بنت عتبة، والرسول ﷺ.

الطبري (أبو جعفر محمد ابن جرير الطبري).تاريخ الأمم والملوك، بيروت. لبنان ١٩٩١م ، جـ٢، ص١٦١، ١٦٢.

٤- السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، مؤسسة شباب الجامعة،الإسكندرية ١٩٨٤م، ص ٣٠١، ٣٠٩، ٣١٣.

٢-زينب رضوان: الإسلام وقضايا المرأة ص ٤٢.

وللمزيد من التفاصيل. عن حياة السيدة عائشة رضي الله عنها. راجع: ابن خلكان (أبي عباس شمس الدين) وفيات الأعيان وأنباء ابناء أهل الزمان. حققه الدكتور/ إحسان عباس. دار صادر، بيروت ١٩٧٨ جـ١ ص ٢٥. جـ٣ ص١٦، ١٩، ٦٥، ٦٩، ٧٠، ١١٥، ١٤١. جـ٦ ص ٩٩. جـ٧ ص٦٠، ٦٨، ١٦٥، ١٦٦.

٣- زينب رضوان : نفس المرجع ، ص٢٥ .

وشاركت المرأة بصفة عامة في التربية والنهوض بالإنسانية، فشاركت في الدعوة، وشاركت في الهجرة، وشاركت في الابتلاء، وشاركت في الرأي والغزو والعلم والرواية والاجتهاد والتأمين من الأعداء. وشاركت في كل ذلك في كل مرحلة من مراحل الدعوة وكان عليها من الواجبات. ولها من الحقوق مثل أخيها الرجل[٢].

فقد كان للسيدة أم سلمة زوج الرسول ﷺ فضل حفظ كيان الجماعة الإسلامية، ووقايتها من التدهور، في أثناء الفتنة التي حدثت على عهد النبي بين المسلمين وقائدهم الرسول ﷺ بشأن شروط صلح الحديبية. فقد أشارت على الرسول بالإسراع إلى ذبح الهـدْي والحلـق. ولم يكد المسلمون يرون هذا حتى تناسوا خلافاقم وسارعوا إلى الاقتداء بالرسول وبذلك التأم الشمل.[٣]

وفي الميدان العسكري أي في أثناء الغزوات وعلى عهد الرسولﷺ شاركت المرأة مشاركة كبيرة. فيذكر لنا الطبري قصة صفية بنت عبد المطلب وكيف خرجت يوم " أحد " تنعى أخاها حمزة فطلب الرسول منعها من الخروج فقالت للرسول " سأحتسب" أخي (أي لن أقوم بأفعال الجاهلية) وسأتذكر أسرتي ومكانتي وحسبي. فلقد هذبها الإسلام واكسبها قوة لم تكن تتحلى بها في الجاهلية.[١]

وكان من الطبيعي أن تشارك النساء في الغزوات. ففي غزوة أُحد كانت مهمة النساء الرمي بالحجارة جنباً إلى جنب مع الصبية.[٢]

ويضيف الطبري كذلك بأن النساء شاركن مشاركة فعلية وكبيرة في معركة اليرموك، وذلك عندما اشتد القتال وخرجت "جويرية بنت أبي سفيان " تحارب إلى جوار أبيها وزوجها حتى أصيبت بعد قتال شديد[٣] و" أم حكيم بنت الحارث بن هشام " التي طلبت من الرسول عقد الأمان لزوجها عكرمة بن أبي جهل، بعد أن فر إلى اليمن.

وذهبت وراءه إلى اليمن،بعد أن أخذت له عقد الأمان لكي تحضره بنفسها[٤] وامرأة أخرى كان لها تأثير كبير في حياة أحد أهم القادة المسلمين وهي السيدة: فاطمة بنت الوليد أخت القائد خالد بن الوليد، والتي كان يستشيرها كثيراً في أمور يعجز أحياناً في إتخاذ قرار حاسم فيها، وذلك

١- وللمزيد من التفاصيل. حول شخصية صفية بنت عبد المطلب راجع:-

الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢ ص، ٩٦، ٧٢، ١٣٦.

٢- الطبري: نفس المصدر، جـ٢، ص ١٦٢.

٣- الطبري: نفس المصدر، جـ٢، ص ٣٣٨.

٤- الطبري: نفس المصدر. جـ ٢. ص١٦٢.

لثقته الشديدة في رجاحة عقلها وسداد رأيها [١] و"عائشة بنت طلحة "حفيدة أبي بكر الصديق. التي كانت تناضل الرجال بالسهام والنبال، وقد جمع الرسول كثيراً بين النساء والرجال في غزواته وساوى بينهما في الغنائم وكانت " كـعيبة بنت سعد " أول سيدة يقلدها الرسول قلادة تشبه الأوسمة الحربية في عصرنا الحديث اعترافاً بدورها في الغزوات وقد ظلت تلك القلادة معها طيلة حياتها. بل عندما ماتت دفنت معها عملاً بوصيتها.[٢] وقد مارست المرأة وفي الغزوات بصفة خاصة مهنة الطب. ففي عهد الرسول ﷺ عرفنا أول طبيبة في الإسلام وهي " رُفيدة الأسلمية " والتي اتخذت موضعاً ما من مسجد الرسول تداوي فيه الجرحى. وذاعت شهرتها وخبرتها في مجال الطب إلى درجة أن الرسول ﷺ أرسل إليها " سعد بن معاذ " بعد إصابته بسهم في غزوة الخندق وقال لأصحابه: خذوه إلى خيمة رُفيدة حتى تداويه.[٣]

ويبدو أن رُفيدة كانت قد وصلت إلى درجة رفيعة في علم الطب، حتى يعهد إليها الرسول ﷺ بعلاج تلك الإصابة الخطيرة. ومن المهن التي امتهنتها المرأة أيضاً التجارة، فقد تاجرت " هند بنت عتبة" زوج أبي سفيان وكانت تخرج بتجارتها بنفسها تبيع وتشترى واحتاجت يوماً مبلغاً من المال فاقترضته من بيت المال. وذلك في عهد الخليفة " عمر بن الخطاب " ﷺ الذي اشترط عليها رده مرة أخرى بعد المتاجرة به. وكان المبلغ يقدر بأربعة آلاف درهم وبالفعل ردت المبلغ بعد رجوعها من رحلة التجارة إلى المدينة.

وكان لتلك المرأة تأثير كبير على ابنها معاوية بن أبي سفيان، حتى إنه كان يفخر بأنه يدعى " ابن هند" من شدة إعجابه وتفاخره بأمه.[٤] والحقيقة أن أبرز دور للمرأة يتضح لنا بجلاء في مجال التعليم. فيحدثـنا ابن خلكان عن الإمام الشافعي ﷺ. وكيف تلقى علومه وأخذ الحديث عن السيدة " نفيسة " والتي كانت تعقد حلقات درسها التي ضمته في مصر، بل قامت بالصلاة عليه بعد موته، وكذلك الصحابية "أم الدرداء" التي كانت تحضر إلى بيت المقدس وتعقد هناك حلقات الدروس، وكان يحضرها الخليفة "سليمان بن عبد الملك".[٥]

١- الطبري: نفس المصدر. جـ ٢، ص٣٧٥.

٢- زينب رضوان: الإسلام وقضايا المرأة. ص٤٢.

٣- الطبري: المصدر السابق. جـ ٢، ص ١٠٠، ١٠١.

٤- الطبري: نفس المصدر: جـ ٢، ص ٥٧٦، ٥٧٧.

عصمت غنيم: المرأة. ص ١١١.

٥- ابن خلكان: وفيات الأعيان. جـ د. ص ٤٢٣. ٤٢٤.

والحث على تعليم المرأة كثير جداً، فعن ابن عمر يقول: علموا أبناءكم السباحة والرمي والمرأة الغزل[١] أما عن المرأة المغربية. والتي تجمعها بالمرأة الأندلسية موضوع هذا الكتاب صفات كثيرة مشتركة ربما لقرب الموقع وتشابه كثير من الظروف والعادات، والتقاليد، التي قربت كثيراً بينهما، فقد لعبت النساء المغربيات دوراً كبيراً وبارزاً في مختلف مراحل التاريخ الإسلامي، أظهرن براعة إدارية ولباقة وحكمة جعلت منهن مستشارات لأزواجهن الأمراء والرؤساء، ويكفي أن نعلم أن جامع القرويين الذي تحول إلى تلك الجامعة العريقة والشهيرة في مدينة " فاس " إنما أسسته فاطمة " أم البنين " بنت محمد بن عبد الله الفهري عام ٢٤٥هـ. بينما أقامت أختها مريم هناك أيضاً جامع الأندلس الذي كان ينافس جامعة القرويين حوالي القرن الرابع الهجري، وصار بعد ذلك أكبر فروعها.[٢] وفي العصر الإدريسي نبغت الأميرة " الحسنى بنت سليمان النجاعي " زوجة المولى إدريس الأزهر، والذي كان لا يفعل شيئاً إلا بموافقتها وكانت إليها المشورة في دولته.[٣]

ومما لاشك فيه أن الإسلام لا يمكن أن يأتي بتحريم أمر أو إباحته،ثم يثبت الواقع صلاحية نقيضه، والدليل على ذلك أنه على مر عصور الازدهار الإسلامي نالت المرأة حقوقها الشرعية التي مُـنعت عنها في العصر الحديث، فيخبرنا التاريخ عن " أم المقتدر" العباسي أنها رأست جلسات المظالم في بغداد مما يقوم شاهداً ورداً على من يمنعون ويطالبون بمنع المرأة من تولى منصب القضاء بحجة عدم صلاحيتها لهذا المنصب.

فهذا المنع لا يستند إلى حق شرعي، أو نص واضح يمنعها من تولى هذا المنصب. ولا علاقة له بقدرات المرأة الذاتية، فكل الدراسات العلمية المحايدة أثبتت تساوى معدلات الذكاء والقدرات الإبداعية والفنية عند الجنسين.[٤] وهذا ما يؤكده لنا الواقع الملموس، والحقيقة في رأيي هنا تعود إلى بعض العادات والتقاليد الموروثة، والتي قلصت دور المرأة وحقوقها، وهي عادات كثيراً ما تستند إلى الأعراف السائدة أكثر من استنادها إلى نصوص شرعية صريحة.

ونقيض ذلك في صدر الدعوة الإسلامية، عندما بلغ اعتزاز المسلمين بالمرأة وثقتهم فيها ما حدا بالخليفة " أبي بكر الصديق " ﷺ أن يختار واحدة منهن. وهي أم المؤمنين "حفصة بنت عمر بن الخطاب " دون جميع الرجال بما فيهم من صحابة رسول الله ﷺ يأتمنها على النسخة الوحيدة "

١- عمر رضا كحالة: المرأة في عالمي العرب والإسلام،سلسلة بحوث اجتماعية، الجزآن ٦، ٧ مؤسسة الرسالة١٩٨١م. جـ ٦. ص ٢٢.

٢- عبد العزيز بن عبد الله: المرأة المراكشية، ص ٢٧٠.

٣- عبد العزيز بن عبد الله: نفس المرجع والصفحة.

٤- زينب رضوان: الإسلام وقضايا المرأة. ص ٩٩.

للقرآن الكريم " بعد أن تم جمعها عقب وفاة الرسول ﷺ وظلت في مأمن لديها حتى أخذها "عثمان بن عفان " ﷺ ونسخ منها الأربعة نسخ التي وزعها على الأمصار.[١]

وظهرت شجاعة وبطولة المرأة المسلمة، أروع ما تكون في الدفاع عن زوجها في أثناء الفتنة التي راح ضحيتها سيدنا "عثمان بن عفان" ﷺ فقد تلقت عنه زوجته " نائلة بنت الفرافصة " إحدى الضربات التي انهالت عليه حتى قُطعت أصابع يدها كلها، بل عندما تمادى المتآمرون في تمثيلهم به بعد مقتله ألقت عليه بجسدها كي تقيه سيوفهم وأخذت تصيح حتى بعدوا عنه.[٢]

وشاركت المرأة كذلك في الغزوات البحرية في مراحلها الأولى، فقد حمل معاوية بن أبي سفيان زوجته " فاختة بنت قرظة " وحمل عبادة بن الصامت امرأته " أم حرام بنت ملحان الأنصارية " ولابد أن يكون الكثير من جنود تلك الحملة البحرية قد حذوا حذوهما.[٣]

وظُلمت المرأة أحياناً من خلال صفحات كتب التاريخ، إلا أن بعض المؤرخين المنصفين ثاقبي البصر، لم يرضهم هذا الظلم وخاصة عندما يقع على امرأة مسلمة معروف نسبها وأصلها الشريف، الذي يمتد إلى سيد الخلق جميعاً، ومن أشهر تلك القصص ما ورد عن " العباسة " أخت هارون الرشيد. التي ذكرها الكثير من المؤرخين.

وملخص القصة أن أخاها هارون الرشيد، كان لا يطيق صبراً لبعدها عن مجلسه هي ووزيره جعفر البرمكي، فزوجهما الرشيد بشرط ألا يخلو بها الخلوة الشرعية المعروفة للرجل بزوجته، فتحايلت العباسة حتى اختلت بزوجها،بل وأنجبت منه غلاماً أرسلته إلى مكة بعيداً عن متناول الرشيد كي لا يقتله.

وذكر الطبري هذه القصة دون تعليق، ولكن المؤرخ العربي "ابن خلدون" والذي جاء من بعده ينفي تلك القصة من جذورها نفياً تاماً بل ويدافع عن العباسة ضد الإفتراءات التي اُلصقت بها ويقول: كيف وهي من بيت عريق تغامر بسمعتها وسمعة بيت النبوة الذي تنتمي إليه في سبيل إرضاء.......؟ وكل ما قيل وادعى باطل،لا يليق بمكانتها السامية.[٤]وفي العصر العباسى ظهرت

١- عصمت غنيم:المرأة في الغرب الأوربي في العصور الوسطى، ص ١١٠، ١١١.

٢- الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص ٦٠٣، ٦٦٠، ٦٦٨، ٦٦٩، ٦٩٢؛ عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية ، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ، ١٩٨٤م، ص ٣٠٠، ٣٠١.

٣- عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ٣٣٣.

٤- راجع القصة كاملة في:- الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٤، ص٦٦٠، ٦٦١؛ ابن خلدون:(عبد الرحمن ابن خلدون المغربي)المقدمة،الطبعة الأولى بيروت،١٩٩٢م، ص٥ ؛ حسين مؤنس: (إسلاميات) مقال بمجلة أكتوبر عن العباسة، العدد ٦٦٠، الأحد ١٨ يونيو ١٩٨٩م. ص٥٢،٥٣. ويضيف الدكتور/ مؤنس: بأن هذه الشائعة دُست على العباسة، وأن الرشيد نكب بالبرامكة لأسباب سياسية بعيدة جداً عن العباسة وقصتها.

شخصيات نسائية كثيرة منهن "الخيزران" التي تدخلت في شئون الحكم بشكل سافر وأثرت في حياة ثلاثة رجال في عصرها. وهم زوجها المهدي وولديها الهادي وهارون الرشيد، بل وصل الأمر بها أن تآمرت على قتل ابنها الهادي لحماية ابنها الآخر والأصغر هارون الرشيد، بعد أن علمت بأنه يريد خلع البيعة لأخيه وأخذها لابنه جعفر فسعت في قتله، ويبدو أنه علم بتلك المؤامرة، فسعى هو الآخر في حتفها بعد أن ضاق بها وبتدخلها دائماً في شئون الحكم، فأرسل إليها طعاما مسموماً، فاحتذرت منه، ولم تتناوله لشكها في نواياه، وأعطته لكلب فمات في الحال.[١]

هناك شخصية أخرى من العصر العباسي. وهي زبيدة بنت جعفر زوجة هارون الرشيد المفضلة والمدللة، وأم ابنه الأمين، ويُحكى أنها حجت سنة (١٨٦هـ – ٨٠٠ م) ورأت في مكة ما يعانيه أهلها في الحصول على ماء الشرب. فدعت خازن أموالها وأمرته أن يدعو المهندسين والعمال من كافة أنحاء العالم الإسلامي وقالت له: أعمل ولو كلفتك ضربة الفأس ديناراً، وذهب إلى مكة أكفأ المهندسين والعمال ووصلوا بين منابع الماء في الجبال، حتى وصل إلى المسجد الحرام، ومازال هذا الماء يجرى في مكة حتى يومنا هذا. وكانت لها علاقة خاصة مع زوجها هارون الرشيد غاية في الرومانسية والدلال.[٢]

والحقيقة أن النماذج النسائية المشرفة في التاريخ الإسلامي لا حصر لها. ولكن آثرت ألا أطيل فيها. إما لأن كثيرات منهن تتشابه ظروف الكتابة عنهُن وعن إنجازاتهن، وإما الخوف من الإطالة أو الخروج عن الهدف من تلك المقدمة، التي هدفت منها في المقام الأول التعريف ببعض النماذج قبل الدخول في متن الموضوع الأساسي للكتاب.

ولكن لا يفوتنا قبل أن نختم تلك النقطة أن نذكر بعضاً من الحقوق التي كفلها الإسلام للمرأة المسلمة بصفة عامة في أي زمان ومكان، فأبسط شئ من تلك الحقوق القاعدة الإسلامية المعروفة وهي حرية اختيار الشريك في الزواج ، وأن كل عقد زواج باطل إذا أنكرته المرأة أو أُكرهت عليه.[٣]

فقد جاء في الحديث الشريف، ما يكفُـــل للمرأة الحرية الكاملة في شئون زواجها، ولابد من موافقتها موافقة صريحة. فقد قال رسول الله ﷺ لا تنكح " الأيـــم "[٤] حتى تستأمر، ولا البكر حتى تستأذن.[٥] وقد منح الإسلام المرأة حقوقاً كثيرة لا حصر لها سواء مادية أو معنوية، ومنها حق

١- الطبري: نفس المصدر، جـ ٤، ص ٦٠٦، ٦٠٧، ٦٢٠.

٢- إسمت غنيم: المرأة، ص ١١٤، ١١٥.

٣- إسمت غنيم: نفس المرجع. ص١٠٣.

٤ – الأيم: التي سبق لها الزواج.

٥- العقاد: المرأة في القرآن، ص ٨٧.

الإرث، والتي كانت ممنوعة عنها في العصور الجاهلية. فالذمة المالية المنفصلة للمرأة قاعدة إسلامية معروفة أيضاً.(١)

والحقيقة ما قصدت من تلك الصفحات السابقة الدفاع عن المرأة المسلمة، فتلك قضية مفروغ منها. وإنما قصدت إبراز بعض دورها فقط، وفي بعض الجوانب المختلفة. فمما لا شك فيه أن الإسلام كدين انتقل بالمرأة نقلة كبيرة جداً، فقد رفع شأنها ووضعها في مكانة سامية، وخصها بدور عظيم في الحياة بصرف النظر عن النواحي العلمية والعملية. فأعظم دور للمرأة هو صناعة الأمومة، وتربية الأجيال، وهو في رأيي دور عظيم لا يقل أهمية عن النواحي الأخرى، وإن كان الكثيرون فسروا هذا الدور تفسيراً خاطئاً، بل وحجموها في هذا الدور باعتباره دوراً هامشياً، وغير مهم ولا يحتاج إلى إعداد علمي تربوي، وهذا التوجه فيه قصور. فما التعارض بين إعطاء الفرصة للمرأة، والحق في نيل قدر كبير من التعليم في شتى مجالاته مع مساعدتها في الاحتفاظ بدورها الأساسي في الحياة وهو إعداد وتخريج الأجيال بعلم ووعي لا بأمية وجهل.

وفي نهاية تلك المقدمة، أستعير بعض كلمات للدكتورة/ زينب رضوان: وردت في كتابها المذكور " الإسلام وقضايا المرأة " تقول فيه:- " يُعـد وضع المرأة في أي مجتمع أحد المعايير الأساسية لقياس درجة تقدمه، لأنه لا يتصور أن يتقدم مجتمع في عصرنا الحالي بخطى منتظمة مخلفاً وراءه النصف من أفراده في حالة تخلف. إن المرأة لا تعيش في حالة انعزال عن الرجل، بحيث يمكن أن يتطور بشكل يميز وضعه تميزاً جذرياً عن وضع المرأة، فكلاهما في مركب واحد، فتخلفها لابد أن ينعكس أثره مباشرة على تفكير الرجل ومسلكه وبالتالي تخلفها يكون من أهم العوائق الحضارية.

والأمثلة على هذا كثيرة في كتب التاريخ الماضية، فمعظم عصور الانحطاط للدولة الإسلامية. نجد دائما المرأة فيها منزوية بعيدة عن أي مشاركة من أي نوع.(٢)

والمثال الحي لهذا الرأي سأقدمه في كتابي هذا عن المرأة الأندلسية. وبخاصة في عصر الدولة الأموية أزهى العصور الأندلسية وقمة العطاء الإسلامي في الأندلس. وكيف كانت المرأة بارزة ولها دور هام ومكانة سامية.

١- حول حقوق المرأة في الإرث ونصيبها راجع:- سورة " النساء " الآيات (٧، ٢١).

٢- زينب رضوان: الإسلام وقضايا المرأة، ص ٧، ٨.

دراسة نقدية وتحليلية لأهم المصادر والمراجع للكتاب.

أولا : المصادر

(١) ابن القوطية القرطبي: (ت ٣٦٧هـ – ٩٧٧م).

كتاب تاريخ افتتاح الأندلس.

هو أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن إبراهيم بن عيسى بن مزاحم ويعرف " بابن القوطية " ، والقوطية التي ينتمي نسبه إليها هي الأميرة " سارة " حفيدة غيطشة Witiza ملك إسبانيا القوطي. وقد ذهبت سارة إلى الشرق في خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان. شاكية إليه ما وقع عليها من ظلم من عمها الذي نهب ميراثها، وفي تلك الرحلة زوجها الخليفة من قائده عيسى بن مزاحم، وعادت معه إلى الأندلس. ومن سلالتها جاء المؤرخ "ابن القوطية" وترجع أهمية هذا الكتاب بالنسبة لموضوع البحث فيما نقله ابن القوطية عن جدته سارة بحكم الزواج المختلط الذي تم بينها وبين العنصر العربي باعتباره من طبقة "المولدين" التي جعلته يتحيز ويميل إلى عنصره المولد على حساب العنصر العربي في كتاباته.

وكان هذا من النقاط التي أشرنا إليها في النقطة الخاصة بطبقة المولدين، وما نتج عنها من نزعات قومية وتعصب ضد الجنس العربي والسيادة العربية، بل وصل الأمر لدرجة أن اعتبر الأستاذ الدكتور/ أحمد مختار العبادي ابن القوطية، هو واضع اللبنة الأولى " لحركة الشعوبية " في الأندلس. ومن المعروف أن الشعوبية لم تهاجم الإسلام كدين، وإنما كدولة حرمت العنصر المولد من كل مرافق الدولة، واستأثر بها العرب دون سائر العناصر الأخرى المكونة للمجتمع الأندلسي.

وقد أفاد هذا الكتاب موضوع البحث، من حيث انفراد ابن القوطية بين مؤرخي القرن الرابع الهجري في نقل تلك المؤامرة التي كانت بين " طروب " والفتى " نصر"، حاجب القصر، ضد الأمير عبد الرحمن الأوسط. وقد نقلها ابن القوطية بالتفصيل، وعنه نقل كثير من المؤرخين اللاحقين .

وقد ورد في هذا الكتاب أيضاً ما يفيد من أن هذه الأميرة سارة القوطية سلمت زوجها جميع ممتلكاها تمشياً مع التقاليد القوطية الإسبانية. رغم علمها بأن الإسلام كما هو معروف يعطى المرأة حق التصرف في ممتلكاها دون وصاية زوجها.

وكتاب تاريخ افتتاح الأندلس له أكثر من مخطوطة. ومن الذين قاموا بنشره العالم الإسباني باسكوال دى جاينجوس P. Gayangos كما ترجمه إلى الإسبانية المستشرق الإسباني خوليان ريبيرا "J. Ribera" مدريد ١٩٢٦م.

(٢) ابن حزم: (٣٨٤ – ٤٥٦هـ) (٩٩٤ – ١٠٦٣م).

طوق الحمامة في الألفة والألاف.

هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، وينحدر من أسرة إسبانية الأصل، وكان أبوه محمد وزيرا للمنصور بن أبي عامر: ولهذا عاش ابن حزم الفترة الأولى من حياته عيشة

سعيدة مرحة في قصور الخلافة بقرطبة، وقد أثرت هذه الحياة المترفة في شخصيته ووجدانه، ومكنته من التفرغ للدراسة والتحصيل على أيدي أكبر علماء الأندلس في عصره.

ومؤلفات ابن حزم كثيرة، وما يهمنا منها هنا كتابه الشهير باسم " طوق الحمامة في الأُلفة والأُلاف " الذي ألفه وهو في ثورة الشباب، وفي أيام المجد التي شهدها بقرطبة سنة ٤١٠ هـ قبل أن تتعرض قرطبة للفتن والمؤامرات والتي شهدها هو بنفسه في أخريات حياته والتي أثرت عليه في كتاباته وتصرفاته.

والكتاب عبارة عن رسالة فلسفية أدبية في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه وما يقع فيه وله على حد قوله: فالموضوع كما نرى يتحدث عن عاطفة الحب، وما يترتب عليها من علاقات بين الرجل والمرأة، ولذلك جاء الكتاب مليئا بإشارات كثيرة ومعلومات مفيدة عن الحياة الاجتماعية للمرأة الأندلسية، أفادتني في موضوع البحث. وخاصة أن ابن حزم كما ذكرت كتبه بدون تحفظ وهو في سن الشباب واندفاعه، ولذلك جاء صادقاً في تعبيره وفي غاية الدقة والعذوبة والصراحة أيضاً.

ولقد تضمن كتاب طوق الحمامة قصصاً عديدة وصوراً مختلفة للمرأة الأندلسية، بقلم رجل معاصر لفترة هذا البحث، وهو ابن حزم، مما أضاء لي الطريق في هذا الموضوع. وحسبي أن اكتفي بذكر ما قاله هو نفسه عن نفسه في تلك العبارة إلى حسمت القضية لصالح المرأة الأندلسية عند قوله: أنه تلقى كل علومه ومعارفه على أيدي النساء، وأنه ما جالس الرجال، إلا وهو في حد الشباب، فتلك الشهادة من ابن حزم توضح لنا مدى ما وصلت إليه المرأة الأندلسية من تعليم وثقافة وإبداع.

ولقد اهتم العديد من المستشرقين بهذا الكتاب، ونقلوه إلى لغاتهم الأصلية مثل بتروف Petrof الروسي، ونيكل Nykl الأمريكي، وبرشية Bercher الفرنسي، وغرسية غومث Garceia Gómez الإسباني وغيرهم.

والطبعة التي اعتمدت عليها، هي آخر الطبعات العربية " لطوق الحمامة " هي التي حققها وقومها وقدم لها وعلق عليها الدكتور/ الطاهر أحمد مكي، والذي أعد بعد ذلك دراسة متفصلة مستمدة من روح ونصوص الطوق تحت عنوان " دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة " وقد أفادتني هذه الدراسة أيضاً.

(٣) ابن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ – ١١٤٧م).

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة.

هو أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، وينسب إلى شنترين Santarem وتقع حالياً في البرتغال. وينتمي ابن بسام إلى أسرة عريقة، عاشت في شنترين. وعندما كبر رحل إلى إشبونة ثم إلى قرطبة.

وينقسم كتاب الذخيرة إلى أربعة أجزاء طبقا للأقاليم الجغرافية الأندلسية كل قسم يتحدث عن الإقليم، وأمرائه وشعرائه. ولذلك حفظ لنا كتاب الذخيرة أجمل شعر الأندلسيين في الفترة التي ندرسها. ومثال ذلك الأشعار التي تبودلت بين ابن زيدون وولادة. ولهذا يعتبر ابن بسام مصدرنا الأساسي في كل ما أوردناه عن تلك الشخصية النسائية الفذة في تاريخ الأندلس. والشاعرة ولادة بنت الخليفة المستكفي التي وصفها ابن بسام في أسلوب جميل يدل على مدى إعجابه بها وبشخصيتها وإنجازاتها بل وينفي عنها كل التهم التي أُلصقت بها من حيث التحرر غير المألوف على عصرها.

وكذلك أورد لنا ابن بسام في الذخيرة مثالاً رائعاً للمرأة المكافحة التي يموت عائلها. فتتحمل بكل مهارة تربية أولادها. وذلك في معرض حديثه عن" ابن اللبانة " الشاعر الأندلسي المشهور.

وقد اعتمدت في التأريخ على القسم الأول من هذا الكتاب، والذي يتناول قرطبة وما يجاورها من بلاد وسط الأندلس. وقد نشر معظم هذا القسم في لجنة التأليف والنشر بالقاهرة ١٩٣٩ م، وطُبع طبعة أخرى للدكتور/ إحسان عباس، بيروت ١٩٧٩م، ويقع في سبعة أجزاء، وجزء خاص بالفهارس.

(٤) ابن بشكوال (ت ٥٧٧ هـ - ١١٨٢م).

الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وأدبائهم.

هو أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال، وواضح من اسمه بشكوال أنه تحريف للاسم الإسباني بسكوال Pascual وكتابه يعد من أبرز كتب التراجم الأندلسية، ويقع الكتاب في جزئين ونشره كوديرا Codera في مدريد سنة ١٨٨٣ م، وهناك طبعة أخرى للجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.١٩٦٦م.

وترجع أهمية هذا الكتاب بالنسبة لموضوع البحث. أن ابن بشكوالقد أفرد في نهاية الجزء الثاني من كتابه بضع صفحات لتراجم أبرز الشخصيات النسائية الأندلسية كالأديبات والمعلمات والشاعرات. وإن كنا نأخذ على الكتاب أنه ترجم لمجموعة قليلة منهن، وأن الترجمة كانت أحياناً غير كافية وغير واضحة، وعلى الرغم من أن بعض الترجمات كانت مختصرة ومقتضبة، إلا أنها كانت توضح ما يريد المؤلف أن يقوله لنا.

(٥) محمد بن عبد الملك المراكشي (ت ٧٥٣ هـ - ١٣٥٤ م).

الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة.

هو أبو عبد الله محمد الأنصاري بن محمد بن عبد الملك المُراكشي، وكتابه كما هو واضح من عنوانه عبارة عن تكملة لكتاب ابن بشكوال السالف الذكر. ونشأ مؤلف الكتاب كما يتضح من اسمه في مدينة " مُراكش " بالمغرب ثم رحل إلى الأندلس وبعد فترة قصيرة عاد إلى وطنه مرة أخرى.

والكتاب عبارة عن موسوعة علمية لبعض رجال وعلماء الأندلس البارزين. وأيضاً من رحل إليها من المشارقة أو المغاربة حتى أواخر القرن السابع الهجري.

و يقع الكتاب في جزئين. وقد أفادني فائدة عظيمة، إذ أن صاحبه قد ذيله في نهاية الجزء الثاني منه بتراجم للنساء الأندلسيات والمغربيات اللاتي زرن الأندلس في عصره. والكتاب مرتب على حروف المعجم. وكان يقع في تسعة أجزاء سبعة لأهل الأندلس واثنان للغرباء الذين دخلوا الأندلس. وقد ضاعت بعض أجزاء هذا الكتاب، أما الأجزاء الباقية فقام بنشرها الأستاذان إحسان عباس، ومحمد بن شريفة. وقد صدر منها فعلاً خمسة مجلدات في بيروت ١٩٦٤- ١٩٦٥م.

(٦) ابن عذارى: كان حياً في (٧١٢ هـ - ١٣١٢م).

البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب.

هو عبد الله محمد بن عذارى المُراكشي وواضح من اسمه أنه مغربي الأصل، وعاش في عصر الموحدين وبداية عصر بنى مرين، ويعتبر كتاب " البيان " من أهم مصادر تاريخ المغرب والأندلس.

والكتاب عبارة عن أربعة أجزاء - الجزء الأول شمل أخبار المغرب والجزء الثاني شمل أخبار الأندلس- من الفتح حتى سقوط الخلافة الأموية- والجزء الثالث خاص بعصر الطوائف، أما الجزء الرابع فخاص بتاريخ الموحدين وبداية عصر بنى مرين، وقد استفدت من الجزء الثاني، الذي تناول تاريخ الأندلس حتى سقوط الدولة الأموية، ففيه أورد ابن عذارى بشيء من التفصيل أخبار أمهات الأولاد اللاتي تزوجن أمراء بني أمية، وقام بتوضيح ما إذا كانت جارية أم حرة مع ذكر كل واحدة باسمها وكنيتها ولقبها، وأحياناً نبذة عن تاريخها كما فعل مع السيدة " صبح " التي أمدنا بأخبارها بالتفصيل مع المنصور بن أبي عامر، وترجع أهمية هذا المصدر أيضاً في تناوله للعديد من الجوانب على الساحة الأندلسية سواء سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو علمية وبخاصةً في الناحية العلمية، فقد عرفنا من خلاله العديد من الأشعار لكثير من الجواري الأندلسيات.

وقد اعتمدت على طبعة الكتاب التي تعهدها الأستاذان/ ليفي بروفنسال وكولان في الجزئيين الأول والثاني (بيروت ١٩٥٠) أما الجزء الثالث فعني بنشره بروفنسال منفرداً.

أما الجزء الرابع فقد نشره المستشرق الإسباني/ أويثي ميرندا، والعالمان المغربيان إبراهيم الكتاني، ومحمد بن تاويت. الرباط. ١٩٦٣م.

(٧) المقَّــرِي (ت ١٠٤١ هـ - ١٦٣١م).

نفح الطيب، من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب.

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي العيش بن محمد المقَّــري- التلمساني المولد- والمقَّــري التلمساني جزائري من مدينة مقَّــرة [بتشديد القاف] بجوار قسنطينة. وقد جاء إلى مصر ومات بها ودفن بترابها.

ويُـعد كتاب " نفح الطيب " من أهم الكتب التي استفدت منها استفادة عظيمة في موضوع البحث، إذ هو عبارة عن موسوعة علمية كبيرة عن الأندلس نصفها الأول يتضمن التعريف بالأندلس، بينما نصفها الثاني عن الوزير الغرناطي لسان الدين بن الخطيب تقديراً واعجاباً به، والكتاب أُلف في أثناء رحلات المقري في مصر والمشرق بعيداً عن وطنه ومكتبته، فجاء الكتاب غير منظم. كثير الاستطراد والتكرار، ولكن هذا لم يمنع من كونه مصدراً أساسياً وترجع أهمية هذا المصدر بالنسبة لموضوع البحث في أن المقّـري أفرد فصلاً كاملاً لنساء الأندلس، مع إبراز الإنجازات الخاصة بكل واحدة منهن، ولا سيما في مجال الإبداع الأدبي والعلمي، فقد أرخ لأكثر من خمسة وعشرين منهن.

ورغم ما نالته المرأة الأندلسية في كتاباته من توضيح واهتمام، إلا أن كلامه عنها كان مقتضباً وغير كاف، وربما يرجع ذلك لبعد الفترة التاريخية، وبعد المكان. فقد كان معظم ما ذكره منقولاً عن مصادر أخرى سابقة عليه،ولم يأت إلا بالقليل الجديد، ورغم هذا يعتبر من المصادر الهامة للبحث.

وقد نُـشر الكتاب عدة مرات. فهناك طبعة بولاق القديمة في أربعة أجزاء (القاهرة ١٨٦٣م) وهناك طبعة الشيخ/ محي الدين بن عبد الحميد في عشرة أجزاء (القاهرة ١٩٤٥م) ثم نشره أخيراً الدكتور/ إحسان عباس في ٨ أجزاء. والجزء الثامن خاص بالفهارس للأجزاء السبعة الأخرى، مما يسهل على الدارس عملية البحث، وتلك هي الطبعة التي اعتمدت عليها.

ثانياً: المراجع الأوربية الحديثة.

(١)هنرى بيرس Heneri Pérès الشعر الأندلسي في القرن الحادي عشر

جوانبه العامة، وموضوعاته الرئيسية.

La Poésie Andalouse en Arabe Classique ou X1 Siécle.

ومؤلف الكتاب هو المستشرق الفرنسي هنري بيرس. أحد المستشرقين المعاصرين البارزين في دراسة الأدب الأندلسي، والكتاب عبارة عن دراسة تحليلية للشعر الأندلسي واستنباط الكثير من مظاهر الحياة الاجتماعية في الأندلس من خلاله، وهي معلومات يصعب أن نجدها في الكتب التاريخية.

وبطبيعة الحال كان للمرأة الأندلسية نصيب كبير في هذا الكتاب الرائع، إذ عرفنا الكثير عن حياتها من خلال أبيات الشعر التي تناولتها. ولقد أفرد بيرس للمرأة فصلاً خاصاً من كتابه تحت عنوان " المرأة والحب " وكان بيرس أكثر المستشرقين تعقلاً في حكمه على وضع المرأة الأندلسية، وجاء ذلك نتيجة لعنايته الفائقة بدراسة الشعر الأندلسي وسبر أغواره. إلى حد قوله أن الأندلسيين ذهبوا بحب المرأة إلى درجة العبادة.

والواقع أن بيرس لم يكن مبالغاً في أحكامه، لأن المرأة الأندلسية شاركت مع الرجل في كل مجالات الحياة، وحدثنا الكتاب عن هذا، وقد أفادني الكتاب أيضاً في معرفة أنواع المآكل والمشارب، وأدوات الزينة والملابس، وجوانب أخرى عديدة في حياة المرأة، وردت أوصافها فيه.

وقد صدر الكتاب باللغة الفرنسية عام ١٩٥٣. ثم قام بترجمته إلى العربية الدكتور/الطاهر أحمد مكي، مع إضافة حواشي وشروح مفيدة لكل ما قد يكون غامضاً. وصدر عن دار المعارف بالقاهرة في يونيه ١٩٨٨م.

(٢) خوليان ريبيرا (١٨٥٨– ١٩٣٤ م) Julián Ribera.

ديوان ابن قـُـزمان: بحث في كتابه "المقالات والرسالات".

El Cancionero de Abn Cuzman en Disertaciones y Opusculos.

ريبيرا أحد المستشرقين الأسبان الملهمين البارزين في مجال الأندلسيات. ولم يتعرض ريبيرا في حديثه عن المرأة بصفة مباشرة ، وإنما جاء حديثه عنها من خلال بحثه الذي ألقاه في المجمع الملكي الإسباني، عند اختياره عضوا فيه عام ١٩١٢م، وكان البحث عن ديوان ابن قزمان، أحد شعراء الأندلس في القرن السادس الهجري (١٢م) وأول من وصل إلينا ديوانه في الأزجال، ونُـشر البحث بعد ذلك في سنة ١٩٢٨م في كتابه الذي يحمل عنوان " المقالات والرسالات " وتناول ريبيرا الحديث عن المرأة الأندلسية في معرض حديثه عن مشكلة اللغة التي كان يتحدثها سكان الأندلس، وكان أول من اكتشف أن الأندلسيين يتحدثون لغتين عاميتين مختلفتين جنباً إلى جنب هما العربية والرومانثية Romance إحدى لهجات اللاتينية.

وقد ناقشت في هذا البحث آراء ريبيرا عن دور المرأة، وأهميته في أسبنة المسلمين القادمين من المشرق والمغرب.

وناقشت أيضاً آراءه حول دخول العرب الأندلس، فهو يميل إلى أن العرب قد دخلوا الأندلس أفراداً دون أسراهم، وأن العرب بعد عدة أجيال قد فقدوا خصائصهم وأصبحوا أسباناً ابتداءً من الجيل الثالث نتيجة لهذا الزواج المختلط.

ثالثاً: المراجع العربية الحديثة.

(١) الأستاذ الدكتور/ أحمد مختار العبادي.

أستاذ التاريخ الإسلامي، والحضارة الإسلامية، كلية الآداب. جامعة الإسكندرية.

أ– في تاريخ المغرب والأندلس.

ب– دراسات في تاريخ المغرب والأندلس.

ج– الإسلام في أرض الأندلس– أثر البيئة الأوروبية... وغيرها.

وقد استفدت إلى حد كبير من كتابات أستاذي الدكتور/ أحمد مختار العبادي. ورجعت إليه في كثير من نقاط البحث الأساسية، وبخاصة للنقاط التي تكون غامضة وتحتاج إلى توضيح في المصادر الأساسية. وكتابات الدكتور/ العبادي في تاريخ الأندلس وحضارتها كثيرة وثرية، وتعتبر من أهم المراجع الحديثة المتخصصة في هذا المجال. فقد أخذت برأي سيادته في العديد من المسائل التاريخية والحضارية والتقاليد والأعياد والاحتفالات، وما يصاحبها من تأثير وتأثر واختلاط.

(٢) الأستاذ الدكتور/ السيد عبد العزيز سالم.

أستاذ التاريخ الإسلامي، والحضارة الإسلامية، كلية الآداب جامعة الإسكندرية.

أ- تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس.

ب- قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس.

ج- دائرة معارف الشعب..... وغيرها.

وقد أفدت أيضاً من معظم كتب أستاذي الدكتور/ السيد عبد العزيز سالم فائدة كبيرة، وخاصة كتاب " تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس " فهو عبارة عن موسوعة تاريخية حضارية، سياسية لكل نواحي الحياة الأندلسية، من الفتح وحتى سقوط الخلافة، وكذلك كتاب " قرطبة حاضرة الخلافة " فهو يلقى الضوء على تلك المدينة الساحرة، التي كانت تعتبر العاصمة و قلب الحياة الأندلسية.

أما مقالاته في دائرة معارف الشعب، والتي تناول فيها بشكل مفصل ودقيق الحياة العلمية والأدبية، وفن الغناء والموسيقى الأندلسية، فكانت خير معين لي في إنارة الطريق، ومعرفة الكثير عن أسلوب الحياة الأندلسية في هذا المجال.

دراسة تمهيدية وعرض سريع لتاريخ الأندلس

في عصر الولاة والأمراء والخلفاء الأمويين.

في البداية أود أن أوضح أنني لن أتناول هذا العرض بمنظور سياسي بقدر الإمكان. فالتاريخ السياسي معروف، وإنما سأتناوله من خلال علاقته بموضوع الكتاب، ومحاولة معرفة مدى تواجد المرأة على مسرح الأحداث وخاصة في بداية الفتح الإسلامي لإسبانيا.

ومما لاشك فيه أن كلمة الأندلس لها في قلب كل عربي ومسلم، مكانة سامية كما لها في نفس الوقت رنة حزينة وعند المثقفين مكانة مرموقة، ولا غرو فقد التقى على أرضها الشرق بالغرب، وامتزج القديم بالحديث، وقد بلغت الحضارة العربية آنذاك قمتها كما بلغت الآداب شأواً عظيماً، وبدأت تستقل بمزايا خاصة عن مصادرها الأولى في المشرق، وبهذا أضافت إلى الذخائر العربية ذخائر طريفة وفريدة وبخاصة في الشعر والأدب.[1]

ولن أضيف جديداً إذا ذكرت أن وضع المرأة يمثل الحضارة والواجهة للأمة التي تنتمي إليها خير تمثيل. ومن ثـم أستطيع أن أذكر وبمنتهى الصراحة أن المجتمع الإسلامي الأندلسي، قد بلغ بالمرأة أعلى درجات الرقي والتقدم،ولن أكرر ما ذكرته المرأة عن نفسها، وعن خلجاتها، بل ما ذُكر عنها وما تناوله الشعر عنها من خلال مقطوعات غاية في العذوبة والرقي وضعتها في مكانة عالية، لم تطاولها امرأة مثلها معاصرة لها.

وكانت إسبانيا القوطية قبل الفتح الإسلامي، على أتم الاستعداد لحركة التغيير التي جاءت مع الفتح الإسلامي. فقد كانت مكونة من طبقتين لا صلة لإحداهما بالأخرى، طبقة الأحرار وطبقة العبيد، ولا يمكن أن تقوم بينهما أي روابط وبخاصة في الزواج.[2]

وجاء الفتح العربي الإسلامي لإسبانيا، بما يحمله من تسامح فاستقبله أهالي البلاد أحسن استقبال. وكلمة الأندلس هي الاسم الجديد الذي أطلقه المسلمون على شبه جزيرة إيبيريا " إباريه " تعريباً لكلمة " فندالشيا " التي كانت تطلق على الإقليم الروماني المعروف باسم باطقة Batica الذي احتلته قبائل الجرمان ما يقرب من عشرين عاماً. ويسميهم الحميري بالأندليش.[3] ويضيف

١- ليفي بروفنسال: سلسلة محاضرات عامة في أدب الأندلس وتاريخها. ١٩٤٧ – ١٩٤٨ م. المطبعة الأميرية- القاهرة ١٩٥١ م، ص ١٤.

٢- Aguado Bleye:Manuel de la Historia de España.Tomo I. Madrid 1947.P.361

٣- الحميري: (أبو عبد الله محمد الحميري) صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار، تحقيق/ ليفي بروفنسال، ١٩٣٧م ، ص٢؛ السيد عبد العزيز سالم: دائرة معارف الشعب. كتاب الشعب العدد (٦١) عن فن الغناء والموسيقى في الأندلس، ١٩٥٩ م. ص ٣

الحميري عن الأندلس في كتابه" الروض المعطار" قائلاً: بأن الأندلس شامية في طيبها وهوائها، يمانية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، أهوازية في عظم جبايتها، صينية في جواهر معادنها، عدنية في منافع سواحلها [١] وتعرف الأندلس في اللغة اليونانية باسم إيبيرياIberia ، وفي اللغة اللاتينية باسم هسبانياHispania[٢] وفي بادئ الأمر كانت كلمة الأندلس تطلق على شبه جزيرة إيبيريا وبعد مرور سنوات وتبعاً للوضع السياسي أخذ اللفظ يقل مدلوله الجغرافي بعد أن ضاعت أجزاؤها الشمالية. حتى صار آخر الأمر وبعد سقوط مملكة غرناطة وانتهاء الحكم الإسلامي في إسبانيا سنة ٨٩٧هـ- ١٤٩٢م يطلق على الأجزاء الجنوبية من شبه جزيرة إيبيريا، وهي المنطقة التي تشمل اليوم ولايات قرطبة Cordoba وإشبيلية Sivlla وغرناطة Granada ويطلق عليها الأسبان لفظ أندالوثيا Andalucia.[٣]

وتعرف الفترة الأولى للحكم الإسلامي في الأندلس بعصر الولاة، وهي فترة مضطربة اشتهرت بالغزوات الخارجية التي شنها ولاة الأندلس على جنوب فرنسا. كما اشتهرت أيضاً بالفتن الداخلية التي قامت بين العرب والبربر تارة، وبين العرب أنفسهم تارة أخرى، وكانت الأندلس في ذلك الوقت إمارة غير مستقلة وتتبع الخلافة الأموية في الشرق بدمشق ويحكمها والٍ يعرف بالأمير، وهو يتبع أمير إفريقية من الناحية الإدارية. وكان يعينه غالباً والي القيروان.[٤]

وكانت أول الجيوش التي دخلت الأندلس، الجيش العربي البربري المشترك بقيادة القائد طارق بن زياد، والذي هزم القوط هزيمة ساحقة في " شذونة" بعد معركة شرسة ضارية استغرقت أسبوعاً من ٢٨ رمضان إلى ٥ شوال ٩٢ هـ / ١٩- ٢٦ يوليو سنة ٧١١ م.[٥] وبعد دخول طارق الأندلس أقام عدة أيام في جبل طارق الذي عرف باسمه Gibraltar وهناك بنى طارق قاعدة عسكرية بجواره على الساحل، وهي مدينة الجزيرة الخضراء Algeciras وتسمى في المصادر العربية بجزيرة " أم حكيم " على اسم جارية لطارق كان قد حملها معه عند الغزو ثم تركها في هذه

١- الحميري: نفس المصدر. ص ٣.

٢- الحميري: نفس المصدر، ص ١.

٣- أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية الإسكندرية، ص١٩، ٢٠. بدون تاريخ.

٤- أحمد مختار العبادي: نفس المرجع: ص ٨٥.

٥- ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ٤ أجزاء، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثانية١٩٨٠م ، تحقيق ج. س كولان. وليفي بروفنسال، جـ ٢، ص١٠؛ المقري: (أحمد بن محمد المقري التلمساني) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، حققه الدكتور/ إحسان عباس. ٨ أجزاء. دار صادر، بيروت ١٩٦٨م. جـ١. ص٢٥٩؛ أحمد مختار العبادي: نفس المرجع. ص ٦٦.

البلدة فنسبت إليها [١] وفي السنة التالية (٩٣ هـ - ٧١٢ م) لحق بطارق قائده الأعلى موسى بن نصير، على رأس جيش عربي،ومضى يأخذ دوره في عملية الفتح. [٢]

وكان أول ولاة الأندلس عبد العزيز بن موسى بن نصير، ولم تطل مدة حكمه وقتل بعد فترة قصيرة [٣] سنة (٩٨ هـ - ٧١٦ م) وتولى من بعده على مدى عصر الولاة كله سبعة عشر والياً، وذلك على مدى ستة وأربعين عاماً، كان أولهم ابن عمته أيوب بن حبيب اللخمي. والذي نقل الحاضرة إلى قرطبة، بعد أن كانت إشبيلية على عهد الأمير عبد العزيز بن موسى. ونذكر من هؤلاء الولاة السمح بن مالك الخولاني (١٠٠- ١٠٢ هـ / ٧١٨-٧٢٠ م) وعُين من طرف الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١هـ)، وأشهر أعماله تجديد القنطرة القديمة على نهر الوادي الكبير بقرطبة. [٤] وعبد الرحمن الغافقي والذي تولى الإمارة مرتين، وهزم في المرة الثانية هزيمة ثقيلة أوقفت أي تقدم إسلامي بعد ذلك فيما وراء البرتات، وذلك في موقعة توربواتيه الشهيرة [٥] (١١٤هـ - ٧٣٢م / ١٣٨هـ - ٧٥٥م) أو بلاط الشهداء كما يسميها مؤرخو العرب. [٦] ثم بدأ عصر الإمارة بتولي الأمير عبد الرحمن بن معاوية إمارة الأندلس، بعد صراعات عديدة مع معارضيه، وبدأ عبد الرحمن بن معاوية " الداخل " الرحلة من الشرق بدمشق إلى الغرب بالمغرب، ثم الأندلس وكانت رحلة طويلة وشاقة برز من خلالها مشاركة المرأة في المساعدة بأحسن ما تكون المساعدة. بداية من أختيه أم الأصبغ وأمة الرحمن ،والتي ساعدتاه بالمال اللازم والموالي لمواصلة تلك الرحلة الشاقة [٧] حتى وصل إلى أخواله النفزيين في المغرب، وبقي معه من

١- الحميري: المصدر السابق، ص ٧٣؛ أحمد مختار العبادي: تاريخ افتتاح الأندلس لابن الكردبوس، وهو قطعة من كتاب الإكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق الدكتور/ أحمد مختار العبادي، مدريد ١٩٧١، ص ٤٤؛ ليفي بروفنسال: تاريخ إسبانيا الإسلامية، جـ ١، ص ٦.

٢- السيد عبد العزيز سالم: دائرة معارف الشعب العدد (٦١) ص ٦

٣- راجع أسباب مقتل عبد العزيز بن موسى: الفصل الثاني دور المرأة السياسي ص ١٣١.

٤- السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، مؤسسة شباب الجامعة، الأسكندرية ١٩٦١ م، ص١٣٤؛ حسين مؤنس: فجر الأندلس، الطبعة الأولى. القاهرة، ١٩٥٩. ص ٢٤٦ حاشية (١).

٥- عن معركة توربواتييه أنظر:- حسين مؤنس: نفس المرجع، ص ٢٧٤، ٢٧٥.

Leve Provencal: Histore de l'Espagne Musulmane. leiden.
1950 – 1954. pp. 62, 63. Paris. 3 Vols.

٦- شكيب ارسلان: تاريخ غزوات العرب، ص ١٠٠.

٧- مجهول: أخبار مجموعة، ص ٥٤، ٥٥، ٥٦؛ ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢، ص ٤٠، ٤١؛ المقري: نفح الطيب، جـ ١، ص ٥٤٦، جـ ٣، ص ٢٨؛ ليفي بروفنسال: تاريخ إسبانيا الإسلامية جـ١، ص ٨.

Dozy: Historia de los Musulmanes de Espana. Tomo I. Leyden 1861. p.253.

الموالى الذين أرسلتهم أختاه مولاه بدر. أما أبو الشجاع سالم فقد عاد إلى المشرق بعد أن اطمأن عليه.[١]

ويذكر الخـُشني أن عبد الرحمن لم ينس صنيع أخته أم الاصبغ بعد أن أستقر به الأمر في الأندلس، وأصبح أميراً فأرسل معاويه بن صالح إلى أخته بالشام، كي يأتى بها ليعوضها عما فعلته معه في رحلته، لكنها آثرت البقاء في الشام وقالت للرسول: لقد كبرت سني ولا طاقة لي على شق البحار وحسبي أن أعلم ما صار إليه من نعمة. ويبدو أن أخته الأخرى أمة الرحمن كانت قد ماتت لعدم ذكر اسمها في النص المذكور.[٢]

وأثناء تواجد ابن معاوية بالمغرب قبل نزوله إلى الأندلس يذكر المقري: أنه نزل " بمُغيلة " عند شيخ من رؤسائها يدعى " وانسوس "[٣] ويكنى أبا مرة وزوجته تدعى " تكفات " وقد خبأته تحت ثيابها في أثناء مداهمة رجال عبد الرحمن بن حبيب الفهري له. ولم ينس لها ولزوجها ابن معاوية هذا العمل الذي انقذ حياته بعد أن صار أميراً للأندلس فأكرمها وقال لها يوماً مداعباً: لقد عذبتنى يوماً بريح إبطيك يا تكفات، على ما كان بي من الخوف فكان جوابها سريعاً دون حرج قائلة: بل كان ذلك قد خرج منك وأنت لم تشعر به من فرط فزعك فاستظرف جوابها، وأغضى عن مواجهتها وأكرمها هي وزوجها واستظلا بظله طوال إقامتهما في الأندلس.[٤]

ونستدل على وجود المرأة في الأندلس من خلال الصراع الذي دار بين عبد الرحمن بن معاوية ومعارضيه ولاة الأندلس يوسف الفهري والصميل بن حاتم ، فقد بادرا بإرسال وفد عندما علما بنزوله إلى " طـُرش" يعرضا عليه أن يوسف الفهري يريد أن يقربه إليه وبزوجة ابنته أم موسى، وكانت قد ترملت في ذلك الوقت من زوجها قطن بن عبد الملك، حتى يكون تحت أعينهم بعد أن رأوا شعبيته تزداد يوماً بعد يوم.[٥]

وعند دخول ابن معاوية الأندلس أرسلت "أم عثمان " زوجة يوسف الفهري، له خطاباً وهو بوادى شرنبة، وكانت هي بقرطبة مقر الإمارة وإقامتها. تـُعلمه بدخول ابن معاوية

---

١ – عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم، ص ١٧٩؛ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى بداية عهد الناصر والخلافة الأموية والدولة العامرية، العصر الأول. القسم الأول. القاهرة١٩٥٥. ص ١٥٠.

٢ – الخـُشني: (أبو عبد الله محمد بن حارس بن أسد القيرواني) تاريخ قضاة قرطبة، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ م، ص١٦، ١٧.

٣- وقد استقر وانسوس وأسرته في الأندلس، ومن نسله أصبغ بن عبد الملك بن وانسوس، والذي قام بثورة على الحكم الربضي سنة ١٩٠هـ. للمزيد من التفاصيل راجع:– ابن عذاري: البيان المغرب، جـ٢.

٤ – المقري: نفس المصدر، جـ ١، ص ٣٣٣، ٣٣٤؛ عبد العزيز سالم: نفس المرجع، ص ١٧٨.

٥- مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، حققه الأستاذ/ إبراهيم الإبيارى، الطبعة الأولى ١٩٨١م، ص ٧٠، ٧١. عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين، ص ١٨١، ١٨٢، ١٨٤.

الأندلس وأنه حاليا وصل إلى" طـرش " وأنه تحالف مع موالي بني أمية. والتف حوله الكثير من الأتباع.[١]

ويذكر صاحب أخبار مجموعة أيضاً، أن السنة التي دخل فيها ابن معاوية الأندلس، دخل فيها أيضاً عبد الملك بن عمر بن مروان، ويقال له المرواني. وجزى بن عبد العزيز بن مروان ومعهما أولادهما وبناتهما. وتتابع ناس كثيرون من بني أمية ومواليهم وكثروا. مما يؤكد ما ذكرناه حول دخول المرأة الأندلس مع أولى بدايات العصر الإسلامي في الأندلس.[٢]

ويذكر ابن القوطية أن ابن معاوية، عندما دخل قصر الإمارة استنجدت به زوجة يوسف الفهري وابنتاه وقلن له " يا ابن العم " أحسن كما أحسن الله إليك فأمر صاحب الصلاة بقرطبة، بضمهن إلى نساء داره، ومنع جنوده من الوثوب والاعتداء عليهن. ولكن حمايته لزوجة وبنات يوسف أغضب جنده عليه، وقد أهدت له ابنة يوسف الفهري جارية تسمى " حلل " وهي أم هشام " الرضا " ولي عهده[٣] وكذلك نفهم من كلام ابن قتيبة: أن موسى بن نصير صحب معه نسائه وبناته وذلك عند قوله: ونازل موسى حصناً ثالثاً، فاشتد عليه القتال حتى مال المسلمون نحوه، فأمر موسى بسرادقه فكشطه عن نسائه وبناته؛ حتى برزت فحمي المسلمون وكسرت بين يديه أغماد السيوف، مما لا يحصى، واحتدم القتال وفتح الله عليه ونصره.[٤] ونرى من خلال النص السابق الحيلة التي وصل إليها موسى عندما رأي تقاعس جنوده عن احتلال مدينة " ماردة " فلجأ إلى تعريض نسائه للأسر. كمظهر من مظاهر الاحتجاج، ونرى إلى أي حد وصلت حماية المسلمين وغيرتهم على نسائهم[٥] وتولى بعد عبد الرحمن بن معاوية ابنه هشام الرضا. ثم ابنه الحكم الربضي، وكان لهؤلاء الأمراء الفضل في توطيد أركان الدولة الأموية بعد عبد الرحمن الداخل، وذلك من الناحية السياسية والحضارية.

ولكن أهم الأمراء بعد عبد الرحمن الداخل، كان حفيده عبد الرحمن بن الحكم " الأوسط " (٢٠٦ – ٢٣٨ هـ / ٨٢١ – ٨٥٢ م) وكان رجلاً على مستوى كبير من العلم والثقافة[٦] وقد تألقت في عهده شخصيات كثيرة أبرزهن " طروب " جاريته وأم ولده عبد الله.[٧]

١- مجهول: المصدر السابق. ص ٧٣، ٨٤. R.Dozy: Historia de los Musulmanes. Tomo I. p.274.

٢- مجهول: نفس المصدر. ص ٨٧.

٣- ابن القوطية: (أبو بكر محمد القرطبي) تاريخ افتتاح الأندلس. القاهرة. بيروت. الطبعة الأولى ١٩٨٢. ص٥٠، ٥١ ؛ الخشني: قضاة قرطبة، ص ١٤، ١٥؛ عبد العزيز سالم: المرجع السابق. ص ١٩١.

٤- ابن قتيبة: الإمامة والسياسة. ص ٨.

٥- أحمد مختار العبادي. الإسلام في أرض الأندلس، أثر البيئة الأوربية. مقال بمجلة عالم الفكر. العدد الثاني. المجلد العاشر ١٩٨٤م، ص ٦٢.

٦- ابن خلدون:كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر،سبعة أجزاء–دار الكتب العلمية– بيروت١٩٩٢م.جـ٤.ص١٣٠

٧- عبد العزيز سالم. دائرة معارف الشعب. العدد (٦١) ص ٨.

وتولى بعد عبد الرحمن الأوسط عدة أمراء إلى أن جاء عصر الخلافة الأموية بتولي " عبد الرحمن بن محمد المعروف بالناصر لدين الله " والذي بدأ عصر الخلافة (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ / ٩١٢ - ٩٦٢م) وتلقب بألقابها في أعلامه وطرزه، وبقيت الخلافة من بعده في ذريته إلى انتهاء الدولة الأموية بقرطبة.(١)

وبدأ عبد الرحمن الناصر عهده بمواجهة كافة الأخطار الخارجية، حتى استقامت له جميع الأندلس(٢) وخلف الناصر ابنه " الحكم المستنصر بالله " ثم خلفه ابنه "هشام المؤيد" وكان صغيراً تحت وصاية أمه " صبح البشكنسية " والحاجب ابن أبي عامر، الذي تلقب فيما بعد " بالمنصور " وأبعد الخليفة هشام المؤيد. وبدأ دولته العامرية، ويأتي من بعده ابنه عبد الملك المظفر، الذي يقتل بعد مدة قصيرة من ولايته، وبعد مقتله يتولى أخوه الأصغر عبد الرحمن شنجول.

وكانت ولاية شنجول للحجابة بعد أبيه وأخيه بداية النهاية للدولة العامرية والأموية معاً، وذلك عندما أعلن نفسه خليفة، فقد دخلت قرطبة في فتنة وصراعات طويلة، تولى فيها عدد من الخلفاء الضعاف، إلى أن انتهت الخلافة الأموية نهائياً في قرطبة. وبدأ عصر آخر عُرف في التاريخ " بعصر ملوك الطوائف " وذلك عندما أعلن الوزير" أبو الحزم بن جهور " محو خلافة بني مروان من الأندلس.(٣)

وبعد هذا العرض السريع للتاريخ الأندلسي، وولاته وأمرائه وخلفائه.نرى أن الفتح العربي لإسبانيا، لم يكن مجرد إحتلال عسكرى، صعدت فيه الجيوش الإسلامية إلى أقصى الشمال، ثم هبطت إلى الجنوب مثل الترمومتر أو ميزان الحرارة، بل كان حدثاً تاريخياً هاماً، أمتزجت فيه حضارات سابقة كالرومانية والقوطية، مع حضارة جديدة وافدة وهي الحضارة الإسلامية، ونتج عن هذا المزيج حضارة أندلسية مزدهرة، وصلت إلى الفكر الأوربي المجاور، وأثرت فيه. فقد تغلغل الفتح الإسلامى لإسبانيا في الحياه الإسبانية، وترك فيها أثاراً عميقة، مازالت تتراءى لنا مظاهرها بوضوح إلى اليوم، في اللغة والمجتمع، بل وبعض العادات والتقاليد، التي لم يستطع المجتمع الإسباني، رغم مرور تلك السنوات التخلص منها نهائياً. وسنرى من خلال البحث أن هذا المزيج، قد أخرج لنا مجتمعاً فريداً من نوعه في العالم الإسلامى كله.

١- Garcia Gomez: Una Cronica anonima de Abd al Rahman III, Al Nasir, Madrid, 1958 p.79.

٢- عبد العزيز سالم: دائرة معارف الشعب، العدد (٦١) ص ٨، ٩.

٣- عبد العزيز سالم: نفس المرجع والصفحات.

الفصل الأول.

دور المرأة الاجتماعي في الأندلس.

أولاً: الفاتحون المسلمون والزواج المختلط منذ الفتح الإسلامى حتى سقوط الدولة الأموية في الأندلس.

ثانياً: التسري بالإماء والجواري عن طريق السبي.

ثالثاً: طبقة المولدين نتاج الزواج المختلط والتسري بالإماء.

رابعاً: أثر السراري والجواري في مجال الحياة الاجتماعية. "فن الغناء والموسيقى".

خامساً: العادات في الزى، واستخدام أدوات الزينة، والتزين بالحلي والتطيب بالعطور.

سادساً: الزواج والطلاق.

أولاً: الفاتحون المسلمون والزواج المختلط ، من الفتح الإسلامى للأندلس حتىسقـوط الدولـة الأمويـة في الأنـدلس

دخل العرب الأندلس في جماعات محدودة، وعلى موجات متتابعة تعرف بالطوالع.[1] ولما كان الفاتحون العرب والبربر، قد دخلوا الأندلس كجنود عسكريين، ولم يصطحبوا معهم عائلاتهم، فقد أقبلوا على مصاهرة الإسبان أهل البلاد، ومضوا على هذا النحو يتزوجون من الإسبانيات ما شاؤا وعاشروا أهل البلاد وجاوروهم. وعن طريق هذه المجاورة أو المصاهرة، نشأت طبقة المولدين. وانتشر الإسلام في الأندلس، إنتشاراً تجاوز كل تقدير في الحسبان، وهكذا أمتزجت دماء الفاتحين من العرب والبربر بدماء أهل البلاد الأصليين، بهذا الإختلاط البشرى الواسع النطاق.[2]

ولقد استحوذت عملية دخول العرب إسبانيا على اهتمام الكثير من المؤرخين العرب والمستشرقين. فصاغوا حولها الكثير من القصص والحكايات نذكر منها تلك القصة العربية الشهيرة. والتي تتصل بموضوعنا، والتي كانت بطلتها ابنة الكونت يوليان Julian حاكم مدينة

١- السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة. الأسكندرية. ١٩٦١م . ص١١٩ ؛ حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص ٣٥٥ ؛ حمدى عبد المنعم حسين: مجتمع قرطبة في عصر الدولة الأموية في الأندلس.رسالة دكتوراه نوقشت بآداب الإسكندرية سنة ١٩٨٤م ، ص٥٧٤.

٢- أحمد مختار العبادي: الإسلام في أرض الأندلس آثر نبيلة لأوربية. عالم الفكر المجلد العاشر. العدد الثاني. سنة ١٩٨٤م. ص ٦٢.

سبتة Cute وقت دخول العرب إسبانيا. وهي الفتاة التي أرسلها والدها إلى القصر الملكي القوطي بطليطلة Toledo لتتأدب وتتعلم فيه أسوة بغيرها من بنات الطبقة الراقية.

ولكن حدث أن اعتدى عليها لزريق Rodrigo ملك إسبانيا القوطي،كما ورد في الرواية العربية التي تُحمِّل هذا الملك مسئولية استهتاره، بينما تجعل من ابنة يوليان الضحية البريئة. مما جعل والدها بوازع الانتقام الشخصي، أن يُقـدِم على تحريض موسى بن نصير على غزو إسبانيا[١] هذه هي الرواية العربية التي تجعل من هذه القصة سبباً مباشراً لدخول العرب إسبانيا، وبمرور الزمن دخلت هذه القصة في المصادر الإسبانية المعاصرة مثل الحولية القوطية Cronica Gothrumوبالتالي في القصص والأغاني الشعبية الإسبانية التي تـُعرف في الأدب الإسباني باسم Romancero.

حيث نجد وصفاً لجمال هذه الفتاة، وكيف أنها كانت تهوى السباحة في نهر التاجوTajo بطليطلة، وكيف رآها الملك وهي تستحم فأحبها وتسميها المصادر الإسبانية باسم فلورندا Florinda ثم تنعتها بلقب المرأة الفاجرة " La cava" أي القحباء وتحملها وزر ما حدث.[٢]

١- وردت قصة ابنة يليان في:

(١) ابن القوطية: تاريخ إفتتاح الأندلس، ص ٣٣، ٣٤.

(٢) ابن عبد الحكم: (عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم) فتوح إفريقية والأندلس، حققه الأستاذ/ عبد الله أنيس الطباع. بيروت. لبنان ١٩٦٤ م، ص ٧٢

(٣) عبد الواحد المُراكشي: (محي الدين عبد الواحد المُراكشي) تاريخ الأندلس المسمى بالمعجب في تلخيص أخبار المغرب. المطبعة الجمالية. الطبعة الأولى ١٩١٤م، ص ٦.

(٤) ابن عـذارى المُراكشي: البيان المغرب، جـ ٢، ص٧.

(٥) ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر، جـ٤، ص ١٤١.

(٦) الحمـيري:الروض المعطار، ص ٧.

(٧) عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس، جمع مادته الأستاذ/ أحمد ابراهيم الشريف. وراجعه الدكتور/ أحمد مختار العبادي. مكتبة النهضة المصرية. الطبعة الأولى ١٩٥٨، ص ٤٧.

(٨) أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص٥٤،٥٥.تاريخ الأندلس لابن الكردبوس، ص٤٣،٤٤.

(٩) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم، ص ٦٨.

دائرة معارف الشعب عدد (٦٤). عن الحياة العلمية والأدبية في الأندلس، ١٩٥٩م . ص ٢٣٤.

Pedro Aguado Bleye: Manual de La historia de España, Tomo I. Madrid, 1947. p. 357

Levé Provençal: Histoire d' l' Espagne Musulman, vol. II. pp. 180, 211, 212, 293.

٢- العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٥٤.

Saavedra: "Eduardo" Sobre La invasion de Los Arabes en España.Madrid.1892.p.60.

فالرواية العربية تضع المسئولية على الرجل، بينما تجعلها الرواية الإسبانية على الفتاة، وكيفما كان الأمر فإن القصة برمتها يبدو فيها الخيال بشكل واضح. ولعلها تكون من اختراع القُصاص العرب. شأنها في ذلك شأن القصص العربية الأخرى. مثل قصة ابنة جرجير البيزنطي حاكم إفريقية. والتي أوردها ابن عذارى بأنها فتاة رائعة الجمال. وفي أثناء القتال مع القائد العربي عبد الله بن سعد بن أبي السرح، وعد أبوها بأن يزوجها من أي جندي من جنوده يستطيع أن يقتل القائد العربي عبد الله، وعندما وصل هذا الكلام إلى عبد الله وعد هو الآخر بدوره بأن يهبها لأي جندي يستطيع قتل جُرجير.[١] ويقال إن عبد الله بن الزبير، هو الذي قتله، فأعطاه ابن أبي السرح ابنة الملك جُرجير فاتخذها أم ولد.[٢]

وقد شغلت عملية زواج المسلمين الفاتحين بالإسبانيات. العديد من المؤرخين فمنهم من يؤيد الزواج وكثرته. باعتبار أن العرب دخلوا أفراداً، في حين أن البعض الآخر يقول أنهم دخلوا مع نسائهم مثل أم حكيم زوجة طارق بن زياد التي تركها في الجزيرة الخضراء Algeciras، التي سميت باسمها،ومثل نساء موسى بن نصير اللآتي صحبنه في حملته على الأندلس. ومن المعروف أن عبد العزيز بن موسى، عندما وصل إلى إشبيلية Sevilla إرتضاها قاعدة لملكه.[٣]

وكان أول من تزوج بإسبانية، إذ تزوج أرملة لزريق المعروفة بالاسم المسيحي Egilona أيلة وبالاسم العربي أم عاصم، وسكن معها إشبيلية[٤] وحذا حذوه كثير من رجال العرب، أمثال زياد بن النابغة التميمي، الذي تزوج هو الآخر من إحدى أميرات إسبانيا.[٥] وعبد الجبار بن نذير الذي تزوج من إحدى بنات تدمير.[٦] ومن أهم تلك الزيجات زواج عيسى بن مزاحم، من سارة القوطية Sara La Goda بنت الموند بن غيطشة Witiza وجاء من سلالتها المؤرخ القرطبي أبو بكر محمد بن القوطية.

وقد كان زوجها مولى لهشام بن عبد الملك الخليفة الأموي، وذلك عندما سافرت إلى دمشق لمقابلة الخليفة هشام. شاكية إليه عمها أرطباس بن غيطشة لاغتصابه ميراثها من أبيها. وهناك

١- ابن عذاري: البيان المغرب، جـ ١، ص ١٠.

٢- ابن عذاري: نفس المصدر، جـ ١، ص ١١، ١٢

٣- ابن عذاري: نفس المصدر جـ ١، ص ٢٣.

٤- عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم، ص ١٢٨؛ العبادي: الإسلام في أرض الأندلس، ص ٦٢.

٥- العبادي: نفس المرجع والصفحة ؛عبد العزيز سالم: نفس المرجع والصفحة.

٦- Ambrosio Huici "Miranda": Historia Musulmana de Valencia, Tomo I, 1969, p. 92.

تزوجت عيسى وعاد معها إلى الأندلس.[١] وقد رزقت سارة من عيسى بن مزاحم بولدين هما، ابراهيم وإسحاق. وقد أحرز ولداها مكانة ممتازة.[٢]

ويضيف ابن القوطية: أن عيسى بن مزاحم قبض ضياع سارة، وأنها سلمته أموالها كما كان متعارفاً عليه في الأندلس، إبان الحكم القوطي السابق على الفتح الإسلامي، ورغم أنها تعرف أن الإسلام يُـقر الذمة المالية المنفصلة للزوجة عن زوجها ويذكر الأستاذ الدكتور/ حسين مؤنس: أنها سلمته جميع أموالها وضياعها، بعد أن عاد معها إلى الأندلس. طبقاً للعادة القوطية المعروفة[٣]، والتي ماتزال متبعة إلى اليوم.

وتزوجها بعد عيسى بن مزاحم، عـُـمير بن سعيد، فولدت له حبيب بن عمير. جد بني سيد، وبني حجاج، وبني مسلمة، وبني حجر الجرز، وهؤلاء أشراف ولد عـُـمير بإشبيلية.[٤] وقد ولد وابن القوطية بقرطبة وتوفي بها سنة ٣٦٧هـ / ٧٧٧م وكتب تاريخه المسمى " تاريخ افتتاح الأندلس" بالإضافة إلى كتاب آخر في اللغة باسم " كتاب الأفعال ".[٥] ولعل ما يروي من قصص حول زواج القادة المسلمين بالإسبانيات، وإن كان بعضه يتسم بالخيال، إلا أنه يعطينا فكرة عن هذه الظاهرة الاجتماعية الهامة.[٦] ولقد استمرت هذه المصاهرات بين حكام المسلمين وعامتهم والإسبان، في قصص وروايات لا تنتهي، حتى نهاية الحكم الإسلامي في إسبانيا.

وكان من عادة هؤلاء النساء الإسبانيات، أن يتخذن أسماء عربية كما سنرى عند عرض أسماء أمهات الأولاد.[٧] ولقد كان معظم أمراء بني أمية، إن لم نقل جميعهم، من أمهات إسبانيات وجليقيات أو غالسيات، أطلق عليهن لقب أمهات أولاد.[٨] بداية من عبد الرحمن بن معاوية " الداخل " أول أمراء الأندلس، فقد كانت أمه بربرية من سبي المغرب، وحُملت إلى الشرق،

١- ابن القوطية: تاريخ إفتتاح الأندلس، ص ٨، ٣١، ٣٢؛ العبادي: في تاريخ المغرب. ص ١٢٨؛ العبادي:الإسلام في أرض الأندلس، ص ٦٢، ٦٣؛ عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم، ص ١٢٨.

٢- محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، جـ ١، ص ٦٠.

٣- حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص ٤٢١ ، ٤٢٢ .

٤- حسين مؤنس: نفس المرجع والصفحة.

٥- نشر كتاب التاريخ المستشرق الإسباني جايتجوس P. De Gayangos، بينما نشر كتاب الافعال المستشرق الإيطالي جويدي Guedi.

٦- أحمد مختار العبادي: الإسلام في أرض الأندلس، ص ٦٢.

٧- أحمد مختار العبادي: نفس المرجع، ص ٦٣، ٦٤.

٨- أم ولد: هي الجارية التي تنجب من سيدها غلاماً ذكراً، فتعتق في أغلب الأحيان. ويطلق عليها لفظ أم ولـــد كثيراً. ما كان يتزوجها سيدها ولا يجوز له بيعها. أو هبتها بعد ذلك.

وكانت تسمى راحاً أو رداحاً، وكانت تنسب إلى قبيلة نفزه البربرية، وهم أخوال عبد الرحمن والعاملين على حمايته وإخفائه عن أعين العباسيين، في أثناء رحلة هروبه إلى المغرب.[١]

وقد أنجب عبد الرحمن بن معاوية، أحد عشر ذكراً وتسع إناث[٢] ويذكر ابن حزم في " جمهرة أنساب العرب " أن عبد الرحمن بن معاوية" الداخل " بالأندلس والوالي عليها، هو وجميع ولده من بعده لأم ولد[٣] غير أنه يشير في نفس الوقت، إلى أن ابنه سليمان، من أم عربية لخمية من ولد حاطب بن أبي بلتعة.[٤]

ومن المعروف أن سليمان أكبر ولده، وأنجبه في الشام، وكان أسن من هشام بنحو أثنى عشر عاماً.[٥] والأمير هشام، هو الذى ولى بعد والده ولقب بالرضا، كانت أمه أم ولد إسبانية، بارعة الحسن تدعى " حلل " أهدمّا إليه إحدى بنات يوسف الفهري أو زوجته عقب دخوله قرطبة. وهي أحب نساء عبد الرحمن إليه وأكثرهن نفوذاً لديه.[٦] وابن عذارى يذكر أن اسمها " جمال".[٧] أما الحكم بن هشام الملقب " بالربضي " فأمه أم ولد اسمها " زخرف ".[٨]وتشير المصادر الأندلسية، إلى أن بني أمية، أكثروا في الإنجاب، فيذكر ابن حزم في " الجمهرة " أن عبد الرحمن الثاني " الأوسط " بن الحكم الربضي كان له مائة ولد، منهم خمسون ذكراً، وخمسون أنثى.[٩] وفي رواية أخرى

١- مجهول: أخبار مجموعة، ص ٥٦، ٥٧؛ ابن عذارى: البيان المغرب، جـ ٢، ص ٤١، ٤٧؛ابن الآبار: (أبو عبد الله محمد القضاعي) الحلة السيراء، جزءان، حققه الدكتور/ حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٦٣ م، جـ١، ص٣٥؛ المقري: نفح الطيب، جـ١ ، ص ٣٣٣؛ العبادي: في تاريخ المغرب و الأندلس، ص، ٩٦.

٢- ابن عذارى: البيان المغرب، جـ ٢، ص ٤٨.

٣- ابن حزم: جمهرة أنساب العرب. تحقيق عبد السلام هارون، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة ١٩٧١، ص٩٣.

٤- ابن حزم : نفس المصدر: ص ٨٦.

٥- ابن حزم : نفس المصدر: ص ٩٤.

٦- عبد الواحد المُراكشي: تاريخ الأندلس المسمى المعجب، ص ١٠. ويسميها المُراكشي " حوراء". المقري: نفح الطيب: جـ ١، ص ٣٤٠ ؛ أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١١٧؛ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، جـ١، ص ٢٢٤.

٧- ابن عذارى: نفس المصدر، جـ ٢، ص ٦١.

٨- ابن الخطيب: (لسان الدين أبو عبد الله محمد بن الخطيب) الإحاطة في أخبار غرناطة.أربع مجلدات. حققه الأستاذ/ محمد عبد الله عنان. مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٧٥. جـ ١، ص ٤٧٩؛ عبد الواحد المراكشي: نفس المصدر. ص ١٠، ١١؛ المقري: نفس المصدر، جـ ١، ص ٣٤١.

٩- ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص ٩٨.

للمقري، مائة وخمسون من الذكور، وخمسون من الإناث.[١] وأن أمه أم ولد كانت تدعى "حلاوة".[٢] وكان عبد الرحمن الثاني كثير الميل للنساء، فكان يعتقهن ويتزوجهن مثل مدثرة، وطروب، والشفاء. وفجر. وقلم، وغيرهن.[٣] وكان محمد بن عبد الرحمن بن الحكم. من أم ولد تدعى بُـــهير.[٤] والمنذر بن محمد بن عبد الرحمن، من أم ولد تدعى أثـــل.[٥]

وقد أورد ابن عذاري، أسماء جميع أولاد الإمام عبد الله بن محمد، الذين ولدوا له قبل الإمارة، ومنهم محمد أبو أمير المؤمنين الخليفة عبد الرحمن الناصر، وكانت أمه أم ولد تدعى " دُر".[٦] أما الخليفة عبد الرحمن الناصر نفسه فأمه جارية إسبانية نصرانية، تدعى ماريا أو " مُزنة". حسبما تسميها الرواية العربية[٧]. أما ولده وولي عهده الحكم المستنصر بالله، فأمه أم ولد تدعى "مرجان".[٨] وقد انجب الحكم المستنصر بالله، هشاماً، الذي ولى بعده، وهو ابن إحدى عشر عاماً، وتلقب بالمؤيد بالله. وقد مات ولا عقب له.[٩]

وهشام بن الحكم، أمه أم ولد، وهي السيدة صبح البشكنسية Aurora، وكان سيدها الحكم يسميها بجعفر،[١٠] وكانت مغنية.[١١] أما عبد الرحمن شنجولSanchuelo بن المنصور بن أبي عامر، فأمه أم ولد، أسلمت، وتسمت باسم "عبدة"، بينما أخوه عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبي عامر، فأمه حرة تدعى " الزلفاء".[١٢] وهناك أيضاً سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد

١- المقري: نفح الطيب، جـــ ١، ص ٣٢٥.

٢- ابن عذاري: المصدر السابق، جـــ ٢، ص٨٠؛ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، جـــ١ ، ص ٢٥٤.

٣- المقري: نفس المصدر ، جـــ ١، ص ٣٢٧، ٣٥٠.

٤- ابن عذاري: نفس المصدر ، جـــ ٢، ص ٩٣ ؛ محمد عبد الله عنان: نفس المرجع، جـــ ١، ص ٢٨٩.

٥- ابن عذاري: نفس المصدر ، جـــ ٢، ص ١١٣.

٦- ابن عذاري: نفس المصدر، جـــ ٢، ص ١٥١. وراجع أيضاً أسماء جميع أولاد الإمام عبد الله بن محمد في نفس المصدر.

٧- ابن عذاري: نفس المصدر، جـــ ٢، ص ١٥١. عنان: نفس المرجع. جـــ ٢، ص ٣٧٣.

٨- ابن عذارى: نفس المصدر ، جـــ ٢، ص ٢٣٣.

٩- ابن حزم: المصدر السابق . ص ١٠٠.

١٠- كلمة جعفر: معناها اللغوى الناقة الكثيرة الحلب، أو النهر. أو الجود والعطاء، ولعل ذلك راجع إلى أنها أنجبت له وليا للعهد، وابنه الوحيد هشام في أخر حياته.

١١- ابن عذارى: نفس المصدر، جـــ ٢. ص ٢٥٢؛ عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب. ص ١٤.

١٢- محمد عبد الله عنان: نفس المرجع، جـــ ١، ص ٦٠٨.

الرحمن الناصر الملقب بالمستعين بالله، فكانت أمه أم ولد تسمى " ظبية".[١] ويحيى بن علي المعتلي فأمه" لبونة " بنت محمد بن الحسن... إلخ. وقد اهتم عبد الواحد المُراكشي بذكر نسبها، إلى أن أوصله لسيدنا علي بن أبي طالب ﷺ ويبدو أنها كانت ذات شأن كبير، جعل المُراكشي يهتم بإيراد نسبها كاملاً.[٢] ونذكر أيضاً سليل الأدارسة، الشريف علي بن حمود الحسني، الذي كانت أمه بنت عم أبيه وأسمها " البيضاء ".[٣]

وإلى جانب ما أوردناه، من زيجات مختلطة بالإسبانيات. فقد كانت هناك عمليات زواج داخل نطاق الأسرة الحاكمة. مثال ذلك الأمير الحكم " الربضي" بن هشام، الذي فرض على عمه عبد الله البقاء في بلنسية. عقب إخماد ثورته،إلا أنه استدعى ابنائه إلى العاصمة، وزوجهم من بناته. ويبدو أن الهدف من هذا الزواج، هو الحفاظ على صلة الدم وروابط العائلة الحاكمة.[٤]

وتحدثنا أيضاً كتب التراجم الأندلسية عن زواج عدد كبير من العلماء والقضاه ورجال الدين، بنساء إسبانيات، نذكر منهم على سبيل المثال

زواج الوزير الشاعر تمام بن علقمة (ت ٢٨٣هـ) من ابنة رومانوس قومس جنوب إسبانيا، على أيام القوط، وزواج المؤرخ ابن خلدون، حينما زار الأندلس سنة ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م بفتاة إسبانية تدعى " هند ".[٥]

أما عن المصاهرات، التي حدثت بين المسلمين وأميرات الفرنجة، نذكر ذلك الزواج، الذي تم بين مونوسة البربري، وكان أحد قواد المسلمين في حروبهم فيما وراء البرتات، وبين ابنة دوق أدو Odo حاكم إقليم اكيتانيا Aquitaine، وكانت تدعى لاميجيةLampégie، أو منين Minine، فأعجبه جمالها وتزوج منها.[٦] ثم رأي مونوسة بعد ذلك ابنة القائد بلاىPeloyá فاختطفها وتزوجها. فغضب عليه قائده عبد الرحمن الغافقي، وطارده إلى أن سقط من قمة جبل ومات،

١- ابن عذارى: المصدر السابق، جـ ٣، ص ٩١؛ المُراكشي : المصدر السابق، ص ٢٤.

٢- المُراكشي : نفس المصدر، ص ٣٠.

٣- ابن عذارى: نفس المصدر. جـ ٣، ص ١١٩.

٤- أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٢٨.

٥- العبادي: الإسلام في أرض الأندلس، ص ٦٤، ٦٥.

وقد أرسل ابن الخطيب الوزير الغرناطي، لصديقه ابن خلدون. قصيدة يهنئه فيها بزواجه، بل إن الوزير الغرناطي نفسه، حينما كان مقيماً بالمغرب، قبيل هذا الوقت بقليل (٧٦٠هـ - ٧٦٣هـ) طلب من سلطان المغرب. أبي سالم المريني أن يهديه جارية إسبانية. العبادي: نفس المرجع: ص ٦٤. ٦٥.

٦- عبد العزيز سالم تاريخ المسلمين وآثارهم، ص ١٤١. هامش (٢).

وأُرسلت زوجاته إلى الخليفة الأموي بدمشق، فضمهن إلى حريمه، وهذه القصة لم ترد في المصادر العربية، ولكنها من القصص والشعر الشعبي الإسباني المعروف بـــ Romancero.[١]

ورغم أن مونوسة البربري، مات بعد خيانته للقائد والجيش، إلا أن المؤرخ الفرنسي جيشار Guichard يُضفي عليه نوعاً من البطولة. إذ يذكر أنه مات وهو يحاول منع زوجته الشابه Lampégie من الوقوع في أسر المسلمين، بعد أن قام بثورة ضد نظام الحكم. وأن زوجته المذكورة، وقعت في أسرالمسلمين، بعد وفاة زوجها دفاعاً عنها ونـــــقلت إلى الشام لتنضم إلى حرم الخليفة، ونراه لا يذكر أي إضافة عن اختطاف ابنة القائد بلاي، ومخالفة تعاليم القائد.[٢] كذلك نذكر الأميرة " زايدة المسلمة "Zaida La Mora" زوجة المأمون بن المعتمد بن عباد، التي هربت إلى قشتالة، بعد مقتل زوجها على يد المرابطين، عند دخولهم قرطبة فتزوجها ملك قشتالة وليون الفونسو السادس، وأنجب منها ابنه الوحيد سانشو الذي قتل في موقعة إقليش Ucles أمام المرابطين سنة ٥٠١هـــ/ ١١٠٨م. وتشير الرواية إلى وفاة أمه" زايدة " بعد ولادته، وإلى وفاة أبيه الفونسو بعد مقتله.[٣]

وكذلك نرى الثائر البربري الأصل محمود بن عبد الجبار المصمودي الذي أعلن الثورة في بلدة ماردة سنة ٢١٣هـــ – ٨٢٨ م ضد الأمير عبد الرحمن الأوسط، واضطر بعد أن هـــزم إلى اللجوء إلى جليقية Galicia حيث مات وبقيت أسرته هناك حيث تزوجت أخته " جميلة " التي أشتهرت بجمالها وفروسيتها، بأحد قوامسة أي حكام جليقية وأنجب منها ولداً أصبح فيما بعد أسقفا (أو القديس يعقوب) على مدينة شنتياقب Santiago de Compostela كبرى كنائس إسبانيا النصرانية.[٤] ورغم هذه الزيجات المختلطة من كلا الجانبين، فقد كان بعض القادة المسلمين يفضلون المرأة العربية المعروفة النسب، وخاصة ذات الجذور المشرقية، وكان الابناء نتاج هذا الزواج المشرقي، يفاخرون مفاخرة خاصة بالأندلس بأنهم من أصول معروفة.

ويذكر المقري أيضاً: أن زياد بن عبد الرحمن بن زياد اللخمي المعروف" بشبطون " في أثناء رحلته إلى المشرق، تزوج ابنة معاوية بن صالح.[٥] وقد كان شرفاً عظيماً للرجل أن يكون أبويه عربيين. فيذكر ابن عذارى أن المنصور بن أبي عامر، لما كان أبويه عربيين حاز الشرف من طرفيه، والتحف بعطرفيه.

١- العبادي: الإسلام في أرض الأندلس، ص ٦٢.

٢- Pièrre Guichard: Structres Sociales Orientales et Occidentales dans L'Espagne Musulmane. paris. 1977. p106.

٣- أحمد مختار العبادي: نفس المرجع، ص ٦٣، ٦٤.

٤- أحمد مختار العبادي: نفس المرجع والصفحة.

٥- المقري: نفح الطيب، جـــ٢، ص ٤٥.

وقال الشاعر ابن دراج القسطلي (طويل) شعراً يوضح المعنى السابق جاء فيه:

تـــلاقت عليه من تميم ويعرُب

شمـــوسٌ تلألأ في العـــلا وبُدوُر

من الحميرين الذيـــن أكُفهـــم

سحائب همي بالندى وبُحـــوُر[1]

وننتقل بعد ذلك للحديث عن دخول العرب إسبانيا، وهل دخلوها على شكل جنود عسكريين فقط، أم على شكل جماعات وقبائل من الرجال والنساء؟

فقد أثيرت حولها مناقشات عديدة، لانقسام المؤرخين وبخاصة المستشرقين إلى قسمين. ما بين مؤيد ومعارض. والقسم الأول يرى أن العرب دخلوا إسبانيا أفراداً دون أسراهم، ويتزعم هذا الرأي المستشرق الإسباني ريبيرا Ribera. ويقول: إن العرب كونوا أسراهم بعد نزولهم إسبانيا واستقرارهم فيها عن طريق الزواج والتسري بالإسبانيات.[2]

ويؤيد ريبيرا في هذا الرأي الأستاذ الدكتور/ حسين مؤنس. فيقول: ينبغي أن نلاحظ أن جميع العرب، الذين دخلوا الجزيرة، دخلوها رجالاً بدون نسائهم، ثم أتخذوا النساء من أهل البلاد، وقد توسعوا في ذلك فكثرت نساؤهم وكثر عيالهم أيضاً.[3] ويسترسل الدكتور/ مؤنس في عرض رأيه فيقول: أن العرب سواء اليمنية أو القيسية. عندما كانوا يترلون بلدا ما في الأندلس، فأنهم يترلون أفراداً دون أسراهم، ثم يقبلون بعد ذلك على التزوج أوالتسري بنساء ذلك البلد من الإسبانيات، وبمرور الزمن يؤلفون أسرات، قد تترك أنسابها على اسم البلد وعلى هذا النحو فأن الأجيال الناتجة من هذه الزيجات، لا يمكن أن تكون عربية خالصة من حيث نقاوة الدم.[4]

١- ابن عذارى: البيان المغرب، جـــ ٢، ص ٢٧٤.

٢- Ribera y Tarrago (Julian): El Cancionero de Aben Cuzman.Madrird. 1928. pp. 34, 35.

٣- حسين مؤنس: فجر الأندلس. الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٥٩، ص٣٦٥.

وقد قامت الأستاذة الدكتورة/ سحر سالم بعمل دراسة شاملة حول ظاهرة الزواج المختلط في الأندلس وهي دراسة قيمة، أضاءت لي الكثير من النقاط الغامضة. وأعانتني على معرفة أعمال كثير من المستشرقين وآرائهم ممن تناولوا هذا الموضوع.

راجع سحر سالم: مظاهر الحضارة في بطليوس. رسالة دكتوراه، نوقشت بآداب الأسكندرية، سنة ١٩٨٧، ص١٦٥ وما بعدها. وبحث عن الزواج المختلط في الأندلس، ص ٤، ٥ ... إلخ. تحت الطبع.

٤- حسين مؤنس: المرجع السابق، ص ٣٧٦، ٣٧٧؛الطاهر مكي: دراسات عن ابن حزم، ص ٣٠.

والحقيقة لا أعرف لماذا أقتصر الأستاذ الدكتور/ حسين مؤنس على ذكر العنصر العربي فقط، في حين أن المعروف بأن العنصر المغربي أو البربري، فاق العنصر العربي بأعداد كثيرة في عملية الفتح.

ولقد كان المستشرق الإسباني/ خوليان ريبيرا من أشد المتحمسين لغربية الحضارة الإسبانية، ويتخذ من المرأة وسيلة في المحافظة على هذه الغربية ضد الغزو العربي المشرقي. فيذكر ريبيرا أن الفاتحين المسلمين قد ذابوا في الوسط الإسباني بسرعة، بسبب كثرة زواجهم من الإسبانيات، مما حول الطبقة المولدة إلى طبقة إسبانية حقيقية.(١) وقد أصبح الزواج من الإسبانيات تقليداً شائعاً عند أهل الأندلس أمرائهم وخلفائهم خاصتهم وعامتهم، ومن أمثلة ذلك زواج امراء بني أمية في الأندلس من نساء البشكنس والجلالقة، ممن يقعن في أيديهم سبيا بسبب الحروب المتواصلة والغزوات المتتابعة، إلى حد أن كثيراً من الباحثين المعاصرين يعتبرون البيت الأموي بيتا مولداً، وأن هؤلاء الأمراء كثيراً ما يعتزون بأصولهم العربية ويتغاضون عن أصولهم الإسبانية.(٢)

ويبدو واضحاً تحيز ريبيرا للحضارة الإسبانية في الأندلس، حيث نراه يُفاخر بأن العبقرية الإسبانية، أوضحت بجلاء في ذلك الوقت الصبغة الوطنية التي تميزت بها دون سائر الأمم الغربية.(٣)

ورغم هذا التحيز الواضح من ريبيرا، إلا أننا نقول بأن الحضارة الإسلامية في إسبانيا صُنعت في المقام الأول بأيدي عربية أندلسية، مع الأمتزاج والخلط الذي أخرج مزيجاً ومذاقاً جديداً من تلك الحضارة.

إلا أن ريبيرا ينفي دائماً وجود العنصر العربي، والتأثير الذي وضعه في إخراج هذا المزيج الفريد، ومن أنصار الرأي الأول أيضاً المستشرق الإسباني سانشيث البورنوث Sanchez Alboronoz والذي يقول بدأت سلسلة الزواج المختلط عقب الفتح الإسباني مباشرة، فقد بدأها أمراء بني أمية، وأولهم الأمير عبد الرحمن بن معاوية، أول أمير أموي في قرطبة، إذ تزوج وتسرى بنبيلات وجواري إسبانيات، جاء من ثمرتهم الجدود الإسبان.

وأيضاً زواج سارة القوطية Sara La Goda حفيدة غيطشة Witizaفأصبح الابناء على حد تعبير البورنوث Hispano-arabe " أسبان– عرب " أي مختلطين، بل ويعتقد أنه بعد مرور قرنين على الفتح الإسبني،وكثرة التسري والزواج بالإسبانيات، ضاع الدم العربي، وأصبح الابناء أسباناً،

١- Ribera : EL Cancionero ..10. Guichard :op cit . p142.

٢- سحر سالم: بحث عن الزواج المختلط، ص ١. تحت الطبع

Ribera y Tarrago(julian): EL Cancionero de Abn Cuzman. Madrid 1928. p10. Guichard: op. cit. p 142.

٣- Ribera y Tarrago: Disertaciones y Opusculos. Tomo I. p.350

ويضرب مثلاً بسارة القوطية، التي استطاعت أن تحافظ على استمرار الدم الإسباني في نسلها المولد، وسلالتها الممتدة. (١)

ومن أنصار الرأي الأول أيضاً هنرى بيرس Heneri Pérès عندما تناول المرأة في الأندلس في فصل كامل من كتابة " الشعر الأندلسي في القرن الحادي عشر الميلادي" والذي ترجمه الأستاذ الدكتور/ الطاهر مكي. تحت عنوان " الشعر الأندلسي في عصر الطوائف".

والفصل جاء تحت عنوان " المرأة والحب " ويؤيد فيه بيرس دخول العرب الأندلس أفراداً دون أسراهم، واضطرهم الحاجة إلى تكوين أسرات بالزواج من الإسبانيات، واتخاذ عشيقات " يقصد سراري" من نساء إسبانيا وبعد عدة أجيال امتزجت الدماء العربية بدماء أصحاب البلاد الإسبان، وكانوا من الظاهر بحكم ديانتهم ولغتهم يظهرون كعرب، وإنما في الباطن والواقع كانوا إسباناً. (٢)

ويسترسل بيرس في عرض الصورة، بأنه إذا كان الجانب الأكبر من الشعب قد نسى أصوله العرقية، ولم يكن يهتم كثيراً بمعرفة الأنساب، فقد كان الأمراء على النقيض، يحاولون أن يرتفعوا بأنسابهم إلى جدودهم الأولين، ليبرهنوا على نقاء دمهم العربي، ونفوذهم السياسي، ولم يتردد الشعراء الذين درسوا الأنساب العربية أيام طلبهم العلم، في استخدام معارفهم، والعزف على هذا الوتر الحساس. (٣)

أما الرأي الثاني والذي ينادي بدخول العرب أسرات، فيمثله المستشرق الفرنسي جيشار Guichard. فيرى أن المسلمين دخلوا الأندلس بأسراهم وأن القول بدخول العرب والبربر الأندلس أفراداً، يعتبر خطأ كبيراً، إذ على أساسه لا يتم انصهار بين الغالبين والمغلوبين، وتذكر الأستاذة الدكتورة/ سحر سالم أن جيشار بالغ في تصوره، بأن العرب استطاعوا أن يحافظوا على هياكل أنسابهم، عن طريق الزواج من بعضهم البعض، صحيح أن بعض العرب، صاهروا بعضهم البعض، حفاظاً على نقاوة الدم، لكنهم صاهروا المغلوبين أيضاً من أهل البلاد. (٤)

ويؤكد ابن خلدون: هذا المعنى والاتجاه في الحفاظ على نقاوة الدم فيقول: أن الفصل بين البدو الرُحل، وبين العالم الخارجي، هو الضامن الأكيد لعدم تلوث الدم، نتيجة هذا القـران المرفوض،

١- Sanchez Alboronoz "Cloudio": La Espana Musulmana, Buenos Aires, 1946, Tomo I, p 66. Guichard: op. cit., p142.

٢- Heneri pérès: La poésie Andalouse en arabe Classique au XI^{e} siécle, Paris, 1953, pp 397, 399, 400.

هنري بيرس: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ص ٢٣١.

٣- هنري بيرس: نفس المرجع، والصفحة.

٤- سحر سالم: مظاهر الحضارة في بطنيوس، جـ ٢، ص٨٥، ١٦٥

Guichard: Structures Sociales p 39.

مع العنصر الأجنبي عن العشيرة.[١] وأعتقد أن رأي ابن خلدون – وإن جانبه الصواب – يمكن أن يطبق على نطاق القبائل والعشائر البدوية المحددة المغلقة، وإنما في مجتمع مفتوح. كالمجتمع الأندلسي، تأتيه الجواري والخصيان من شتى بقاع العالم المعروف حينذاك، فمن الصعب جداً الحفاظ على نقاوة الدم. ورغم هذا حاول الكثيرون، من أمراء بني أمية، ابراز هويتهم العربية دائماً بقدر ابتعادهم عن هويتهم الإسبانية، وحاول بعض المؤرخين البارزين أيضاً، ابراز تلك الهوية. ونأخذ هذه الانطباعات من خلال كتاباتهم ونذكر منهم.

" ابن القوطية" و"ابن حيان" و"ابن حزم" فهم لا يفاخرون كثيراً بكونهم ينتمون إلى الإسبان عن طريق الأم.[٢] وقد توصلت الأستاذة الدكتورة/ سحر سالم إلى نتائج هامة لتلك الظاهرة، وهي ظاهرة الزواج المختلط في الأندلس، وأعتقد أنها أنسب النتائج لتفسير تلك الظاهرة، وهي أن ظاهرة زواج الفاتحين العرب والبربر بالإسبانيات، كانت تواكب في الوقت ذاته ظاهرة زواجهم من مسلمات عربيات أو بربريات "مغربيات".وساعد على شيوع ذلك، تقبل المسلمين لمبدأ تعدد الزوجات، إستناداً إلى الشريعةالإسلامية،التي تبيح الزواج والتسري.وأن الفاتحين المسلمين دخلوا الأندلس أفراداً وجماعات في آن واحد، وخاصة كبار القادة منهم..[٣] فقد اصطحبوا أسراتهم رغبة في الاستقرار، وأيضاً لعدم معرفتهم بالمدة التي تأخذها عملية الفتح، ولحاجتهم إلى نسائهم وذراريهم.[٤] والأمثلة التي ذُكرت في المصادر الإسلامية حول هذا المعنى، وإن كانت ليست بالكثرة، فقد ذُكر بعض كبار القادة فقط "كطارق بن زياد" و" موسى بن نصير" هي ما جعلتنا نؤيد الرأي الذي يقول أن العرب نزلوا الأندلس أفراداً وجماعات في آن واحد. فلابد أن كثير من كبار القادة، قد اقتدوا بهم في اصطحاب أسراتهم في أثناء عملية الفتح.

هذا ويقودنا الحديث عن زواج المرأة الأندلسية. إلى مناقشة الآراء التي أثيرت حول حريتها. فقد تعددت الأقاويل حول حرية المرأة الأندلسية. وكالعادة انقسم الباحثون ما بين مؤيد ومعارض. والمؤيد يريد أن يوضح بجلاء مدى تأثير الغرب الإسباني،على حرية المرأة الإسبانية المسلمة. والمعارض يريد أن يوضح،مدى محافظة إن لم يقصد تزمت الأسلام والمسلمين في المحافظة عليها. وسنعرض كل رأي على حدة.

١- ابن خلدون: "المقدمة" دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٢م. ص ١٣٨، ١٣٩.

٢- Guichard: op. cit, p 142.

٣- راجع المقدمة عن الدراسة التمهيدية، وكيف تواجد العنصر النسائي على مسرح الأحداث في الأندلس، ص١١ وما بعدها.

٤- سحر سالم: مظاهرة الحضارة في بطليوس، ص ١٧٦.

سحر سالم: وبحث عن الزواج المختلط. ص ٧.

أولاً:من أبرز المؤيدين لحرية المرأة الإسبانية المسلمة هنري بيرس Henari Pérès ،ففي الفصل الخاص"بالمرأة والحب" في كتابه الشعر الأندلسي في القرن الحادي عشر، يرى بيرس أن المرأة قد نالت قدراً كبيراً من حرية الحركة والعمل والثقافة، ولعبت دوراً هاماً يفوق ما لعبته نظيراتها في المشرق،وأن المرأة الأندلسية، لم تكن سجينة بيتها، كما هو متبع في العادات الشرقية.(١) وينقل جيشار Guichard تلك الآراء أيضاً عن بيرس ويضيف أيضاً: بأن المسلمين في إسبانيا، يتركون للمرأة حرية غريبة للسير في الطرقات، من الصعب التوفيق بينها وبين الآداب الإسلامية،وأن ما يُمنح لها من احترام، إنما ينبثق من المعتقدات الإسبانية بصورة واضحة.(٢) ويؤيد بيرس في هذا الاتجاه سانشيث البورنث Sanchez Albornoz،في أن حرية المرأة الأندلسية، مشبعة بجذور وايحاءات غربية،بل ومسيحية أيضاً، ويتضح هذا في ظل الدور الذي تلعبه المرأة الإسبانية في تكوين العنصر الأندلسي.(٣)

ويؤكد البورنث على تميز المشاعر العاطفية للمرأة الأندلسية، مستشهداً على ذلك بتدعيم فكرته،بمعظم شعراء الأندلس،الذين تربوا تربية إسبانية لأمهات أندلسيات،مثال ابن زيدون،وابن اللبانة،وابن حزم،وأن لديهم مفهوماً غربياً للحب،نابعاً من البيئة الأوروبية الغربية،بل والمسيحية أحياناً،التي عاشوا فيها.(٤) أما الرأي الثاني والمنادي بتشدد البيئة الإسلامية على المرأة،بصرف النظر عن المكان شرقياً أو غربياً،فيتزعمه المستشرق الإسباني ريبيرا Riberaوتشدده تجاه المرأة جاء في اتجاهين،أو نقطتين،وضعها أو مكانتها،ودورها، فهو يؤكد أنه لم توجد بارقة ضوء لانتشالها من الوضع المزري والمتردي،الذي وجدت فيه، فهي تساوي الخدم في المرتبة لدى رب البيت،وانحصرت وظيفتها في إرضاع الأطفال. وكانت حياتها تمضي بطيئة كئيبة،تدور كلها في فلك مزاج زوجها،وإرضائه. فقد كانت محبوسة ومعزولة،ولا ترى العالم الخارجي أبداً.(٥) ويُرجع ريبيرا أسباب تدني وضع المرأة،إلى أن النساء كــن ضعف عدد الرجال، وأن طبيعتهن لا تؤهلهن لممارسة الأعمال، التي يقوم بها الرجال،ويرضين دائماً بأنصاف الأعمال، والتي تكون غير ضرورية.(٦) وما ذكره ريبيرا فيه إجحاف كبير لدور المرأة بصفة عامة، والمرأة الأندلسية بصفة خاصة. فلو تصفح ريبيرا صفحات كتاب التاريخ الخاص بالمرأة الأندلسية جيدا،وخاصة صفحات الأدب النسائي الأندلسي،العرف بما لا يدع مجالاً للشك،أن هذا الأدب الرائع،لا يمكن أن يخرج من نساء مضطهدات،ومكبوتات،بل يخرج من نساء لهن عقول صافية،ملمة بكل ما يجرى حولها،ومدركة

١- Henari Pérès: La Poésie. p 13.

٢- Guichard: Structures Sociales, p 125.

٣- Guichard: op. cit, p 165.

٤- Guichard:op. cit. p. 165.

٥- Ribera: Disertaciones y Opusculos. Tomo I, p 348.

٦- Ibid: p 348.

لجريات الأمور،ومن الآراء التي أخذت أيضاً بمبدأ تأثير البيئة الأندلسية،على حرية المرأة،ما ذكره تشارلز أوبرون Charles Aubrun الذي خصص للمرأة الأندلسية،فصلاً مستقلاً بذاته،عندما أرخ للمرأة في العالم الوسيط.

فيقول: إن دماء المسلمين انصهرت مع دماء المسيحيين، فذابت المؤثرات الشرقية الضعيفة، أمام تيار التأثير الإسباني الغربي القوي.(١) أما أكثر الآراء اعتدالاً في عرض هذا الموضوع.فهو رأي الفرنسي جيشار:الذي يذكر أن التضارب كبير بين الدراسات التي تناولت وضع المرأة الإسبانية المسلمة،وأثر الغرب في وضعها وحريتها،وأنها أكتسبت قدراً أكبر من الحرية في الأندلس،بالمقارنة بالمشرق،مستمدة ذلك من البيئة المحلية،مع المحافظة على تقاليدها الإسلامية.

ويمكننا القول بصفة عامة،أن المرأة الأندلسية المسلمة،لم تتنكر لجدودها. وقد تمكنت من الإنصياع لأحكام وقوانين الإسلام،دون أن تتخلى عن عادات الحرية والاستقلالية المتوارثة من البيئة المحلية الأوربية.(٢) والواقع أن هذا الرأي هو أقرب الآراء للصواب،فالمرأة الأندلسية لم تنل الحرية المفرطة،والتي يشبهها بيرس،واليورنث بالإنحلالية،ولا الكبت المفرط،الذي يشبهه ريبيرا بمرتبة الخدم،وإنما في رأيي،أن المرأة الأندلسية كان عندها استعداداً فطرياً،لتقبل مبادئ الإسلام،والتي لم تدعوا مطلقاً إلى سجن المرأة،وعزلها عن الحياة،وإنما المحافظة عليها،وعدم ظهورها بشكل غير لائق،يسئ إلى سمعة الإسلام،والمسلمات.

وفي نهاية تلك النقطة أستعير تلك الكلمات التي وردت في رسالة الأستاذة الدكتورة/ سحر سالم. التي تقول فيها: " لسنا هنا بصدد الدفاع عن المرأة،فتلك قضية محسومة،لأن الإسلام كرم المرأة،ورفع من شأنها،وعوضها عما كانت تعاني من ظلم واحتقار في الجاهلية،فإذا كان الإسلام قد ساوى بين الأجناس،فلا فرق بين أسود وأبيض،ولا عربي ولا عجمي،ولا عبد ولا سيد.إلا بالتقوى،فلا شك أن الإسلام قد أنصف المرأة على هذا النحو،وحفظ لها كرامتها واعتبارها."(٣)

١- سحر سالم: بحث عن الزواج المختلط، ص ٢٢.

Charles Aubrun: La Famme au moyen âge en Espagne Vol. II. p 165 – 186.

٢- Guichard: op. cit. p 683.

٣- سحر سالم. مظاهر الحضارة في بطليوس. ص ٢٤٢.

ثانياً: التسري بالإماء والجواري عن طريق السبي.

عُرف التسري بالإماء والجواري منذ صدر الإسلام،فقد تسرى رسول الله ﷺ بمارية بنت شمعون القبطية،وريحانة بنت سعد القـُرظية،وهي من بني قريظة. [1]

ولقد ارتفع الإسلام بأتباعه إلى منزلة الإنصاف للرقيق،ووضعه في مكانه لم تبلغها الإنسانية بآدابها وقوانينها ودساتيرها وأنظمتها،بعد أكثر من الف سنة. [2] وكانت غزوات المسلمين كثيرة،يجمعون فيها الكثير من السبايا، ومن أشهر ما ورد حول هذه الغزوات،غزوات المنصور بن أبي عامر،والتي كان يجمع فيها غنائم وسبي كثير،ويذكر دوزي Dozy أنه في إحدى غزواته،عاد إلى قرطبة يجر ورائه الغنائم والسبايا،فاستمال قلوب العامة والخاصة. [3]

وقد كسب المنصور شعبية كبيرة لدى المسلمين،وزادت هيبته وسطوته في داخل البلاد وخارجها.وذاع صيته في كل مكان،ومن مظاهر ذلك قولعبد الواحد المراكشي:أن المنصور ملأ الأندلس غنائم وسبياً من بنات الروم، وأولادهم ونسائهم،وبلغني أنه نودي على ابنة عظيم من عظماء الروم بقرطبة،وكانت ذات جمال رائع،فلم تساوب أكثر من عشرين ديناراً عامرية. وفي هذا المعنى يروي ابن عذارى:أنه عقب وفاة المنصور،خرج الناس صائحين مات "الجلاب" أي الذي غمرهم بالسبايا والنعم. [4]

وكان عدد الجواري كبيراً،وينتمين إلى جنسيات مختلفة،ومن مناطق متنوعة في الأندلس،فمنهن القادمات من قطالونية أو الباسك أو جليقية أو جنوب فرنسا،ويطلق عليهن في المصادر القديمة

١- الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٢١٦.

ويبدو من نص الطبري:أن الإسلام لم يحرم على رجاله التسري بالجواري، بصرف النظر عن ديانتهن، فكما هو واضح من هذا النص،كانت الأولى نصرانية، والثانية يهودية،ولم يصادفنا نص حول هذا الموضوع،نفهم منه تغيير أي منهن لديانتها.

٢- ابن عبد ربه: طبائع النساء ص ٨٤.

٣- Dozy: Histoire des Musulmans d'Espagne, Vols II, p 213.

٤- ابن حزم: (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي)، طوق الحمامة في الألفه والالاف، ضبط نصه وحرر هوامشه. الاستاذ الدكتور/ الطاهر أحمد مكي، دار المعارف ١٩٨٥، ص ٤٨؛ ابن عذارى: البيان المغرب. جـ ٣، ص ١؛ أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢٥٠؛ إميلو غرسية غومث: " الشعر الأندلسي بحث في تطوره وخصائصه " ترجمة الأستاذ الدكتور /حسين مؤنس.القاهرة ١٩٥٢م . ص ٤٧.

اسم"الفرنج" وكن مرغوبات ومحبوبات لبياض بشرتهن وشقرة شعرهن،ويمثلن الأغلبية،إلى جانب قلة من الصقلبيات.[١]

ويذكر:اميليو غرسية غومث:أن أمراء بني أمية الأندلسيين،كانوا يفضلون الشقراوات،ويصور لنا ذلك كله أبو عبد الملك مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن الناصر الملقب"بالطليق" في مجموعة من أبيات الشعر،توضح تفضيله للشقراوات،ويمثلهن"بالتبر أي الذهب" ويعيب غومس على العنصر العربي،إستهتاره بالمرأة،في كلتا صورتيها"حرة أم جارية" في أنه لم يهتم بالجانب النفسي من حياتها،وأنه لم يستشعر من جمالها إلا الجانب الحسي الملموس فقط،وأنهم أسرفوا كثيراً في التغزل بالجانب الحسي،ووصف الجسم الجميل،وتشبيهه بالدر واليواقيت،التي عثروا عليها في كل رياض اللغة.[٢]

وقد أكثروا الحديث في المواصفات،التي كان يحبها الرجل في الجارية. أو المرأة بصفة عامة:فمن أشهر الأقوال حول هذا الموضوع،ما ذكره"عبد الملك بن مروان"من أراد أن يتخذ جارية للمتعة فليتخذها بربرية، ومن أرادها للولد فليتخذها فارسية،ومن أرادها للخدمة فليتخذها رومية."[٣]

وفي هذا المعنى يقول الأصمعي: بنات العم أصبر،والقرائب أنجب،وما ضرب رؤوس الأبطال كابن الأعجمية.[٤]

ويبدو لنا بوضوح،من هذا النص الصريح الواضح،على براعة ابناء السراري والجواري، وخاصة غير العربيات،أي المجلوبات من بلاد الفرنجة، والعلاقات التي لايكون فيها صلة قرابة بين الرجل والمرأة،تؤدي إلى نتائج طيبة في تحسين مستوى النسل"أي الذرية"شكلاً وعدداً.[٥] وكثرت أعداد الجواري بصورة كبيرة في قصور الأمراء والخلفاء،وقد نال الأمير عبد الرحمن الثاني"الأوسط" نصيب الأسد في اقتنائهن، والكثرة منهن.

١- الطاهر أحمد مكي: " دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة" الطبعة الثالثة ١٩٨١م، ص٣٠. والصقلبيات:هن من يؤتى بهن من المنطقة السلافية، وهم سكان المنطقة الممتدة من بحر قزوين شرقاً،إلى البحر الأدرياتي غرباً.وكانت في العصور الوسطى تسمى بلغاريا العظمى،ولقد دأبت بعض القبائل الجرمانية،على سبي تلك الشعوب السلافية،وبيع رجالها نسائها إلى عرب إسبانيا.ولذلك أطلق العرب عليهم اسم الصقالبة.ثم توسعوا في استعمال اللفظ،فأطلقوه على سبي أي أمة مسيحية"؛ أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢١١.

٢- إميليو غرسية غومث: الشعر الأندلسي، ص ٤٨، ٤٩.

٣- ابن قيم الجوزية: (شمس الدين أبو عبد الله محمد الدمشقي) أخبار النساء، تحقيق الدكتور/ نزار رضا، بيروت ١٩٨٥ م، ص ١١؛ ابن عبد ربه: طبائع النساء، ص ٤٣.

٤- ابن عبد ربه:نفس المصدر. ص ٤٤.

٥- هنري بيرس: الشعر الأندلسي، ص ٢٥٦.

ويظهر لنا ذلك من خلال كتابات المؤرخين،وذكرهم ميله إلى الجواري والاستكثار منهن.فيذكر ابن سعيد الأندلسي:أن عبد الرحمن كان مولعاً بالنساء ولا يتخذ منهن ثيباً[١] أبداً.[٢]

ومن شدة ولعه بهن،وقع على جارية في رمضان،ولم يصبر عنها وطلب"الفُتيا" من القاضي.فأفتاه يحيى بن يحيى الليثي:بأن يصوم شهرين متتابعين كفارة هذا الخطأ،ولم يختار له الحل الثاني،وهو العتق حتى يُصعب عليه الحل، لكي لا يعود لمثلها ثانية.[٣] وقد أستقدم عبد الرحمن الأوسط القيان المدربات من المدينة،مثل قلم.وفضل،وعلم،وأنشأ لهن داراً ملحقة بالقصر،عــُرفت "بدار المدنيات".وفضل.وعلم،كانت كلتاهما أسيرة لديه،لجودة غنائهما ورقة أدبهما،وقلم كانت أندلسية الأصل،سُبيت صغيرة،وراست إلى المشرق.

وتلقت أصول الغناء في المدينة، وكانت تمتاز على مثيلاتها، بثقافة واسعة، وأدب ورواية للحديث.[٤] ومن جارياته أيضاً مؤمرة، وطروب.[٥] أم ولده عبد الله وضرتها فجر، وعجب، جارية أبيه الحكم الربضي ومحظيته، والشفاء. وفلة، وغزلان.[٦] وقد كانت جواريه لهن شهرة كبيرة، ومعروفات للناس بأسمائهن.[٧] وقد خــَلقن هؤلاء الجواري في عاصمة إسبانيا الإسلامية جواً مهذباً. إن صح التعبير مطبوعاً بطابع الشرق.[٨]

فقد كن يحملن من ضروب العلم والفن والحضارة الكثير، فقد نقلن شعر بغداد إلى الأندلس. وأنغام الشرق التي جاءت مع قمر والعجفاء، ولنا معهم وقفة في دور المرأة في الغناء والموسيقى.[٩] والمؤثرات المشرقية التي حملنها هؤلاء الجواري، لم تقتصر على جهة مشرقية بعينها، بل تنوعت، فكانت منهن الشاميات، والحجازيات، والعراقيات والفارسيات، بل ومن مصر أيضاً، وكل واحدة منهن تأتي بعادات وتقاليد مشرقية. تختلف عن الأخرى، فتعطى إضافة جديدة للمجتمع الأندلسي.[١٠]

١- ثيباً: وهي المرأة التي سبق لها الزواج.

٢- ابن سعيد: المُغرب في حــُلى المَغرب، جــ ١، ص ٤٧.

٣- عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم، ص ٢٣٣.

٤- مصطفي الشكعة: الأدب الأندلسي، ص ٤٣، ٤٤، ٨٧.

٥- عن طروب أنظر: ص ١٢٤ وما بعدها.

٦- عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس. جــ ٢، ص ٩٢، ٩٣.

٧- ابن الآبار: الحلة السيراء، جــ ١، ص ١١٤. هامش رقم (١).

٨- ليفي بروفنسال: سلسلة محاضرات عامة، ص ٧؛ عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس، ص ٩٨.

٩- غرسية غومث: الشعر الأندلسي، ص ١٠.

١٠- Mahmoud Makki: Ensayo sobre las apartaciones orientales en la España Musulmana. Madrid. 1967. pp. 50-51.

ويبدو أن الجاريات الصغيرات، واللآتي لم يبلغن بعد حد الأنوثة المكتملة كن يقمن بالخدمة في بيوت أسيادهن. إلى أن يكبرن، ويصرن إما جاريات خدمة، أو جاريات متعة. وهذا ما نفهمه من نص أورده المقري، حول جارية صغيرة السن، كانت في حوزة المظفر بن المنصور بن أبي عامر.

وقد حضر عنده، أبو عامر بن شُهيد، وسهرت على خدمتهم ليلة كاملة، فأنشدها شعراً، استحساناً منه لصغر سنها، وتكبدها وتحملها معاناة الخدمة والسهر على راحتهم.[١]

وقد كثر عدد الجواري في منازل العامة أيضاً. ويورد ابن-حزم نصاً، تعرف منه أن رجلاً، كان له أكثر من ستين جارية، ولكنه مع ذلك كان يقصد منازل البغايا.[٢] وعودة مرة ثانية مع أخبار الجواري مع أسيادهن، وقد نالت احداهن شهرة عظيمة، وكانت تسمى " أنس القلوب. " وكانت جارية للمنصور بن أبي عامر. وكان ذا غرام بها، إلا أنها كانت تميل للوزير أبي المغيرة بن حزم، فحدث ذات مرة، أن كان المنصور في رياض الزاهرة، وفي صحبته أبو المغيرة فغنت الجارية:-

قَـدِمَ الليلُ عند سيرِ النهـار ... وبدا البدرُ مثل نصفِ سـوار

إلى أن قالت:-

لَيتَ لو كان لي إليه سبيـــل ... فأقـضي من حبهِ أوطـاري.[٣]

قال أبو المغيرة بن حزم: فلما أكملت الأبيات، أحسست بأنني المقصود بالمعنى فقلت:-

كيف الوصـول للأقمـــارِ ... بين سمـر القنا وبيض الشفارِ

لو علمنا بأن حبـكِ حـــقٌ ... لطلبنا الحيـاة منـكِ بثـارِ

وعند ذلك، بادر المنصور إلى حسامه، وغلظ في كلامه، وقال لها أصدقي، إلى من تشيرين بهذا الشوق والحنين. فقالت الجارية: إن كان الكذب أنجى، فالصدق أحرى وأولى. والله ما كانت إلا نظرة. ولدت في القلب فكرة، فتكلم الحب على

لساني، وبرح الشوق بكتماني، والعفو مضمون لديك عند المقدرة، ثم بكت وأنشدت:

أذنبـتُ ذنبـاً عظيمـاً ... فكيـف منـه اعتـذاري

والله قـــدر هـــذا ... ولـم يكـن باختيـــاري

والعفـو أحسـن شـئ ... يـكـون عـند إقتــدارِ

١- المقري: نفح الطيب، جـ ٣، ص ٢٤٤.

٢- صلاح خالص: إشبيلية في القرن الخامس الهجرى. دار الثقافة الجامعية، بيروت، لبنان ١٩٨١ م، ص ٩٨.

٣- راجع الأبيات كاملة في المقري: نفح الطيب، جـ١، ص ٦١٦، ٦١٧، ٦١٨؛ وجونثالث بالنثيا: تاريخ الفكر، ص ٦٩، ٧٠.

فعفا المنصور عنها وعنه، ووهبها له.[١] وقد أورد المقري قصة أخرى تدور حول نفس المعنى. ومع اختلاف الزمان والمكان. ونقلها المقري من نوادر أبي علي القالي البغدادي، وملخصها أن الرشيد كانت له جارية غلامية، يميل إليها ابنه المأمون، فحدث أن غازلها في حضرة أبيه، وكادت الجارية تهلك على يد الرشيد، من جراء ما حدث من تبادل النظرات والغمز بينها وبين المأمون. ولكنها بعد أن صدقت في شرح ما حدث بينهما، عفا عنها ووهبها له.[٢]

وقد كانت الجارية إذا ما وقعت من سيدها موقعاً حسناً، واستحسنها لا يضن ولا يبخل عليها بأي أموال في شرائها. فيذكر المقري: أن الأمير المنذر بن عبد الرحمن الأوسط عـرضت عليه جارية اسمها " طرب " وعندما أعجبته ضاعف ثمنها مرة أخرى أكثر مما طلب بائعها.[٣] وقد هام شعراء الأندلس بحب الجواري فيورد لنا ابن سعيد " في المـغرب" أن ابن السراج المالقي أحب جارية تسمى " حسـن الورد " وقال فيها شعراء منه:

يا من أقلب طرفي في محاسنـه فلا أرى مثله في النـاس إنسـان

لو كنت تعلم ما لقيت بعدك ما شربت كأساً ولا استحسنت بستان[٤]

وقصص " سعيد بن جودي " وتعلقه بالجواري كثيرة،فقد حُـملت إليه جارية من قرطبة،فلما خلا بها أعرضت عنه فأنشدها شعراً، ورأى أخرى في غـلالة حمراء فأعجبته فأنشدها شعراً أيضاً.[٥]

ويوما هام حباً بجاريه الأمير محمد بن عبد الرحمن وأسمها " جيجان " إلى الحد الذي اشترى جارية أخرى،وأطلق عليها نفس الأسم،تذكراً منه لمحبوبته التي لم يستطع الوصول إليها.[٦] ويبدو أيضاً أن إرسال الجواري والسبايا كهدايا،وخاصة بعد الغزوات،كان شيئاً مألوفاً وشائعاً في الأندلس،فقد أورد المقري نصا يفيد أن المنصور بن أبي عامر،عندما عاد من إحدى غزواته التي سبى

١- المقري: نفح الطيب، جـ ١، ص ٦١٦، ٦١٧، ٦١٨؛ جونثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي،ص٦٩،٧٠؛ مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي، ص ٤٤؛

Nykl "B.A. R": Hispano Arabic Poetry. Baltimore, 1946. pp 54-55.

٢- راجع تفاصيل تلك القصة كاملة في المقري: نفح الطيب، جـ١، ص ٦١٨،٦١٩.

٣- المقري: نفس المصدر ، جـ ٣، ص ٥٧٧، ٥٧٨.

٤- ابن سعيد: (علي بن موسى بن سعيد المغربي) ، المُغرب في حُـلى المَغرب، حققه الدكتور/ شوقي ضيف، القاهرة، ١٩٥٥م ، جـ ١، ص ٤٣٥، ٤٣٦؛ كمال أبو مصطفى: مالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف، مؤسسة شباب الجامعة ١٩٩٣م، ص ١٠٠.

٥- ابن الآبار: الحلة السيراء. جـ ١، ص ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩.

٦- الطاهر مكي: دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ و الفلسفة. دار المعارف.١٩٨٠، ص١٠٠

فيها سبياً كثيراً.أرسل بثلاث جواري من السبي.إلى عبد الملك بن شُهيد، وكانت فيهن واحدة أجمل من تابعتيها وكتب معهن:-

قد بعثنا بها كشمس النهار   في ثلاث من المها أبكار.. ألخ.[١]

ولمحمد بن الأمير المنذر في جاريته الأراكة شعراً منه:-

قــال للأراكــة قــد زاد   بالدنــو اشتياقــي... ألخ.[٢]

وقد كان غاية ما تصبو إليه الجارية أن تصبح حرة. وقد نظرت شريعة الإسلام إلى الفارق بين الرجل والمرأة،في أمر العتق، فعملت على نقل النساء المملوكات من رابطة العبودية،إلى رابطة الزوجية،وأمرت المسلمين بتزوجهن، والبرهن قال تعالى في كتابه الكريم ﴿ وانكحــوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾.[٣] وقد كان اختيار الأمة أو الجارية،يتم بتأنٍ شديد،وخاصة إذا كانت مختارة للذة،نظراً لأنها قد تلد أولادا، وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

لا تشتمن إمرءٍ في أن تكــون له

أم من الروم أو سوداء عجمــاءُ

فإنما أمهــات القــوم أوعيـــة

مستودعات وللأحســـاب آبـــاءُ[٤]

وكانت الجارية عندما تنجب غلاماً،يطلق عليها لقب"أم ولد".وفي كثير من الأحيان تعتق ويتزوجها مالكها.[٥] وقد كان هذا يحسن من وضعها، ويلفت إليها الأنظار،فلا يجوز بيعها أو هبتها،بعد أن صارت أم ولد.[٦] وقد اهتمت كتب الفتاوى والنوازل كثيراً بأحكام بيع وشراء الجواري والإماء. فيذكر الونشريسي:- حكم من اشترى خادمة رومية،وأعطاها لابنه فاتخذها

١- وأبيات الشعر المتبادلة بين المنصور،وعبد الملك بن شُهيد،من الأدب المكشوف،ولا يسمح المجال هنا بذكرها. راجع المقري: نفح الطيب، جـ ١، ص ٤٠٠، ٤٠١.

٢- راجع باقي الأبيات في المقري: نفس المصدر، جـ ٣، ص ٥٨١.

٣- ابن عبد ربه: طبائع النساء، ص ٨٣، ٨٤. وسورة " النور" الآية (٣٢).

٤- ابن عبد ربه: المصدر السابق: ص ٨٨.

٥- Leve Provençal: L'Espagne Musulmane au Xème Siècle, Paris 1932, p 59.

٦- Ibid: p59.

الابن أم ولد،ثم أعتقها.وتزوجها.فأجاب الونشريسي:بأنه لا يجوز بيعها أو هبتها.(١) وفـتيا أخرى فيمن يعتق جارية ويتزوجها،ويعطيها صداقها " جُــل " ماله فهل يجوز لها هذا المال بعد موت زوجها " فأجاب " هو لها حلالاً بقول الله عز وجل ﴿ وأتيتم إحداهن قنطاراً ﴾.(٢) وتُلحق الجارية بسيدها رغماً عنه إذا رزقت منه غلاما،حتى لو أنكر هو ذلك النسب إليه، أما إذا أراد الرجل أن يدعي على إحدى الجاريات،بأنه قد استولدها " أي أنجب منها غلاما " فينظر إن كان معها ولد سُمع منه،وردت إليه.وإن لم يكن معها ولد،فلا تــرد إليه.خوفاً من أن يكون أراد إمساكها رغماً عنها.(٣)

ولم تكن الجواري متروكات لأي فرد من أفراد الأسرة يعبث بهن كيف يشاء،ويسوق لنا المقري حول هذا المعنى،ما حكاه عن الفقيه الأديب النحوي أبي عبد الله محمد بن ميمون،وغرامه بإحدى الجواري ممن كن في منزل أبيه ولوم أبيه له،لأنها تشغله عن طلب العلم والبحث وكان يزيده عزلها إغراءً بها.(٤)

وقصص الحب التي وردت في المصادر العربية،حول حب الإماء والجواري والتغزل بهن كثيرة جداً،سنذكر مجموعة منها.فقد بلغ من حب الأمير عبد الرحمن الأوسط لجاريته " متعة " أن سمح لها بإقامة مسجد عـــرف باسمها وعندما توفيت دفنت في مقبرة خاصة بها شمال مقبرة عامر القرشي. وعرفت تلك المقبرة باسمها أيضاً.(٥) ويذكر ابن حزم أن سبب جنون يحيى بن محمد بن أحمد بن عباس،أنه كانت له جارية يهيم بها حباً، ويجد بها وجداً شديداً،فباعتها أمه رغماً عنه،بهدف انكاحه من إحدى العامريات.(٦)

ويتضح من هذا النص الذى أورده ابن حزم:أن الرجل فضل الجارية على الحرة سليلة البيوتات العريقة ذات الأنساب. ويذكر ابن حزم قصة أخرى في " الطوق " عن اختلال مروان بن يحيى بن حدير،وذهاب عقله،لتعلقه بجارية أخيه،التي منعها منه،وباعها لغيره،ويحكى أنه قبل هذه الحادثة،لم يكن هناك من هو أتم عقلاً وأدباً منه.(٧) ويحكي ابن حزم عن " الرمادي " قصة حب شاعرية غاية

١- الونشريسي: (أحمد بن يحيى الونشريسي) المعيار المغرب و الجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨١ م، جـ ٣، ص ١٥٧.

٢- الونشريسي: نفس المصدر، جـ ٣، ص ١٢٥. وسورة " النساء " الآية (٢٠).

٣- الونشريسي: نفس المصدر: جـ ٦، ص ١٢٣.

٤- المقري: نفح الطيب، جـ ٤، ص ١١٥.

٥- Lévi Provencal: op. cit. p.209

٦- ابن حزم: طوق الحمامة في الإلفه والالاف، ص ١٣٩.

٧- ابن حزم: نفس المصدر، ص ١٣٩.

في الرقة والجمال، فيقول:إن الشاعر كان يوماً مجتازاً عند باب العطارين في قرطبة،وهذا الموضع كان مجتمع النساء،فرأى جارية مليحة أخذت بمجامع قلبه.فتبعها حتى عبرت عن طريق الجامع،ودار بينهما حوار طويل سألها حرة أم مملوكة، فقالت: مملوكة فقال لها: ما اسمك؟ . قالت " خلوة " وحاول أن يعرف هي مملوكة لمن،ولكن دون جدوى. ويبدو أن الجارية سايرته لإلحاحه عليها.إلى أن أخذت منه وعداً بعدم تتبعها،واختفت ولم يعثر لها من يومها على أثر،وأصبحت بعد ذلك بطلة كل أشعاره التي يتغزل فيها،وعــرف بخبرها بعد أن رحل إلى سرقسطة Zaragoza بسببها.(١)

ويخبرنا ابن حزم أيضاً عن قصة رقيقة أخرى. ولكن بطلاها هذه المرة من الحرائر وهي قصة حب أخيه أبي بكر وزواجه " بعاتكة بنت قـنـد" صاحب الثغر الأعلى، وكيف كان مخلصاً لها.فلم يتسرى عليها أبداً،ولا كان له تجارب قبلها ولا معها لأنه مات قبلها.

هذا عنه هو، أما هي، فيعدد ابن حزم فضائل كثيرة لها. وكيف أن الدنيا لا تأتي كثيراً بمثلها. وقد كانت تحب أخاه حباً شديداً، إلى أن مات في الطاعون الذي وقع بقرطبة في شهر ذي القعدة، فحزنت عليه حزناً شديداً، حتى تمكن منها الذبول والمرض، وماتت بعده بعام، وبلغ من شدة حبها له، أن أبلغت المقربين منها.

وكما يروي ابن حزم: أنها أبلغت بعض المقربين إليها. بأن ما يقوي صبرها في الدنيا بعده. أنها تعلم أنه لا يضمه وامرأة غيرها مضجع، وأن أعظم آمالها في الحياة اللحاق به، إلى هذا الحد بلغت درجة الحب النادرة، لزوجين في هذا العصر السحيق.(٢)

ويروي ابن حزم أيضاً عن نفسه تلك القصة الرقيقة. عن حبه لجاريته " نـعـم". ويروي ابن حزم القصة بإسهاب طويل، للحظات القرب والفراق. وكيف أنها كانت أعظم وأصدق حب في حياته، لأنه مر بها في مرحلة الصبا، وهي من وجهة نظره، أصدق مراحل الحب في حياة الإنسان،على حد تعبيره.(٣)

وكما أوردنا قصص حب من جانب الرجل تجاه المرأة سواء جارية أو حرة، فكذلك نورد بعض القصص العكسية. أي حب الجواري لأسيادهن أو لرجال لا يمتون إليهن بصلة، وعابرون في حياتهن، ومن خلال طوق الحمامة " أيضاً يورد لنا ابن حزم قصة لجارية رائعة الجمال كانت في دار ابن الركيزة محمد بن أحمد بن وهب " وكان قد سبق لها موىً.وجاءته المنية، وبيعت جاريته، فأبت أن ترضى بالرجال بعده " وما جامعها رجل إلى أن لاقت ربها، وكانت تحسن الغناء، فأنكرت علمها به. ورضيت بالخدمة والخروج من جملة الجاريات المتخذات للذة. والنسل، والحال الرقيقة

١- ابن حزم: المصدر السابق ص ٤١، ٤٢. بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي. ص ٦٨.٩٦ .

٢- ابن حزم: نفس المصدر. ص ١٥٣، ١٥٤.

٣- راجع القصة كاملة بتفاصيلها في ابن حزم: طوق الحمامة. ص ١٤٤ وما بعدها.

الحسنة، وفاء منها لمن ذهب ووازته التراب، وترك فيها شيئاً، ولقد رغبها سيدها المذكور في أن يضمها إلى فراشه، مع سائر جواريه، ويخرجها مما هي فيه فأبت. فضربها وأوقع عليها الأدب،فصبرت وتحملت ذلك كله، وأقامت على امتناعها.[١]

وهناك أيضاً قصة الجارية التي كانت لبعض الرؤساء، فزهد فيها سيدها وباعها لشئ بلغه عنها، فجزعت لذلك جزعاً شديداً، وما فارقها التحول والأسف عليه، إلى أن سَـلت، وكان ذلك سبب موتها.[٢]

ويذكر ابن حزم أن هذه القصة أخبرته بها إمرأة يثق فيها، كانت تعرف المرأة، ونلاحظ أن ابن حزم عادة كان لا يذكر الأسماء صراحة إلا فيما ندر، وذلك حفاظاً منه على حرمة الأنساب وحرية الأشخاص، الذين أئتمنوه على أسرارهم، أو نقلها هو على لسان بعض الثـقات، وذكر بعض الأسماء يمكن أن يلحق ضرر بأصحابها.

وكما عرفت إسبانيا الإسلامية التسري بالإماء والجواري، عرفت كذلك التسري بالغلمان، ويظهر ذلك بوضوح من خلال نص أورده المقري نقلاً عن ابن بسام: عن إتخاذ بعض الأندلسيين الغلمان للتسرى بهم، فقد ذكر أن أبا عامر بن شُهيد الوزير. أُهدى إليه غلام من النصارى لم تقع العيون على مثله جمالاً، فلمحه " الخليفة الناصر " فقال لابن شهيد "أنى لك هذا ؟ " قال هو من عند الله. فقال الناصر: تتحفونا بالنجوم، وتستأثرون بالقمر، فأعتذر وأرسل الغلام للخليفة ومعه هدية وقال له: كن مع جملة ما أرسلت، ولولا الضرورة ما سمحت بك نفسى، فحسُن ذلك التصرف عند الناصر. وأُجزل له مال وفير بدلاً منه.[٣] وقصة أخرى حول هذا المعنى: وذلك عندما أراد أبو بكر بن سعيد أن يسترضي المخزومي الشاعر الأعمى، ويوقف المشادة الحادة والهجاء المتبادل بينه وبين " نزهون الغرناطية " فقال المخزومي للوزير أبو بكر أسكت عنها ولا أهجوها بشرط، أن تعطيني العبد أو الغلام الذي رافقنى من منزلي، فإنه لين القد،رقيق الملمس. فقال له أبو بكر: ولكنه ما زال صغيراً ولولا أنه صغير كنت أبلغك، مرادك فيه، فأصبر عليه حتى يكبر، فأصر على أخذ الغلام، فانصاع الوزير وقال لا تبديل لخلق الله، وانفصل المخزومى بالغلام.[٤]

١- ابن حزم: المصدر السابق: ص ١١١، ١١٢؛الطاهر مكي: دراسات عن ابن حزم وكتابة طوق الحمامة، ص٢٧١، ٢٧٢.

٢- ابن حزم: نفس المصدر، ص ١٥٣.

٣- المقري: نفح الطيب، جـ ١، ص ٢٦١، ٢٦٢.

٤- ابن الخطيب: (لسان الدين أبو عبد الله محمد بن الخطيب) الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق الأستاذ: محمد عبد الله عنان، القاهرة ١٩٧٤، جـ ١، د ١، ص ٤٢٧.

والمرأة في المجتمع الأندلسي كانت تمثل عنصرين فقط إما جارية وإما حرة، ونجد للوهلة الأولى أن هناك تناقضاً كبيراً في التكوين الاجتماعي لدى العرب في إسبانيا، وخاصة بالنسبة للمرأة، ومكانتها من الرجل. فقد كان الرجل الذي يشاطر متعته واهتماماته الحسية مع طائفة من النساء، والمقصود بهن هنا الجواري. نرى طريقته تلك مختلفة كل الاختلاف عن تلك التي يشاطرها حياته العائلية، والمقصود هنا الزوجة.(١)

ولم يكن الحديث عن المرأة الحرة بالسهولة التي يمكن أن يُـتـناول بها الحديث عن الجواري. فكما ذكر ابن حزم: بأن البيت المالك كان ينأى بفتياته أن يصبحن حديثاً يدور على ألسنة العامة والشعراء تغزلاً وإعجاباً، مثل الجواري اللاتي لم يكن هناك أي حرج من تناولهن بالغزل والوصف، وحين تجرأ أحمد بن مغيث، وتغزل بإحدى بنات الخلفاء، ورغم مكانة أسرته العريقة في قرطبة، وكعادته لم يفصح لنا صراحة عن اسم الفتاة. قتل ابن مغيث. وأبعدت أسرته عن المناصب العامة، وكان ذلك سبباً لهلاكهم، وانقراض بيتهم.(٢)

وجارية أخرى دفعت حياتها ثمناً لشعر، دفع به إليها شاعر تغزل في السيدة " صبح " أثناء علاقتها بالمنصور بن أبي عامر، فتغنت بالشعر، وعندما علم المنصور أمر بقتلها.(٣)

ومن خلال ما سبق يتضح لنا مدى محافظة المجتمع الإسلامي الأندلسي على المرأة، وخاصة المرأة الحرة، ولهذا كانت معلوماتنا عن المرأة الحرة وخاصة في الأوساط الارستقراطية قليلة جداً. فكل ما نعرفه أنها لم تكن سهلة الحجاب، أما في الأوساط الاجتماعية الأقل انخفاضاً، فكانت هذه المشكلة لا تأخذ هذا البعد الكبير، وإن كان هذا لا يمنع أن المرأة الحرة، أخذت قدراً وافراً من الثقافة الأدبية والفنية.

ويعلق جيشار قائلاً: أن المرأة الحرة هي وحدها القادرة على غرس روح الشرف والنبل في ابنائها، كما أنها تزرع فيهم الانتماء التام للأسرة أو الطبقة التي تنتمي إليها.(٤) والمرأة الحرة لم تكن غائبة تماماً عن المجتمع الأندلسي، وإنما كانت تظهر بحذر شديد. وهذا يبرز ندرة الأعمال، التي تحدثنا عنها من قريب أو من بعيد، وعكس هذا الجواري اللاتي لم توضع عليهن القيود، التي وضعت على الحرائر، وخاصة في التحرك والخروج.(٥)

١- Guichard: Structures Sociales, pp. 79 – 166.

٢- الطاهر مكي: دراسات عن ابن حزم، ص ٢٧٢.

٣- الطاهر مكي: نفس المرجع: ص ٢٧١.

٤- Guichard: op. cit., p 80.

٥- ابن حزم: طوق الحمامة. ص ١٤٨. حمدي عبد المنعم: مجتمع قرطبة. ص ٢٩٨.

فقد كانت الجارية تتمتع نسبياً ببعض الحرية، التي لا تتمتع بها الحرائر ولاسيما إذا كانت الجارية ليست موضع عناية سيدها، أو ليست من اللاتي أُخذن في الدرجة الأولى للمتعة.

ومن هذا يتضح لنا أن الحياة العاطفية للجارية، كانت تأخذ شكلاً أكثر نشاطاً مما لدى غيرها. نظراً لمركزهن الاجتماعي المنخفض، والذي لا يؤثر على سمعة الأسياد مهما آتين من أفعال، بعكس الحرائر، اللآتى تتأثر سمعتهن، وسمعة من يتبعونهن لأقل شئ.[١]

ومما تقدم، لا شك أنه كان هناك فصل بين هذين العالمين، عالم المرأة الحرة وعالم الأمة أو الجارية.

وفي النهاية نقول: أن المجتمع الأندلسي، عرف ظاهرة التسري، وكانت شائعة في بيوت العامة، والخاصة، وكبار الموظفين، وكبار رجال الدولة.

ولا شك، أن هؤلاء الجواري، أعطين المجتمع الأندلسي مذاقاً خاصاً، ولعبن دوراً كبيراً، في تحسين مكانة المرأة الأندلسية، يفوق الدور الذي لعبته الحرائر، أضعافاً لسهولة حجابهن، وكثرة تحركهن، ونظراً لظهور تلك الظاهرة الهامة، والتي تتبع طائفة الرقيق، وما زال هناك شارع في قرطبة، إلى اليوم يحمل اسم شارع الرقيق أو الجواري.[٢]

ثالثاً: طبقة المولدين نتاج الزواج المختلط والتسري بالإماء.

كان من نتاج هذا الزواج المختلط، والتسري بالإماء، ظهور طبقة المولدين.[٣] " والمولدون" هم الذين ولدوا من آباء مسلمين وأمهات إسبانيات، ونشأوا على الإسلام. وكانوا على عهد أمراء بني أمية يكونون الكثرة الغالبة من السكان.[٤] وكان لهذا الجيل الجديد طابعه الخاص وشخصيته الفريدة.[٥] ولا يطلق هنرى بيرس لفظ " مولدين " على هذا العنصر الجديد، وإنما يذكر أن هذا الجنس، لا يمكن أن ندعوه عربياً ولا بربرياً ولا صقلبياً ولا يهودياً،وإنما الصفة الأكثر ملاءمة له هي أن ندعوه أندلسياً، أو إسبانيا، وان أمهاتهم المسيحيات قد غيرن طريقة حياتهم، وأنهم تلقوا

---

١ – صلاح خالص: إشبيلية في القرن الخامس الهجرى، ص ٩٨.

٢ – الطاهر مكى: المرجع السابق، ص ١٩.

٣ – أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٥٢٤؛ عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين، ص ١١٩.

٤ – العبادي: في تاريخ المغرب، ص ١١٧ هامش رقم (١)، العبادي: الإسلام في أرض الأندلس، عالم الفكر، المجلد العاشر، العدد الثاني، ص ٦٠ ؛ عمر رضا كحالة: المرأة في عالمي العرب والإسلام. مؤسسة الرسالة ١٩٨١ م. جـ٦. ص٥٧.

٥ – عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس، ص ١١٩.

تربية مسيحية على الأقل في الأعوام الأولى من حياتهم.[١] وكانت لها نتائج أخرى سنعرضها في حينها.

وقد كثرت أعداد هؤلاء المولدين كثرة كبيرة. فقد أحصى ابن حيان للأميرعبد الرحمن الأوسط، أسماء بناته الإناث فقط ثلاثة وأربعين، أوردهن جميعاً في كتابه " المقتبس".[٢]

وقد اعتبر كثير من الباحثين المعاصرين. البيت الأموى كله بيتا مولداً نتيجة لإقبال أمراء بني أمية، وخلفائهم على التزوج بنساء إسبانيات، وأن هؤلاء الأمراء كانوا يعدون أنفسهم عرباً من حيث النسب والدين والشعور والميول واللسان والهوية.[٣]

وإن كان ريبيرا ينفي الهوية العربية نفياً تاماً عن أمراء بني أمية، وذلك عن طريق عملية حسابية قام بها، باعتبار أن الولد يأخذ نصف صفاته الوراثية من أمه والنصف الآخر من أبيه، وظل يحذف ٥٠% من الصفات الوراثية الخاصة بكل أمير أموي، والتي توارثها عن أمه الإسبانية، إلى أن توصل في النهاية إلى أن الخليفة هشام المؤيد، صارت نسبة الدم العربي فيه لا تتعدى نسبه (٠,٠٩%).[٤] وهذه بطبيعة الحال عملية خاطئة، بل ومضحكة، فمن يستطيع أن يجزم بالقول الحاسم والعملي، بأن المولود يأخذ نصف صفاته الوراثية من أبيه، والنصف الآخر من أمه، فتلك عملية وإن كانت معروفة علمياً بتفاوتها، إلا أنها أيضاً خارج نطاق دراستنا ولكن العقل الواعي لا يؤيد تلك الحسبة الخاطئة.

وقد ذكر الأستاذ الدكتور/ عبادة كحيلة. في كتابه " تاريخ نصارى الأندلس" بأن لفظة مولدين انتقلت إلى إسبانيا في العصور الوسطى، وصارت Muladies...الخ.[٥] ولقد جانب البعض الصواب حين اعتبر المولدين، من كانت أمهاتهم إسبانيات، وآبائهم عرباً، وأن لفظة مولدين أطلقها العرب على من أسلم من أهل الأندلس.[٦] والصحيح أن من سارع إلى اعتناق الإسلام من الإسبان

١- هنرى بيرس: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ملامحه العامة وموضوعاته الرئيسية وقيمته التوثيقية. ترجمة الدكتور/ الطاهر أحمد مكي. دار المعارف. ١٩٨٨م. ص ٢٥٥.

٢- ابن حيان: (أبو مروان خلف بن حيان القرطبي) المقتبس من انباء أهل الأندلس نشر وتحقيق الدكتور/ محمود علي مكي ١٩٧١م، ص ١٦٤.

٣- Lévi Provencal: Hist, Vol I. P. 76.

حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص ٣٧٦، ٣٧٧.

٤- Ribera: El Concionero. p 10, 11.

Guichard: Structures Sociales, p. 124.

٥- للمزيد راجع .عبادة كحيلة: تاريخ النصارى في الأندلس، الطبعة الأولى،١٩٩٣ م ص ٣٩.

٦- عبادة كحيلة: نفس المرجع: ص ٣٩. حاشية (٣).

وقت الفتح. العربي، أطلق عليهم اسم المسالمة Musalima، ومع مرور الوقت وبعد اختلاطهم وتزواجهم بالعرب والبربر وغيرهم من كافة المسلمين، أطلق على ابنائهم اسم المولّدين، وبالإسبانية Muladies. وهم مسلمون بطبيعة الحال.[١]

ولقد ذهب البعض من المولدين، إلى ادعاء نسب عربي. ودفعوا في تلفيقه مالاً كثيراً، لكي يسمح لهم بالزهو والتفاخر، بأنهم من أصول عربية.[٢]

ومن الشخصيات المعـــروفة التي قامت بهذا العمل الفقيه المعروف أبو محمد بن حزم القرطـــبي (ت ٤٥٦هـــ). وكان من أصل إسباني من عجم لبلة Nieble. وهي بلدة غرب الأندلس، وادعى لنفسه نسباً شرقياً، لكي يرفع من شأنه على حد قول معاصرة ابن حيان.

وكذلك نذكر الكاتب الوزير عيسى بن فطيس، في عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر. إذ كان من نسل أم الوليد بنت خلف بن رومان النصرانية.[٣] وقد برزت شخصيات كثيرة في هذه الطبقة. لعل أشهرهم علي الإطلاق أبو بكر محمد بن عبد العزيز بن ابنهيم بن عيسى بن مزاحم، صاحب كتاب " تاريخ افتتاح الأندلس " ت (٣٦٧هـــ- ٩٧٧م) والمعروف " بابن القوطية". والقوطية هنا هي الأميرة " سارة " حفيدة غيطشة Witiza ملك إسبانيا القوطي. وهو بذلك يكون مولداً من طبقة المولدين. فقد تزوج القائد العربي عيسى بن مزاحم،مولى الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك من سارة. وتم ذلك عندما ارتحلت إلى دمشق باحثة عن ميراث والدها، فالتقى بها ابن مزاحم وتزوجها، وعاد معها إلى الأندلس، وجاء من سلالتها أبو بكر.[٤]

ويبدو أن اسم " سارة " قد غلب على جميع ذريتها إلى أيام أبي عمر بن عفيف التاريخي المتوفي سنة (٤٣٠هـــ)، فذكر ذلك في كتابه " الاحتفال في أعلام الرجال في أخبار الفقهاء والعلماء المتأخرين من أهل قرطبة " وعنه نقل ابن الآبار في كتابه التكملة.[٥] ورغم تمسك هؤلاء المولدين بدينهم الإسلامي وحرصهم عليه.[٦] إلا أنهم كانوا شديدي التعصب ضد الجنس العربي والسيادة العربية. وقد اعتبر الدكتور/ أحمد مختار العبادي أن ابن القوطية هو الذي وضع اللبنة الأولى لحركة الشعوبية في الأندلس.

١- Isidro de las Cagigas: Los Mozárabes. Madrid. 1947.Tomo I. pp 55. 56.

٢- حسين مؤنس: نفس المرجع، ص ٤٣٠. Lévi Provençal: Hist. Vol I. p. 76.

٣- العبادي: الإسلام في أرض الأندلس. ص ٦٦.

٤- ابن القوطية: نفس المصدر. ص ٨، ٣١. ٣٢؛ أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٣١٤؛ سحر سالم: مظاهر الحضارة في بطليوس، ص ١٣.

٥- ابن القوطية: نفس المصدر. ص ٩.

٦- العبادي: نفس المرجع. ص ٣١٤.

وإن كانت هذه الحركة لم تظهر بوضوح، وتأخذ أشكالاً خطيرة، إلا في عصر ملوك الطوائف في القرن الخامس الهجري.[١] على يد ابن غرسية الشعوبي في رسالته المعروفة، التي يهجو فيها العنصر العربي، بل ويفضل عليه العنصر الإسباني الأندلسي.[٢]

والمعروف أن الشعوبية، لم تهاجم الإسلام كدين، وإنما هاجمت السيادة العربية على البلاد. وسخطوا على العرب كطبقة حاكمة، استأثرت بكل خيرات البلاد ومنافعها، وسيطروا على مرافق البلاد، وحرموا منها طبقة المولدين، التي ينتمي إليها ابن القوطية وغيره.[٣]

وكان بعض المولدين يتخذون أسماء عربية، وهو شئ طبيعي، إذا أخذنا في الحسبان أن المسيحيين الذين احتفظوا بدينهم. وظلوا يعيشون بين المسلمين وأطلق عليهم المستعربين Los Mozarabez..[٤] وكانوا في حالات كثيرة يتخذون أسماء عربية. وكان من الممكن أن يحتفظ المسالمة والمولدون بأسمائهم غير العربية دون أن يُحدث هذا أي قلق للمسلمين، حتى في سنوات الفتح الأولى. والمسلمين الذين كانوا يحملون أسماء إسبانية، هم أصلاً من طبقة الرقيق، قبل الفتح، فلما اعتنقوا الإسلام أصبحوا أحراراً أو موالي.[٥]

ومن أمثلة استخدام المستعربين للأسماء العربية، نجدها عند قاضي نصارى قرطبة. وكان يحمل اسم وليد بن خيزران. وأسقف طليطلة.

وقد كان اسقف طليطلة، يعرف باسم " عبيد الله بن قاسم " وبعض نصارى ليون المستعربين، والذين عاشوا في الأرضي الإسلامية، دون أن يهاجروا إلى الارض النصرانية.[٦]

١- عن الشعوبية راجع مقال الأستاذ الدكتور/ أحمد مختار العبادي في مجلة عالم الفكر، المجلد الثامن، العدد الأول، ص ٤٢، وما يليها.

٢- Lévi Provençal: La Civilizaction Arabe en Espana, Buenos Aires,1953. p 47.

٣- العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٣٣٨، ٣٣٩. العبادي: الاسلام في أرض الأندلس، عالم الفكر، ص٤٢. سحر سالم: مظاهر الحضارة في بطليوس، ص١٣.

٤- Dozy: Historia de Los Musulmanes d'Espana. T1. p.391

Lévi Provençal: Esp. Mus. Au Xème siécle. p. 24.

Provençal : Hist T1. p77.

٥- كلمة مولى تعني السيد أو العبد أو الحليف. وهي تعني هنا من كانت أمهاتهم جاريات زنجيات أو سودانيات Mulato.

Dozy: Diccionario de Historia de Espana. Madrid. 1952. Tomo II. p. 589.

٦- هنري بيرس: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ص ٢٣٢.

وقد احتفظ كثير من المولدين حتى بعد اعتناقهم الإسلام بأسمائهم القديمة مثل بنو الجريج Banu Jarge، وبنو انجلين Banu Angelion[١]، وبنو شبريق Banu Sabtico في إشبيلية،[٢] وبنو القبطرنة Kabturno،وبنو مردنيش Martinez، وبنو غرسية Garica، وبنو ردلف Rodlf، وبنو لنتق Longo.[٣]

هذا فيما يختص بأسماء العائلات، أما لو تصفحنا كتب التراجم الأندلسية سنجد العديد والعديد من أسماء الفقهاء والأمراء، وتدل على أنها من أصل إسباني مثل ابن قزمان Cuzman، وابن بشكوال Pascual، وابن فرتون Fortun، وابن القوطيه La Goda، وشنجول Sanchuelo، وابن مارتن Martinوغيرهم كثيرين.[٤]

والبعض الآخر لجأ إلى تعريب اسمه اللاتيني فأصبح Felix يدعى سعيداً، و Victor يدعى الظاهر. وأخذت الأسماء اللاتينية المستمدة من التوراة الشكل العربي فاسم Moisés، أصبح موسى و Jesus أصبح عيسى. وهكذا.[٥] ولقد تألفت من هؤلاء المولدين جماعات كبيرة في مدن إسبانيا الهامة مثل طليطلة Toledo التي كانت مركزاً من أهم مراكزهم، وإشبيلية Sivlla كانت معقلاً من معاقلهم.

وكانوا يتمتعون بعطف الأمير عبد الرحمن بن معاوية، لأنهم من نسل سارة القوطية، التي شاهدها طفلاً في الشرق، وكان يكن لها مكانة خاصة.[٦]

أما عن الحياة الإقتصادية لهذه الفئة، والمهن التي امتهنوها. فيذهب ليفي بروفنسال إلى أنهم كانوا يربون الماشية، ويمارسون الزراعة، وخاصة في المناطق الريفية، وكذلك صيد الأسماك، والأعمال البحرية في المناطق الساحلية وبعضهم عمل في النواحى الإدارية. ويذكر دوزى أنهم حققوا أرباحاً طائلة من تلك الأعمال.[٧]

ويذكر الأستاذ الدكتور/ أحمد مختار العبادي، أنه بمضي الوقت شعرت هذه الطبقة بنقص في حقوقها، رغم كونهم أصحاب البلاد الأصليين. فقد كانوا يتحملون عبء المغارم (الضرائب) دون

١- Dozy: op. cit., T II, p 40.

٢- Lévi Provençal: Hist. T I. p 47.

٣- عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين. ص ١٢٨، ١٢٩.

٤- العبادي: الإسلام في الأندلس. ص ٦٤، ٦٥.

٥- الطاهر مكي: دراسات عن ابن حزم، ص ١٧، ١٨.

٦- عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم، ص ١٢٩.

Simonet: Historia de Los mozarabes de Espana. Madrid, 1897. p. 248.

٧- Lévi Provençal: Hist. Vol. I. pp. 161, 162.

Dozy:Hist. Vol. II. p. 40

عبد العزيز سالم: نفس المرجع. ص ١٢٩.

أن يكون لهم نصيب كبير في ثروات البلاد. ومناصبها الرئيسية التي كانت حكراً على الارستقراطية العربية الحاكمة، ويبدو أن هذا ما جعلهم يتقلبون بالثورة ضد أمراء قرطبة في عصر الحكم " الربضي" وفي أواخر عصر الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط.(١)

وقد كان لظهور هذه الطبقة الكثير من التأثيرات على المجتمع الإسباني انصبت في نقطتين هامتين: اللغة، والثورات. أما عن اللغة فيبدو أن طبقة المولدين أثرت عليها كما سنرى. وإن كانت اللغة العربية الفصحى هي اللغة الرسمية للأندلس فهي لغة القرآن الكريم، وهي اللسان الحضارى في الأندلس على مدى تاريخها الإسلامي، وهي لغة الشعر الرفيع، والنثر، وهي لغه الوثائق الرسمية في الدولة، ولغة التعليم، ولغة التفاهم في العلاقات الدولية، وخاصة في بلاد الشرق الإسلامي، كان التمكن من اللغة العربية وإجادها الشرط الأساسي في تولى أي منصب من مناصب الدولة.(٢)

أما الأجيال المولدة الجديدة، فهي التي روجت لاستخدام اللغة " العجمية" وهي اللغة المشتركة التي كان يتخاطب بها أهل الأندلس، ويسميها ابن حزم القرطبي " اللطينية" وذلك في سياق حديثه عن قبيلة " بـلي " التي تمسكت باللسان العربي، ولم يحسن أفرادها التخاطب باللطينية.

وفي ذلك يقول ابن حزم " دار بلى بشمال قرطبة، وهم هناك إلى اليوم على أنسابهم، ولا يحسنون الكلام باللطينية نساءهم ورجالهم ".(٣)

وكان يُطلق على هذه اللغة أيضاً لفظ الرومانسية Romance، واستثناء ابن حزم هنا لقبيلة بلى في عدم معرفتهم بهذه اللغة، يدل على أن هذه اللغة كانت شائعة ومعروفة في الأندلس. بل وبين القبائل ذات الأصل العربي. ويذكر الدكتور/ العبادي أيضاً أن لفظ لا يحسنون هنا يدل على أنهم يعرفون اللغة ولكنهم لا يجيدون الكلام بها مثل غيرهم.(٤)

ويذكرالأستاذ الدكتور/ مؤنس: أن ما حدث شئ طبيعي وبديهي في أن العرب لم يعودوا يتكلمون العربية في حياتهم العادية بعد الجيل الثاني. فقد غلبت عليهم في المخاطبة والمعاملات لغة أهل البلاد واختلطت بها.(٥) وهنا اختلف مع رأي الدكتور/ مؤنس. فلو كان قد حدث ما ذكره من تجاهل للغة. وعدم معرفتها والحديث بها، لانتهت اللغة العربية، بعد مرور عدة أجيال. ولكننا

١- العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٢٨.

٢- حمدي عبد المنعم: مجتمع قرطبة في عصر الدولة الأموية. ص ٥٣٥.

٣- ابن حزم: جمهرة أنساب العرب. ص ٤٤٣. سحر سالم: مظاهر الحضارة جـ١، ص ١٦٥.

٤- العبادي: الإسلام في أرض الأندلس. ص ٦٦. مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه. بيروت. الطبعة الثالثة ١٩٧٥م. ص٤٥. واللغة الرومانسية هي لهجة عامية مشتقة من اللاتينية ومنها تكونت اللغة الإسبانية بعد ذلك.أنظر:-

Leve provencal: op. cit, volI, p 76.

٥- حسين مؤنس: فجر الأندلس. ص ٣٧٧.

نجد فطاحل الشعراء مثـــل ابن زيدون وابن اللبانة وغيرهم قد جاءوا بعد أكثر من الجيل الثاني الذي ذكره الأستاذ الدكتور/ مؤنس. ومع ذلك كانت لغتهم العربية سليمة وجزلة،لم تشوبها شائبة، مع أنهم كانوا من المولدين، ويتكلمون اللغة الرومانسية والأرجح أن اللغتين، سارتا جنباً إلى جنب، بدون أن تلغي إحداهما الأخرى،أو ما يسمى " ازدواجية اللغة " "Bilingue".

أما النقطة الأخرى، والتي تدور حول تأثير طبقة المولدين على المجتمع الأندلسي، وهي الخاصة بالثورات: وبدون أن نخوض فيها طويلاً لأنها ليست موضوعنا في الأساس،إلا أننا يمكن أن نقول بأن هذه الثورات، قد شكلت عبئاً كبيراً على أمراء وخلفاء بني أمية.(١)

ويسوقنا هذا للحديث عن ثورات المستعربين، وهي تلك الثورات التي حدثت من فتيان وفتيات مسلمين ومسلمات، بحكم المولد فأباؤهم مسلمون وأمهاتهم نصارى. والأحداث في هذا الموضوع كثيرة، نسوق منها على سبيل المثال لا الحصر " قصة الفتاة فلورا Flora وصديقها إيلوخيو Eulogio. وكانت تلك الثورة الشرارة التي اندلعت منها هذه الأحداث الدامية. في أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط، وقد أظهرت تلك الأحداث أن كثيراً من المولدين لم يتأصل الإسلام في نفوسهم، ويصل إلى أعماقهم. وقد أورد سيمونيتSimonet أحداث القصة كاملة وبالتفصيل، وإن كانت أحياناً تخلو من المنطق، ويغلب عليها الطابع الإنشائي وملخصها. أن الفتاة " فلورا" Flora كانت ابنة رجل مسلم من زوجة نصرانية، توفي أبوها وهي طفلة، وربتها أمها على مبادئ المسيحية، وكره الإسلام والدين الإسلامي. وكان لها أخ أكبر شديد التعصب لإسلامه. عندما كبرت الفتاة فرت من دار أبيها، والتقت مع القس إيولوخيو، وفتاة أخرى تدعي ماريا Maria. وفي النهاية وبعد عدة أحداث طويلة حكم عليهن بالحرق في سنة ٢٣٦هـ، نتيجة تجرأهن على الدين الإسلامي، والرسول ﷺ.(٢)

١- للمزيد من التفاصيل عن ثورات المولدين راجع:-

ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب، جـ١، ص ١٧٣، ١٧٥؛ العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٧٠، ١٧١. عن عمر بن حفصون أخطر زعماء المولدين، من ص ١٢٨ إلى ١٣٢؛ عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم. ص ١٢٩، ١٣٠.

R. Dozy: Spanich Islam: History of the Moslems in Espain, London. 1912. p. 312.

عن ثورة موسى بن موسى القسوى الذي أطلق على نفسه ثالث ملوك إسبانيا.

Lévi Provençal: Hist., Vol. I, p.226, 227, 228.

٢- وراجع القصة كاملة بكل تفاصيلها في

Simonet: Historia de Los Mozarabes. pp. 413, 422.

العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٥٧؛ عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس، ص ١١٢، ١١٣.

Dozy: Hist. TI. pp 318. 399. 400. 401.

والخطير هنا أن كثيرات حاولن تقليدهن. لظهور مزاعم تقول بأنهن أصبحن بعد حرقهن(أي فلوراوماريا) في سلك القديسين والشهداء. وحاول كثير من الحمقى أن ينال هذا الشرف مثلهن. ومن خلال القصة السابقة يتضح لنا إلى أي مدى أثرت بعض النساء الأندلسيات، وخاصة المتطرفات منهن ممن لم يتغلغل الإسلام في أعماقهن، فربين أولادهن تربية خاصة معادية للدين الاسلامى. وهذا لا يعنى أنهن كن السائدات، بل هـــن أقلية بجانب الغالبية العظمى التي ساهمت وعن اقتناع في بناء هذا المجتمع الفريد.

أما عن أسباب تلك الثورات، وخاصة ثورات المولدين، فيرجع بروفنسال السبب الرئيسى إلى ضغط الضرائب الكثيرة، التي فرضت على الشعب من الحكام، الذين لم يكن جُـــل همهم أن يزينوا خزائنهم بما استطاعوا جمعه من أموال. وتحت وطأة هذا الطغيان لجامعي الضرائب، ظهر هذا السخط وخاصة في طبقة المزارعين الذين كانوا مكبلين بالعديد من الواجبات.[١] وإن كنا لا ننفي هذا الرأي، إلا أن الرأي الأقرب للصواب، هو ما ذكره الفرنسي جيشار: من أن المرأة الإسبانية كانت تهيئ للطفل من الرجل العربي، وسطاً إسبانيا صرفاً، حيث تتم تربية أطفال العائلة وخاصة في السنوات الأولى من أعمارهم، على مبادئ الأم وعقائدها، بعيداً عن الزوج المشغول دائما بأعباء العائلة.[٢] والواقع أن هذا الرأي يبدو أقرب إلى الصواب، وعامل أساسى في ظهور تلك الثورات وتمرد المولدين ضد العنصر العربي. وكانت نهاية المولدين الفعلية، كعامل مؤثر في الدولة الأموية في أوائل القرن الرابع الهجري، مع وفاة عمر بن حفصون سنة ٣٠٥هـــ ٩١٨م. وكان موته بداية النهاية للمولدين كطبقة، فقد اندمجوا وذأبوا بعد ذلك في المجتمع الأندلسي، بحيث أضحى من الصعب تمييزهم عن غيرهم.[٣]

رابعًا: أثر السرارى والجوارى فى مجال الحياة الاجتماعية فى الأندلس

" فن الغناء والموسيقى "

كان فن الغناء مقصوراً عند العرب في جاهليتهم على حدائهم للإبل، وكانوا يسمون الترنم غناءً إذا كان بالشعر، فلما ظهر الإسلام فتح المسلمون بلاد فارس والشام ومصر. غلبت عليهم حياة الترف والرقة، وتفرغوا لملاذ الحياة ونعيمها، واستلهموا موسيقى الفرس والروم، واشتهروا بفنون الغناء والموسيقى الموالى دون العرب.

١- Lévi Provençal: Hist., Vol. I, pp 227, 228.

٢- Guichard: Op, cit, p 123.

٣- عُبادة كُحيلة: تاريخ النصارى في الأندلس. ص ٤٣.

وقدم المغنون الفرس والروم إلى الحجاز. وغنوا بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير. وفي الشرق إزدهر فن الغناء والموسقى في عصر الدولة العباسية. وبلغ ذروته في عهد الرشيد.[١] وكان لهذا الإزدهار في المشرق تأثير كبير على فن الغناء والموسيقى في الأندلس، سنعرفه في سياق الأحداث القادمة. وفي مكة والمدينة ظهرت المدارس الموسيقية الأولى في الإسلام، وهي عبارة عن الموسيقى العربية الأصيلة، ومختلطة ببعض المؤثرات البيزنطية والفارسية نتيجة للتوسع العربي في تلك البلاد. وكان هناك تنافس بين مكة والمدينة في هذا اللون من الموسيقى والغناء. مما ساعد على ازدهاره. وسرعان ما انتقل هذا الفن إلى الأندلس عن طريق الجواري. والمغنيين، والمغنيات الذين كانوا رسل الفن آنذاك.

ولا شك أن هؤلاء الفنانين نقلوا معهم إلى جانب الفن والموسيقى. الكثير من مظاهر الحضارة الاجتماعية، والثقافية، التي كانت مزدهرة بالحجاز في ذلك الوقت.[٢]

وما كاد العرب المحاربون في إسبانيا يتمون فتح هذه البلاد، حتى أخذوا يلتمسون الراحة بعد المعركة، ويجنون ثمار انتصارهم على دولة القوط الغربيين. وكان طبيعياً أن يؤلفوا العنصر الحضري التقدمي المثقف. كما كانوا يؤلفون العنصر العامل المنتج عصب الحياة الاجتماعية، فلم يكن هناك فن إسلامي بمعنى الكلمة في الفترة التي تبعت الفتح.[٣]

وأهل الأندلس بطبيعتهم يحبون اللهو، ويغرمون بالغناء، وقد وصفهم ابن غالب الأندلسي صاحب كتاب " فرحة الأنفس " قائلاً:" أهل الأندلس عرب في الأنساب والعزة والأنفة وعلو الهمم. وفصاحة الألسن، وطيب النفوس، وإباء الضيم، وقلة احتمال الذل، والسماحة بما في أيديهم، والنزاهة عن الخضوع، وإتيان الدنيا، ثم عدد من فضائلهم، واختراعهم للموشحات، التي استحسنها أهل المشرق وصاروا ينزعون منزعها. وقد ازدهر عندهم فن الغناء والموسيقى، وألفوا فيه التواليف الكبرى ".[٤]

ويعتبر عصر دولة بني أمية في الأندلس، العصر الذهبي لفنون الغناء والموسيقى، وما يتبعهما من فنوق اللهو والرقص، والتهريج. والألعاب، والفكاهة.[٥] فقد شهد قيام الدولة الأموية دفعاً متواصلاً بتشجيع أمراء بني أمية لهذه الحركة العلمية، والفنية. في قرطبة الحاضرة. ولقد أعتبر فن الغناء والموسيقى والرقص في الأندلس. منذ طليعة القرن الثالث الهجري. أكثر وسائل اللهو شيوعاً

١- السيد عبد العزيز سالم: دائرة معارف الشعب، العدد (٦١) ص ٩٩.

٢- العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٢٠.

٣- عبد العزيز سالم: نفس المرجع. العدد (٦١)، ص ٩٨، ٩٩.

٤- عبد العزيز سالم: المرجع السابق. ص ١٠٠.

٥- عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس. جـ ٢. ص ٨٣.

وتفشياً في المجتمع الأندلسي. ولم تكن مجالس الأنس التي يقصدها الكبراء والأعيان في قرطبة. مجالس حقيقية، ما لم يصحبها غناء على نغم عود أو مزمار، وما يتبع ذلك من حركات إيقاعية راقصة بطبيعة الحال.(١)

ولم تكن مسألة إعداد الفتيات والجواري لاتقان الغناء والموسيقى متروكة للصدفة، وإنما كانت تربية الفتيات، تتضمن تعليمهن الموسيقى، وتدريبهن عملياً العزف على العود والرباب، وأدوات موسيقية أخرى. وكان من عادة بعض الأسر القرطبية، أن يجعلن الفتيات يغنين بالتناوب في حفلاتهم الخاصة.(٢)

ولم يكن حب الغناء والموسيقى وقفاً على الرجال النبلاء، وإنما كان القاسم المشترك. بين الناس جميعاً. فالحكام شأن القواد. والحرفيين. والشعراء كانوا مفتونين بها صبابة، وبعضهم لم يقف عند حد الاستمتاع، وإنما كانوا موسيقيين فعلاً.(٣)

وكان العود أكثر الآلات الموسيقية انتشاراً، واستخداماً.(٤) ويذكر لنا ابن بسام: عن إحدى المغنيات، اللاتي تم إعدادهن، وتربيتهن، ثم بيعت إلى أمير "السهلة " بثلاثة آلاف دينار. وكانت شيئاً رائعاً في عصرها. ويضيف ابن بسام: كانت واحدة القيان في وقتها، لا نظير لها في معناها، لم ير أخف منها روحاً ولا أملح حركة، ولا ألين إشارة، ولا طيب غناء. ولا أجود كتابة، ولا أملح خطاً. ولا أبرع أدباً، ولا أحضر شاهداً، على سائر ما تحسنه وتدعيه. مع السلامة من اللحن فيما تكتبه وتغنيه، إلى الشروع في علم صالح من الطب، ينبسط بها القول في المدخل إلى علم الطبيعة، وهيئة تشريح الأعضاء الباطنة، وغيرذلك، مما يقصر عنه كثير من مستحلي الصناعة، إلى حركة بديعة في معالجة صناعة الثقاف.(٥) والمجادلة بالحجة، واللعب بالسيوف والأسنة والخناجر المرهفة، وغير ذلك من أنواع اللعب، لم يسمع لها بنظير، ولا مثيل ولا عديل.

ومن هذا النص الذي أورده ابن بسام، نعرف كيف كان يتم إعداد هؤلاء الجواري، بثقافة كبيرة. ومهارات عالية، في جوانب متعددة ويذكر: أيضاً أن الموسيقات والمغنيات. كن يتجمعن في

١- عبد العزيز سالم: قرطبة، ص ٧٨.

أنخل جنثاليث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة الدكتور/ حسين مؤنس. الطبعة الأولى، مكتبة النهضة المصرية، مايو ١٩٥٥، ص ٥٥.

٢- هنري بيرس: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ، ص ٢٣٢.

٣- هنري بيرس: نفس المرجع ، ص ٢٣٢.

٤- هنري بيرس: نفس المرجع ، ص ٣٣٣.

٥- الثقاف: أي الفروسية وهي لعبة راقصة . كانت الراقصات يقلدن فيها الفرسان في ساحة القتال والخيل المتخذة في تلك الرقصات من الخشب.

فرقة حملت اسم " الستارة " أخذاً من كلمة الستارة. وكانت تستخدم كما في المشرق، لتسترهن عن نظرات المدعويين.(١)

واشتهر أيضاً في هذا المجال. مجال إعداد المغنيات، " ابن الكتانى " وهو طبيب ثرثار، وجد في القرن " الخامس الهجرى " الحادى عشر الميلادى. وكان يعنى عناية خاصة بتلميذاته، ويحسن إعدادهن. تمهيداً لبيعهن بأثمان غالية، مبالغ فيها.

ويذكر ابن الكتاني عن نفسه، كيف كان يعد هؤلاء الجواري. لكي يصبحن نجمات فيقول " أنا مُـسنبه الحجارة، فضلاً عن أهل الغرامة، والجهالة. واعتبر ذلك بأن في ملكي الآن أربع روميات، كن بالأمس جاهلات، وهن الآن عالمات، حكيمات منطقيات. فلسفيات، هندسيات، موسيقيات، أسطرلابيات. معدلات، نجوميات. نحويات. عروضيات، أدبيات. خطاطات... إلخ.(٢)

ولكن يمكن أن نعتبر، أن أكبر مدرسة لتخريج هؤلاء الجواري المعدات إعداداً جيداً في صنعة الغناء والموسيقى: حدثت على يد عبقرى الموسيقى والغناء الأندلسي زرياب.(٣)

ويبالغ Dozy قليلاً حين يصرح، بأن رابع الأمراء الأمويين في قرطبة Corduba قد ترك حياته، وترك ذاته كأمير تحت تحكم فقيه، وهو يحيى بن يحيى الليثي، وعازف موسيقى، هو زرياب، وإمرأة هي طروب، ورجل ليس ذو مكانة عالية، هو نصر " الخصى "، غير أن قراءة مؤرخات ابن حيان تبعد كل البعد عن تأييد مثـــل هذا الانطباع، الذي ذكره Dozy، لأن عصر عبد الرحمن

١- هنرى بيرس: المرجع السابق، ص ٣٣٧.

٢- ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. جـــ ٣. ص٣٢٠، ٣٩١؛ هنرى بيرس: نفس المرجع، ص ٣٣٦، ٣٣٧.

٣- زرياب: معناها الطائر الأسود الجميل الصوت أنظر:-

Palincia: Historia de la Literatura Arabigo Espânola. Barcelona. 1945. p.23.

و" زرياب " هو أبو الحسن علي بن نافع. جاء إلى إسبانيا سنة ٢٠٦هـــ ٨٢٢م. ومات في نفس السنة التي مات فيها عبد الرحمن الثاني " الأوسط ". ويذكر/ ليفي بروفنسال، أنه مات في سنة ٢٣٨هـــ ٨٥٢ م. وقد جدد الكثير في الموسيقى الأندلسية وفن الغناء. وكان له السبق فيما عرف بالأغاني القصيرة أو " الطقاطيق". وللمزيد عن زرياب، حياته، وشعره، وألحانه، وموسيقاه، وتلاميذه، أنظر:-

(1) Lévi Provençal: La Civilization Arábe en Espana. Buenos Aries, 1953. pp. 67, 68, 69.

(2) Nykl:Hispano Arabic Poetry. p. 27.

عبد العزيز سالم: دائرة معارف الشعب. العدد (٦١) ص ١٠٢، ١٠٥؛ عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، جـــ ٢ ص ٩٤؛ العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٤١. ويضيف الدكتور/ العبادي. أن زرياب، انتقل إلى الأندلس، ونقل معه الحياة العراقية. بمظاهرها الفنية والاجتماعية، ولقيت مدرسته الموسيقية الممثلة في شخصه، وفي ابنائه وبناته وجواريه. نجاحاً كبيراً. بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي. ص٥٤.

الأوسط. معروف بأنه " ذروة عصر الإمارة في قرطبة في كل مناحي الحياة ." فهو الذى نقل الأندلس من البداوة إلى الحضارة، كما قيل وذكر من المؤرخين.[١]

ونستنتج من النص السابق، إلى أي مدى وصل زرياب بموسيقاه، وجواريه. إلى الحد الذي وضعه بجوار أعلى قمة في الأندلس، حاكمها، بل يُشتبه بأنه كان له دور كبير، في التأثير على أميرها.

ولقد صور المؤرخون. الذين تناولوا حياة زرياب، وموهبته، في مهنته الأصلية، ألا وهي الموسيقى والغناء. على أنه مبدع عبقري، جاء إلى أرض إسبانيا، التي استقبلته بالترحاب الشديد. وقد أنشأ زرياب فرقة موسيقية متكاملة كانت فيها الموسيقى الأندلسية، التي تقترب كثيراً من المدرسة المشرقية المتمثـــلة في طريقة غناء " إسحاق الموصلي " والقادرة على أن تكتسب المسحة المتميزة التي تضفي حيوية على التراث في الغرب الإسلامي كله، كما يرجع إلى " زرياب " الفضل أيضاً في العديد من الاختراعات الفنية من أهمها العود ذو الخمسة أوتار،الذي حل محل العود ذو الثلاثة أوتار، الذي كان مستخدماً فقط حتى ذلك الوقت. والعديد من الاختراعات الأخرى.[٢]

وكان لزرياب عشرة ابناء يمارسون الغناء.[٣] وتبع أولاده الثمانية الذكور في الغناء، وبنتاه عُـــلية وحمدونة، وهما أيضاً مارستا الغناء.[٤]

ويذكر المقري: أن حمدونة تقدمت في صنعة الغناء على أهل بيتها، فأحسنت الصناعة، وتقدمت على أختها عُـــلية. وتزوجت حمدونة من الوزير هشام بن عبد العزيز، وماتت قبل أختها عُـــلية، التي طال عمرها، ولم يـــبق من أهل بيت زرياب غيرها، فافتقر الناس إليها، وحملوا عنها.[٥]

ويتضح لنا من النص السابق مدى حاجة الناس إلى الصنعة الأصيلة في الغناء، والتي تعودوها من زرياب. وعندما مات لم يجدوا أمامهم سوى ابنته والتي ورثت الفن الأصيل عن أبيها، حتى صارت مقصداً لمن يريد الجودة في تلك الصنعة.

كما يوضح لنا النص أيضاً، عدم تحرج الوزير من الزواج من ابنة زرياب حمدونة، وهي مغنية في المقام الأول. بل يمكن أن يكون اتقانها لتلك الصنعة هو ما جعلها تصل للزواج. برجل وصل إلى

١- E. Lévi Provençal: Hist. T.I, pp. 270. 271. 275.

٢- Lévi Provençal: op. cit. T.I, pp. 270. 271.

العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٣٢.

٣- Provençal: La Civilization, p. 69.

Nykl: Hispano Arabic, p.27.

٤- سالم: دائرة معارف الشعب. العدد (٦١) ص ١٠٢.

٥- المقري: نفح الطيب، جـــ ٣، ص ١٢٩، ١٣٠، ١٣١.

رتبة الوزارة. حول هذا المعنى أيضاً يضيف الأستاذ الدكتور/ عبد العزيز سالم قائلاً: إن إجادة حمدونة بنت زرياب وتفوقها في الغناء، والشهرة الكبيرة التي وصلت إليها، ولعل ذلك كان من الأسباب التي دعت الوزير هشام بن عبد العزيز، وزير الأمير محمد بن عبد الرحمن، أن يتزوجها.[١]

ومن تلميذات زرياب النابغات أيضاً " مصابيح " جارية الكاتب أبي حفص عمر بن قهليل، التي أخذت عن أستاذها زرياب فن الغناء، وكانت في غاية الإحسان والنبل، وطيب الصوت. وفيها يقول: ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد وكتب به إلى مولاها:

يا من يضن بصوت الطائر الغرد

ما كنت أحسب هذا الضن من أحدِ

لو أن أسماع أهل الأرض قاطبة

أصغت إلى الصوت لم ينقص ولم يزدِ

فخرج مولاها حافياً. لما وقف على تلك الأبيات، وأدخله إلى مجلسه وتمتع بسماعها.[٢] وكان لزرياب جارية أخرى أسمها " متعة " وكانت تلميذته الأثيرة لديه، أدبها، وعلمها أحسن أغانيه " وكانت بارعة الجمال ".

وقد كان جمالها. وحسن صوتها، سبباً في حظوتها عند الأمير عبد الرحمن بن الحكم الأوسط. فقد جلست يوماً بين يديه تغنيه مرة، وتسقيه أخرى. حتى نالت إعجابه، وفطنت هي إلى ذلك، رغم محاولات الأمير. إخفاء ما بنفسه فغنته هذه الأبيات:-

يا من يغطي هواهُ	من ذا يغطى النهارا؟
قد كنت أملك قلبي	حتى علقت فطارا.
يا ويلتا أتراهُ	لي كان أومُستعارا.
يا بأبي قرشي	خلعت فيه العذارا.

فلما انكشف أمرها لزرياب. وعرف أنها راقت الأمير. وراقها. أهداها له فحظيت عنده.[٣]

١- السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، جـ ٢، ص٩١، ٩٢.

٢- المقري: نفح الطيب: جـ ٣. ص ١٣١؛ عبد العزيزسالم: نفس المرجع. جـ ٢، ص ٩٣؛ بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٥٤.

٣- المقري: نفس المرجع. جـ ٣، ص ١٣١. بالنثيا: نفس المرجع. ص ٥٤؛ عبد العزيزسالم: قرطبة حاضرة الخلافة، جـ ٢، ص ٩٢؛ عبد العزيز سالم: دائرة معارف الشعب. العدد (٦١) ص ١٠٢.

وكان زرياب يلحن أشعاره بنفسه، وذكروا بأنه أدعى بأن الجن كانت تعلمه كل ليلة ما بين نوبة أي " دور " إلى صوت واحد، وأنه كان يهب من نومه سريعاً، فيدعو جاريتيه غــزلان، وهــنيدة فيأخذان عودهما. ويتناول عوده ويطارحهما ليلته، ثم يكتب الشعر، ويعود عجلاً إلى مضجعه. ومع ذلك فقد كان زرياب في بعض الأحيان، يغنى أشعار غيره، وخاصة المشارقة، أمثال "أبي العتاهية ".(١)

ويأخذنا الحديث بعد ذلك، إلى ذكر القيان، الوافدات من المشرق، وما أكثرهن، وقد أخذن في الوفود على الأندلس، منذ قيام الدولة الأموية، وحتى نهايتها بدون انقطاع.

وكان أول هؤلاء القيان، المغنية المدنية، أي التي وفدت من المدينة المنورة " عجفاء " والتي أثارت إعجاب الأندلسيين بغنائها.(٢)

ويحدثنا المقري عن قصة طريفة، حدثت حول هذه الجارية. فقد كانت في دار مسلم بن يحيى الزهرى. وكان شكلها ليس جميلاً، وكانت نحيفة جداً إلى درجة الهزال،فهزئ منها الأرقمي، الذي كان قد جاء خصيصاً لسماعها، بناء على دعوة من مولاها، ولم يعجبه شكلها، فقال له صاحب الدار، لا تتعجل في حكمك عليها، وأخذت عودها وغنت:—

بيد الذي شغف الفؤاد بكم ... تفريج ما لقى من الهم

فاستيقني إن قد كلفت بكم ... ثم افعلي ما شئت... الخ

فتحسنت في عينيه، ثم زادت في الغناء، فزادت حسناً، إلى أن جعلت الأرقمي من فرط اعجابه بها. يخرج عن وقاره، ويخلع طيلسانه، ويُلقي به ويأخذ شاذكونة(وهو غطاء السرير) ويضعها فوق رأسه، ويتناول قوارير الدهن ويضعها فوق رأسه، راقصاً بها فتتكسر، ويسيل الدهن عليه، دون أن يدرى من شدة اعجابه بحسن غنائها، وصوتها.(٣)

وقد جعلت العجفاء اعجاب الناس بصوتها، يصل إلى الأمير عبد الرحمن بن معاوية " الداخل " فيشتريها.(٤) وأحب عبد الرحمن بن معاوية جارية أخرى اسمها " دعجاء " واشتراها أيضاً.(٥) ولكن

١- المقري: المصدر السابق، جـ ٣، ص١٢٥، ١٢٦؛ عبد العزيزسالم: قرطبة. جـ ٢، ص ٨٩؛ عبد العزيز سالم: دائرة معارف الشعب، العدد (٦١) ص ١٠٢.

Dozy: Historia de Los Musulmanes. T.I. pp. 384. 385

٢- العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص١٢٠.

٣- المقري: نفس المصدر، جـ ٣، ص ١٤١، ١٤٢؛ إميليو غرسية غومث: الشعر الأندلسي، ص ١٠، ١١.

٤- مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي، ص ٤٤، ٤٥.

٥- سالم: نفس المرجع. جـ ٢. ص ٨٦.

عصر الغناء الذهبي في الأندلس بصفة عامة، وفي قرطبة بصفة خاصة، كان في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (٨٢٢-٨٥٢ م). فقد كان شاعراً، وأديباً بعيد الهمة والغايات. وهو أول من اتخذ رسوم الإمارة، وأبهتها واستقدم المغنين، والمغنيات، إلى الأندلس. وآجزل لهم العطاء، وأجرى عليهم الرواتب، فنظم فن الغناء والموسيقى بالأندلس بالتقاليد البيزنطية المحلية الموجودة أصلاً في إسبانيا، بالإضافة إلى التقاليد الشرقية التي أخذت تفد في موجات متابعة من الشرق العباسي، منذ عهد الأمير عبد الرحمن بن معاوية الدخل ٧٥٥ – ٧٨٩م.(١) حتى نهاية الدولة الأموية في الأندلس، وما بعدها. ويقال أن " الرصانة " ليست إلا نقصاً في المزاج غالباً وتلك الصفة لا توجد في الأندلسيين، فالجانب الأكبر من حياتهم، أوقفوه على وصف مغامراتهم الغرامية " البهجة صحبة وكأس لا تفرغ وموسيقى، لا تتوقف" وكلها شواهد كافية على ميلهم إلى إرتشاف الحياة حتى آخر قطرة.(٢)

ومن كثرة شغف الأمير عبد الرحمن بن الحكم الأوسط، وحبه للغناء والموسيقى، بنى قصراً لمغنياته الوافدات من المشرق، عرفت بدار المدنيات.(٣) والمدنيات كن ثلاث جواري، هن قلم، وفضل، وعلم.(٤)

وأطلق عليهن المدنيات، لكونهن من بلد الرسول ﷺ، وتربين في المدينة المنورة، وتعلمن فيها فن الغناء،(٥) وقلم هذه رغم أنها نشأت في المدينة، ليست مشرقية الأصل وإنما بشكنسية، أُسرت صغيرة، في حملة على نبرة Navarra شمال شرقي الأندلس، ثم حُـملت إلى المدينة، وفيها مرت بكل مراحل التعليم التي يجب أن تجتازها كل من تعد نفسها لتكون مغنية، حتى إذا مهرت في الغناء، والأدب، والخط. وفي حفظ الشعر بخاصة، لميل الأمراء وعامة الشعب إلى تذوق الشعر الجيد. واشتراها الأمير عبد الرحمن الثاني الأوسط. وكان دون أدنى شك يقدرها كثيراً؛ لأنها حتى مع إقامتها الطويلة في المشرق، ظلت محتفظة بلونها الأشقر صافياً جميلاً. ونحن نعرف أن الأمويين، كانوا مغرمين بالشقراوات.(٦)

١– سالم: دائرة معارف، العدد (٦١) ص ١٠٠؛ سالم: نفس المرجع. جـ ٢. ص ٨٧.

٢– هنرى بيرس: الشعر الأندلسي، ص ٣١٧.

٣– العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٢٠.

٤– بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٥٤.

٥– Lévi Provençal: Histoire. T.I. p. 268.

٦– هنرى بيرس: نفس المرجع. ص ٤٥، ٤٦؛ عبد العزيزسالم: قرطبة حاضرة الخلافة. جـ ٢. ص ٨٦.

وكانت قلم مع صديقتيها علم. وفضل. تدير أوركسترا غنائي في المدينة في قصر الإمارة.[١] ويذكر " المقري " أن فضل كانت حاذقة الغناء، كاملة الخصال، وأصلها لإحدى بنات هارون الرشيد، ونشأت وتعلمت ببغداد. ودرجت

من هناك إلى المدينة المنورة، فازدادت في معرفتها، واشتريت من هناك للأمير عبد الرحمن الأوسط، مع صاحبتيها علم. وقلم.[٢]

ومن هؤلاء الجواري، جارية ظهرت في عهد الأمير محمد بن المنذر، اسمها " طرب " أهداها أحد التجار إلى الأمير المنذر. وكانت على درجة كبيرة من الجمال، مع حظ كبير في الإتقان في صنعة الغناء، وحسن الأداء. فما كاد يسمعها الأمير المنذر، حتى أخذت بمجامع قلبه، وقبل الهدية، بعد أن وهب التاجر الذي أهداها له ألف دينار، وأيضاً "جيجان " جارية الأمير عبد الله بن المنذر، كانت مغنية حاذقة.[٣] كذلك بعث الخليفة عبد الرحمن الناصر في سنة ٣٣٤هـ، ورغم أعبائه الثقيلة في الداخل والخارج بسفينة إلى المشرق. لشراء عدد من الفتيات من الاسكندرية. وعادت السفينة مشحونة بعدد من الجواري والمغنيات.[٤]

وفي عهد الحاجب المنصور بن أبي عامر، ذاعت شهرة المغنية أنس القلوب.[٥] ويورد ابن الخطيب: إن كان هذا في فترة متأخرة عن موضوعنا، ولكنها تظهر شغف الأندلسيين بالغناء والموسيقى ويقول: إن الغناء كان فاشيا حتى بدكاكين الحرفيين، والاحتفالات كانت تستغرق شطراً كبيراً من الليل. وشوارع غرناطة كانت مكتظة بجمهور غفير، فالرجال والنساء كانوا يرشون بعضهم بالماء المعطر. ويترامون بالبرتقال. والليمون، وباقات الأزهار، وتجدر الإشارة هنا إلى تطور وضع المرأة، التي أصبحت حسب ما يبدو تتمتع بالحرية الاجتماعية، التي تسمح لها بالمشاركة في الحياة العمومية.[٦]

ومن النساء الداخلات إلى الأندلس من المشرق " قمر " جارية ابنهيم ابن حجاج اللخمي أمير إشبيلية. وقد بعث بأموال عظيمة لشرائها، بعدما سمع بها في بغداد. وكان قد بلغه ما وصلت إليه

١- Lévi Provençal: Hist., T.I. p. 268.

٢- المقري: نفح الطيب، جـ ٣، ص ١٤٠؛ سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، جـ ٢، ص ٨٥، ٨٦؛ سالم: دائرة معارف الشعب. عدد (٦١) ص ١٠٠.

٣- سالم: نفس المرجع. جـ ٢. ص ٩٣، ٩٤.

٤- سالم: نفس المرجع: جـ ٢. ص ٩٤.

٥- مصطفي الشكعة: الأدب الأندلسي، ص ٨٩؛ وراجع قصة أنس القلوب مع المنصور بن أبي عامر، ص ٥٨.

٦- للمزيد من التفاصيل: حول الاختلاط بين النساء والرجال. في غرناطة في الأماكن العامة، راجع حمدان حجاجي: حياة بن زمرك. ص ١٥، ١٦.

من شهرة في الغناء والفصاحة والمعرفة بصوغ الألحان. فقدمت قمر، واستقرت في بلاطه بإشبيلية، ومن أغانيها في مدحه:—

ما في المغارب من كريم يرتجى إلا حليف الجود ابراهيم

إني حللت لديه منزل نعمة كل المنازل ما عداه ذميم

ويذكر بيرس أن معاملتها الراقية. قد تركت تأثيراً طيباً في نفس وأخلاق سيدها. والرجال الذين حوله. وقد كان بهم شئ من جفاف وخشونة، أسهمت بفصاحتها الفطرية، واستعدادها الطبيعي، لقول الشعر في إشاعة تذوق الأدب العراقي. وكانت تحفظ كل روائعه عن ظهر قلب.(١)

ولم يكن فن الغناء والموسيقى حكراً على القيان والجواري فقط، وإنما شاركت الحرائر، ونساء الأمراء، والخلفاء. وبناتهم في هذا الفن أيضاً. فيذكر لنا ابن حزم أن " ضنا " العامرية كريمة المظفر عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر: اقترحت عليه أن يصنع لها أبياتاً من الشعر، واقترحت عليه أفكار تلك الأبيات لتصنع لها لحناً، وتتغنى به.(٢)

ويدل هذا على مدى معرفتها بالموسيقى، وصياغة الألحان، إلى الحد الذى تستطيع به أن تصنع الألحان لنفسها. فلابد أنها كانت ذات موهبة، ودراسة متعمقة في الموسيقى. وممن برع أيضاً في فن الغناء من ابناء وبنات الأمراء والخلفاء، الأميرة ولادة بنت الخليفة المستكفي، وكان لها صنعة في الغناء، ومن مغنياتها أيضاً مغنية اسمها عتبة.(٣)

ونرى من خلال ما ذكرناه مدى الدور الكبير الذي لعبته التأثيرات المشرقية، التي وفدت على الأندلس. ووضحت بصفة خاصة في مجال الغناء والموسيقى. وهذه التأثيرات تركت بصمتها على كل نواحي الحياة الأندلسية. ولكنها برزت بشكل أكثر وضوحاً، في تلك النقطة بالذات. ويبدو أنها ظهرت نتيجة شغف الأمراء، وخاصة الأوائل منهم، وحنينهم إلى معرفة كل ما هو جديد على الساحة الشرقية. التي كانت متقدمة كثيراً في هذا المجال، وأيضاً لقرب عهد الفتح بهم، وحنينهم الدائم إلى معرفة كل ما يجري على الشاطئ الآخر في الشرق. الذي تركوا فيه جذورهم. قبل يأتوا إلى تلك المناطق الجديدة.

١- عن قمر راجع:

ابن عذارى: البيان المغرب، جـ ٢، ص ١٢٩، ١٩٤؛ المقري: نفح الطيب، جـ ٣، ص ١٤٠، ١٤١؛ عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم، ص ٢٥٨؛ قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، جـ١، ص ٥٨، جـ ٢، ص ٩٤؛ الشكعة: نفس المرجع. ص ٤٤؛ هنرى بيرس: " الشعر الأندلسي، ص ٤٦.

٢- الطاهر مكي: دراسات عن ابن حزم، ص ٧٩، ٢٦٤.

٣- عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، جـ ٢، ص ٨٢، ٩٥ .

وللمزيد عن ولادة انظر الفصل الثالث، ص١٦٦.

ولم يقف الأندلسيون عند حد استقطاب تلك التأثيرات المشرقية. ولكنهم آخذوا واقتبسوا، وتشبعوا مشرقياً. ثم نراهم بعد ذلك أنتجوا منتجاً جديداً. وهو ما سُمى " بالموشحات " التي خلبوا بها لـب الشرق فيما بعد.

وتتجلى التأثيرات المشرقية أيضاً، علاوة على ما ذكرناه، في استقدام هذا الكم الهائل من الجواري والقيان. المدربات تدريباً جيداً، بهذه الفنون في الشرق الإسلامي.[١] هذا إلى جانب معاهد الموسيقى والغناء. التي أقامها زرياب في العاصمة قرطبة، لاعداد المغنيات والموسيقيات،[٢] وتعليمهن المعارف الموسيقية الأشد تنوعاً ورقياً.[٣] وتمثلت أيضاً التأثيرات المشرقية في الموسيقى العراقية، التي أخذت تغزو الأندلس في أوائل عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط، وتحل محل الموسيقى المدنية السابقة عليها،[٤] والتي دخلت مع فتيات المدينة الثلاث. ولقد شُـغل الكثير من المؤرخين العرب بتلك الصناعة، وعلى رأسهم العلامة العربي " ابن خلدون " والذي أفرد في مقدمته التاريخية صفحات كثيرة، في التعريف بهذا اللون من الفنون:- مثال ذلك قوله أن فن الغناء صناعة تقوم على تلحين الأشعار الموزونة، بتقطيع الأصوات على نسب منتظمة معروفة... إلخ.

يضيف ابن خلدون أيضاً: أن الغناء يحدث في العمران، إذا تجاوز حد الضرورة، فإنه لا يرغب في هذه الصناعة، إلا من فرغ من جميع حاجاته الضرورية ولا يطلبها إلا الفارغون عن سائر أحوالهم، تفنناً في مذاهب اللذة.[٥]

أما أدوات الطرب وآلاته بالأندلس، فكثيرة، ويذكر ابن خلدون: أن منها ما يسمونه الشبابة. وهي قصبة جوفاء، مزودة بأنجاش " فتحات " في جوانبها معدودة. وينفخ فيها فتصوت. ويخرج الصوت من جوانبها، والمزمار من نوع هذه الآلة، يسمى أحياناً الزلامي، ومزود بقصبة صغيرة ينفخ فيها،[٦] والآلات المتخذة إما آلات قرع أو نفخ،[٧] أو آلات وترية مزودة بالأوتار المشدودة، وهي كثيرة، منها ما كان مستدير الشكل مثل الكريج بالإسبانية Carrizo، والعود بالإسبانية Aloud، والروطة بالإسبانية Rota، والجيتار بالإسبانية Guitarra، والكثيرة بالإسبانية Citara،

١- عبد العزيز سالم: المرجع السابق، جـ١، ص ٥٨، ٨١، ٨٥، ٥٩.

٢- الطاهر مكي: المرجع السابق، ص ٤٠، ٤١.

٣- بيرس: الشعر الأندلسي، ص ٣٣٦.

٤- العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٤٠.

٥- راجع ابن خلدون: المقدمة، ص ٤٥٣، ٤٥٤ وما بعدها.

٦- ابن خلدون: نفس المصدر، ص ٤٥٧.

٧- سالم: دائرة معارف الشعب. عن فن الغناء والموسيقى، العدد (٦١) ص ٩٩.

والرباب بالإسبانية Rabel، والدف بالإسبانية Adufe.[١] ونلاحظ من هذه الأسماء، مدى تأثر اللغة الإسبانية بالكلمات العربية، التي مازالت تحتفظ بها إلى هذا اليوم.

أما آلات الرقص، المستخدمة فكانت مختلفة، ويذكر ابن خلدون: أن آلات الرقص تسمى "الكرج". وهي تماثيل خيل مُسرجة من الخشب، معلقة بأطراف أقبية يلبسها النساء ويحاكين بها امتطاء الخيل. فيكرون ويفرون ويتاقفون. وأمثال ذلك من اللعب المُعدة للولائم والاعراس، وأيام الأعياد ومجالس الفراغ واللهو.[٢] وكانت هناك حركات راقصة، تتم عن طريق استخدام المناديل أو السيوف أو بدونهما.[٣] والغناء والموسيقى والرقص أكثر وسائل اللهو شيوعاً في الأندلس، ولم تكن تخلو منها مجالس الأنس، التي يعقدها علياء القوم بقرطبة وغيرها.[٤]

ونستدل على ازدهار فن الغناء والموسيقى والرقص في عصر الخلافة الأموية، من خلال النقوش المحفورة في العلب، والصناديق العاجية التي كانت تـنتجها دار الصناعة بقرطبة. وهي نقوش تمثل في بعض الأحيان مجالس أنس وشراب.[٥]

ويؤكد بيرس على أن قرطبة، كانت تحتكر الجواري والمغنيات، على عكس الشائع والمعروف، بأن إشبيلية هي مركز الغناء والموسيقى، على حد قول ابن رشد بأنه " إذا مات عالم بإشبيلية، فأريد بيع كتبه، حملت إلى قرطبة، حتى تباع فيها، وإذا مات مطرب بقرطبة، فأريد بيع آلاته، حملت إلى إشبيلية". ويؤكد بيرس على ازدهار قرطبة، ولكنها كانت تعمل في الخفاء، نظراً لأنها مركز الخلافة والتشدد الديني، بعكس إشبيلية التي لم يكن عليها رقابة مثل قرطبة. فكل شئ فيها علانية، نظراً لمساحة الحرية فيها. بعكس قرطبة، المراقبة دائماً من قِـبل رجال الدين، وتشديدهم عليها.[٦]

ويدعم بيرس كلامه هذا بتلقي أبو الوليد بن جهور " أمير المدينة" ثلاث رسائل في يوم واحد، واحدة من ابن صمادح، ويطلب جارية عوادة، والثانية من ابن عباد، ويطلب جارية زامرة، والثالثة من سقوت البرغواطي، صاحب مدينة سبتة، يطلب قارئاً للقرآن.[٧] ويذكر ابن بسام: أن مسيحي الشمال اتخذوا بعضاً من العادات الإسلامية، من بينها أن تكون لهم فرقة من الموسيقات

١- سالم: المرجع السابق، ص١٠٥.

٢- ابن خلدون: نفس المصدر، ص ٤٥٨.

٣- بيرس: الشعر الأندلسي، ص ٣٤٠، ٣٤١.

٤- Lévi Provençal: Histoire de L'Espágne Musúlmana, T.III, Paris, 1953, p 448.

٥- عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، جـ ٢، ص ٩٦.

٦- بيرس: الشعر الأندلسي، ص ٤٣٠.

٧- بيرس: نفس المرجع، ص ٤٣٠. وتعجب ابن جهور من هذا وقال: جاهل يطلب قارئا للقرآن، وعلماء يطلبون الأباطيل.

والمغنيات. ويؤكد ابن الكناني هذا الواقع الذي تحدثنا عنه، عندما أشرنا إلى أكاديميات الموسيقى في قرطبة بقوله:- شهدت يوما مجلس " مسيحية إسبانية " وهي بنت شانجة ملك البشكنس، زوج الطاغية شانجة بن غرسية، وترددوا عليه في الفتنة عام (١١٣٢م) وكان في المجلس عدة فتيات مسلمات. من اللآتي وهبهن له سليمان بن الحكم، أيام إمارته بقرطبة، فأومئت بنت شانجة إلى جارية منهن، فأخذت العود، وغنت. فأحسنت.[١]

ويدل هذا على تأثر المجالس المسيحية، وتقليدها لمجالس جيرانهم المسلمين، وذلك لإعجابهم بتلك المجالس الزامرة Zambras، فنقلوها لبلاطهم لتسليتهم.

ويبقى لنا الحديث عن فن الموشحات الأندلسية، ذلك الفن الذي أنتج وأبدع في جميع مراحله أندلسياً صرفاً، بدون أي تأثيرات خارجية، ولن أطيل في الحديث عنه. وكل ما يهم موضوعنا منه، أن المرأة كانت عاملاً مؤثراً في إخراج هذا الفن الجديد. فقد كانت الخرجة، وهي مركز الموشحة وبداية الغناء، لابد أن تكون على لسان فتاة، تتغزل في الفتى، بعكس القصيدة العربية الشائعة والمعروفة، والتي نجد فيها الرجل دائماً، هو البادئ والمحب، والمرأة قاسية متكبرة معرضة.

وما يلي يوضح بداية الخرجة في الموشحة الأندلسية:-

ليل طويل

ولا معين

يا قلب بعض الناس

لا تلين

أنا أقول قوقو

ليس بالله تذوقو

والخرجة هنا إسبانية قوقوCuCo، ومعناها "الماكر"، فالوشاح سمع من محبوبته هذه العبارة. أنا أقول أنت مكار، ولن تذوق طعم قبلتي. فاهتزت لها نفسه وجعلها مركزاً أو خرجه لموشحته.[٢]

١- ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، جـ ٣، ص٣١٨؛ بيرس: المرجع السابق، ص٣٣٨، ٣٣٩.

٢- العبادي: الإسلام في أرض الأندلس، ص ٦٩، ٧٠؛ العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص١٧٣؛ عبدالعزيز الأهواني: الأغنية الشعبية أصل التوشيح " المجلة " العدد الثاني فبراير ١٩٥٧م.

ويقال أن مبتدع فن الموشحة شاعر من بلدة قبرة Cobra، جنوب شرق قرطبة.واسمه مقدم بن معافي القبري في أوآخر القرن الثالث الهجرى، التاسع الميلادى. للمزيد أنظر: العبادي: الإسلام في أرض الأندلس. ص ٦٩. العبادي: في تاريخ المغرب، ص ١٧٢؛ إميليو غرسية غومث: الشعر الأندلسي، ص ١٢؛ بروفنسال: سلسلة محاضرات عامة. ص ٢٣؛ سالم: دائرة معارف الشعب. عدد (٦٤) ص ٢٠٣.

ويعتبر هذا الفن الجديد ثورة في الشعر العربي وحركة من حركات التجديد فيه. وإذا كان المشرق قد أعطى المغرب القصيدة الشعرية، فإن المغرب وبالتحديد الأندلس قد أعطى المشرق الموشحة.[(١)] ويجمع مؤرخو الأدب على أن فن التوشيح نشأ في الأندلس، وازدهر في عصر ملوك الطوائف.[(٢)]

خامساً: العادات في الزى، واستخدام أدوات الزينة، والتزين بالحُلي والتطيب بالعطور.

أ- العادات في الزى .

الحديث عن الزى الأندلسي يكون عاماً على كافة المدن الأندلسية، لأن المصادر لم تزودنا بأي إشارات عن أزياء أهل كل مدينة أو كورة (ولاية) على حدة. ولذلك يكون الحديث عن الأزياء عاما، أي ينطبق على مدن وكور الأندلس ككل.[(٣)] ويروي ابن سعيد الغرناطي نصاً في غاية الأهمية يوضح مدى اعتناء أهل الأندلس بنظافة أجسادهم وملابسهم، ويقول: وأهل الأندلس أشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون، وما يفرشون، وغير ذلك مما يتعلق بهم. وفيهم من لا يكون عنده إلا ما يقوته يومه، فيطويه صائماً، ويبتاع صابوناً، يغسل به ثيابه. ولا يظهر فيه ساعة على حالة تنبوعن العين.[(٤)] كذلك ساهم " المغنى العراقى أبو الحسن علي بن نافع الملقب " بزرياب " في نقل نزعة التجديد " المودة " البغدادية إلى الأندلسيين، في ثيابهم، وأزيائهم، وطريقة ارتدائها، واختيار ألوانها، وأنواعها. حسب فصول السنة، إلى جانب تعليمهم، طريقة تصفيف شعورهم، ورفعة خلف الآذان، بدلاً من تركه مسدولاً على جباههم وأعينهم، وتعليمهم أيضاً طريقة الطهي العراقي، وضرورة الترتيب في تقديم الأطعمة بدلاً من وضعها دفعة واحدة، واستعمال الأواني الزجاجية، بدلاً من الأواني المعدنية، كي يسهل تنظيفها، إلى غير ذلك من الإصلاحات، التي عرفت باسم مراسم زرياب.[(٥)]

وإذا كانت الأندلس قد استفادت من نزعة التجديد والأناقة " المودة " والملابس المشرقية في عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط، إلا أن ذلك فيما يبدو كان قاصراً في معظمه على الطبقة الأرستقراطية القرطبية بوجه خاص.ولم يمنع ذلك مطلقاً، أن يكون للأندلس مصانعها ومنسوجاتها

١- العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٧٢.

٢- عبد العزيزسالم: قرطبة حاضرة الخلافة، جـ ٢، ص ٩٩؛ دائرة معارف الشعب العدد (٦٤) ص ١٠٢، ١٠٣، ٢٠٣،٢٠٤؛ جودة الركابي: في الأدب الأندلسي، ص ٢٨٥ وما بعدها.

٣- سحر سالم: مظاهر الحضارة في بطليوس، ص ٢٨٤.

٤- الشكعة: الأدب الأندلسي، ص ٨٢.

٥- العبادي: نفس المرجع، ص ١٤١، ١٤٢ وما بعدها؛ ليفي بروفنسال: سلسلة محاضرات عامة. ص٧؛ بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٥٤.

الخاصة بها،ومثال ذلك " مصانع المرية Almeria " التي كانت تنتج أقمشة شبيهة بالأقمشة الشرقية، وبنفس أسمائها مثل:- الأصبهاني (نسبة إلى أصبهان)، والجرجاني (نسبة إلى جرجان)، والعتابي (نسبة إلى محلة العتابية بغرب بغداد)، والسقلاطون Eskerlat الحريرية الوردية (نسبة إلى بلاد اليونان في الأصل)، ثم انتشرت في المدن الإسلامية شرقاً وغرباً، أما الأقمشة ذات البريق الذهبي الملون، وتسمى أبو قلمون، ومعناه الحرباية باليونانية. فكانت تصنع من صوف البحر، أو بالدقة من نبات بحري يلتقط من على شواطئ الأطلنطي، مثل شنترين Santaren. وتنتجه مصانع أندلسية.(١)

واختصت مدينة المرية. بصناعة الحلل النفيسة، وغرناطة Granadaبصناعة الملبد ذى الألوان العجيبة، ومرسية Murcia بالوشي، والبسط التنتلية، نسبة إلى تنتلة Tentela.(٢)

وكان الأمير عبد الرحمن الأوسط، أول من أنشأ من أمراء بني أمية الطراز بالأندلس. فأنشأ داراً للطراز في قرطبة، وفي هذه الدار كانت تنسج ثياب الأمراء والخلفاء، من الحرير المختم والمرقوم بالذهب، المختلف الألوان، وإن كانت هذه الصناعة، أضمحلت بعد سقوط الخلافة بقرطبة، فغلبت عليها مدينة المرية.(٣)

وقد شغفت أوربا المسيحية أيضاً بتلك الملابس الأندلسية، شغفاً شديداً، حتى إن عظماء وملوك المسيحيين، مثل الأمير دون فيليب، وزوجته، والمؤرخ دون رودريجو خيمنث دى رادا، قد وضعوا بعد موهم ، في أكفان نفيسة. من صناعة الأندلس، ومن نسيج المرية.(٤)

ويذكر ابن خلدون: أن صناعة الملابس من أعمال الحضر والعمران، وأن أهل البداوة لا يحتاجون هذه الصناعة، لأنهم يشتملون الملابس اشتمالاً، أي يلفونها حول أجسادهم، وأن خياطة الملابس من مذاهب الحضارة.(٥) وكان اللون الأبيض شعار الحزن عند بني أمية، فلما اتخذ ملبساً للصيف، وتراجعت الناس إلى السواد.(٦) وهناك شواهد كثيرة خلفها لنا الأدب الأندلسي، تبرز

١- بيرس: الشعر الأندلسي. ص ٢٨٣؛ عبد العزيزسالم: قرطبة حاضرة الخلافة. جـ ٢، ص ١٥١.

٢- سالم: دائرة معارف الشعب. العدد (٦٤)، ص ١٨٩.

٣- سالم: قرطبة، جـ ٢، ص ١٥٤، ١٥٥سالم: دائرة معارف الشعب. العدد (٦٤) ص ١٩٠.

٤- الشكعة: نفس المرجع، ص ٨٣، ٨٤.

٥- ابن خلدون: المقدمة، ص ٤٣٨، ٤٣٩.

Dozy:Nomes Des Vetements chez les Arabes. Amsterdam.1845. pp.1.2.

٦- بيرس: الشعر الأندلسي ص ٢٦٦. غرسية غومس: الشعر الأندلسي. ص١١؛ الطاهر أحمد مكي: دراسات عن ابن حزم. ص ٤٧.

فيها تلك العادة الأندلسية، في ارتداء اللون الأبيض للحداد.[١] وقد اختلفت أزياء أهل البادية عن أهل الحضر، فمن الملاحظ أن أزياء أهل البوادي، اتسمت بالبساطة، فكانوا يرتدون الجبة المصنوعة من النسيج السميك، كذلك القمصان المعروفة بالدراعة، أو الجلباب المصنوع من الصوف المفتوح في جزء منه.[٢] وكان زي المسلمين يختلف عن زي أهل الذمة. فقد كانت المرأة الذمية ترتدي الجُلجُل[٣] تفرقة لها عن نساء المسلمين.[٤]

أما أزياء النساء، فكان طابعها الأناقة، والنفاسة، والإسراف.[٥] فقد عمدت النساء إلى التفنن في لبس المصبغات. والمذهبات، والديباجات من الملابس والتماجن في أشكال الحُلي، إلى درجة الغلو، مما جعل المؤرخ الأديب ابن الخطيب يقول " نسأل الله أن يغض عنهن فيها عين الدهر".[٦] وقد تنوعت ملابس النساء تنوعاً كبيراً، وتعددت أسماؤها، إلى الحد الذي لم استطع معه ذكر جميع الأسماء. وقد اعتمدت اعتماداً كبيراً، في نقل هذه الأسماء " على كتاب معجم الملابس العربية " للمستشرق الهولندي " رينهارت دوزي" Dozy، والذي خصص المعجم كله، لذكر تلك الملابس، وأسماؤها، بكثير من التفصيلات الدقيقة:

ونبدأ بأغطية الرأس، وأهمها " الطرحة ". وهي غطاء يوضع على الرأس، ويتسدل إلى الخلف قليلاً، وطرحة النساء، أطول قليلاً من طرحة الرجال، وكانت الطرحة رقيقة، ومصنوعة من الكتان، أو القطن.[٧]

ومن أغطية الرأس أيضاً العصابة، وهي قطعة من الصوف مربعة وسوداء ذات حواف حمراء وصفراء اللون، يتم ثنيها على هيئة مثلث، ثم تربط بها الرأس من الخلف. وتعقد عقدة واحدة، وتستخدمها النساء.[٨] ومن أغطية الرأس أيضاً " الغفارة ". وهي قطعة قماش تضعها المرأة بين رأسها والخمار، حتى لا يتسخ خمارها من الزيت، الذي تتعطر به. وتضعه على شعرها، وغفارة "

١- حول تلك الشواهد، راجع: بيرس: نفس المرجع، ص ٢٦٧،٢٦٨،٢٦٩،٢٧٠.

٢- كمال أبو مصطفى: مالقة الإسلامية، ص ٩٤ هامش(٤).

٣- الجُلجُل:هو عبارة عن خلخال يحدث صوتاً مميزاً عند المشي تمييزاً لها عن نساء المسلمين

٤- الجرسيفي: رسالة في الحسبة، الرسالة الثالثة، ص ١٢٢.

٥- الشكعة: المرجع السابق، ص ٨٥.

٦- ابن الخطيب: اللمحة البدرية في الدولة النصرية، القاهرة ١٩٢٨، ص ٢٧؛ الشكعة: نفس المرجع، ص ٤٧

٧- Dozy: op. cit., pp. 257 - 262.

ويضيف دوزي: في معرض حديثه عن الطرحة، متى بدأ استخدامها في مصر، وخاصة في صعيد مصر وفي حلب الشام. والمادة أو الخامة التي كانت تصنع منها، في كل من مصر والشام والأندلس

٨- Dozy: op. cit. pp.300. 303.

جمعها غفائر ". والقشطول أيضاً من أغطية الرأس للمرأة.[١] والنقاب نوع من الحجاب للمرأة. ولكنه مزود بفتحتين صغيرتين أمام العينين، حتى تتمكن المرأة من السير. وكان هذا النقاب يرتدى في الأندلس ومصر بين البدو.[٢] والعتابي نوع من " الخُـمر ". تغطي بها النساء رؤوسهن. وعرفت هذه الثياب في أوربا باسم تابي Tabis، هو تحريف واضح من كلمة عتابي.[٣] وكان يقصد بها الأقمشة الحريرية المموجة.[٤]

وكان يصنع الخمار من الكتان أو الحرير.[٥] وأما الدرع فهو قميص المرأة الكبيرة، والمجول قميص المرأة الصغيرة، وهو ثوب تجول فيه الجارية، أي تتجول به،[٦] والمئزر أو الإزار، وهو ما يغطي الجزء الأعلى من الجسم.[٧] وكان إزار النصرانية أزرق. واليهودية أصفر، وذلك تمييزاً لهن عن نساء المسلمين.[٨]

ويوجد شئ آخر يشبه الإزار وهو الملحفة، وهو رداء كبير، تتغطى به النساء عند خروجهن.[٩]

ومن ألبسة النساء أيضاً اللباس والسراويل. وهي ما تشبه البنطلونات إلى حد كبير في عصرنا الحديث، ولكنها كانت فضفاضة[١٠] نوعاً ما. وقد كان كثير من الملابس، مشتركاً بين الرجال والنساء، فكلهم يرتدى فوق البدن من أعلى قميصاً من الصوف، أو القطن، ومن أسفل السراويل، والكلمتان دخلتا في اللغة الإسبانية في صورة Camisa، Zaraguelles، وملابس الشتاء ثقيلة ومحشاة، بينما ملابس الصيف، كانت في العادة بيضاء خفيفة.[١١] ومن ألبسة المرأة أيضاً الأتـب.

١- Dozy: op. cit, pp. 312 – 317. 337.

٢- Dozy: op. cit, pp. 404 – 441.

ويطلق عليها دوزى أيضاً لفظ الجُنة، بالجيم المضمومة، وهي تؤدى نفس وظيفة النقاب.

٣- العتابي: نسبة إلى محلة العتابية بغرب بغداد، واشتهرت بصناعة الحرير العتابي، التي لم تلبث أن انتقلت إلى مصر والأندلس.

٤- السيد عبد العزيز سالم: دائرة معارف الشعب، العدد (٦٤) ص١٩٠، ١٩١.

٥- كمال أبو مصطفى: مالقة الإسلامية، ص ٩٥.

٦- Dozy: op. cit, pp. 132, 133

٧- هنرى بيرس: الشعر الأندلسي، ص ٣٥١.

٨- Dozy: op. cit, p88

٩- Dozy: op. cit, pp 401, 403.

١٠- عمر رضا كحالة: المرأة في عالمي العرب والإسلام، جـ ٧. ص ١٥٨، ١٥٩.

١١- الطاهر مكي: دراسات ابن حزم ص ٤٦.

وهو ثوب أو بُرد يشق في وسطه، فتلقيه المرأة في عنقها من غير كم ولا جيب، والجمع "أُتـُـوب". والبـقيرة ودرع المرأة ما قصر من الثياب، فنصف الساق، أو سراويل، بلا رجلين، أو قميص بلا كمين.(١) والوشاح هو نوع من الأحزمة العريضة المصنوعة من الجلد، والمزينة بالأحجار الكريمة ويضعها النساء في وسطهن، وكان الرجال يضعون الوشاح أحياناً،ولكن بدون زخارف.(٢)

وقد اختلف معنى الوشاح، ما بين المشرق والأندلس، ففي المشرق يعني" العصابة " وفي الأندلس يعني الحزام.(٣) والبريم هو الحبل المفتول، وتلفه المرأة حول وسطها، مثل الحزام، ويكون عادةمن لونين مختلفين، وأحياناً يزين بالجواهر مثل الوشاح.(٤)

وعرفت نساء الأندلس استعمال الفراء والجلود في ملابسهن، وخاصة أن قسوة المناخ في إسبانيا. توضح اهتمام أهلها بمثل هذه الملابس. ولهذا استخرجوا فراء السمور (حيوان مثل ابن عــرس) كما استخدموا فراء القنلية Conejo

(الأرنب الجبلي) والمرعزي المصنوع من شعر الماعز. وحيوان آخر يدعى الفــنَـــك (وهو ضرب من الثعالب، فروته أجود أنواع الفراء) إلى جانب الملابس الصوفية.(٥)

أما أفخر أنواع الثياب للنساء، ما عرف باسم الديباج، أي الحرير المطرز الذي كانت تتزين به ملوك الأعاجم. ويذكر أنه كان مضرب المثل في الفخامة والرقي.(٦) واشتهر بين أوساط نساء الأندلس اسم تسريحة للشعر تعرف بالعمرونة، وجمعها " عمارن" وانتشرت بين نساء الأندلس، وتنسب إلى مدينة شاطبة Jativa في شرق الأندلس " عمرونة شاطبية".(٧)

١- Dozy: op. cit.p 21.

٢- Dozy: op. cit. pp 447, 448.

عمر رضا كحالة: نفس المرجع. جـ ٧ ص ١٥٩.

٣- بيرس: المرجع السابق . ص ٣٥١.

٤- Dozy: op. cit. p 71.

٥- راجع أحمد مختار العبادي: الحياة الإقتصادية في المدينة الإسلامية (الصناعة والأصناف) عالم الفكر، المجلد الحادي عشر، العدد الأول. سنة ١٩٧٩؛ عمر رضا كحالة: المرأة، جـ ٧ ، ص١٥٩. الطاهر مكي: دراسات عن ابن حزم، ص٤٦.

٦- ابن عبدون: نفس المصدر. ص ٥٤، ٥٥.

ويذكر دوزي: أن الحرير أُحل للنساء من دون الرجال، إلا قدر أربع أصابع كالعلم.

Dozy: op.. cit.. p. 5.

٧- Dozy: op.. cit.. pp. 311. 312.

هذا فيما يتصل بألبسة النساء عامة. أما زي النساء المتظرفات، فكان الغلائل، والقصب الملونة والحرير.وكانت الجواري والراقصات والعازفات، يلبسن ملابس شفافة سهلة الخلع. وكان اللون الأحمر هو المفضل لديهن.[١]

أما ألبسة القدم، فقد كانت النساء تنتعلن النعال الجلدية، أو الخفاف، والنعال هي أحذية ذات كعوب، أما الخفاف فهي بدون كعوب، وكانت توجد سوق مخصصة لذلك، تسمى سوق الأخفافيين، يباع فيها أخفاف ونعال النساء. وكانت نساءِ أهل الذمة، يلبسن أحد الخفاف أسود. والآخر أبيض، حتى يتميزن عن نساء المسلمين، وكن أيضاً يلبسن الجوارب الصوفية الطويلة.[٢]

يذكر الونشريسي: أن النساء كن يمشين بنوع من النعال، يحدث صوتاً عند المشي، لجذب الأنظار. ويسمى الخفاف الصرارة، وكان المحتسب ينهي الخزازون– أي صانعي الأحذية– عن صنع تلك النعال ، فإن عملوها بعد النهي، وقع عليهم العقاب.[٣]

وكانت العروس الأندلسية، تحرص على أن يتكون جهازها من الأقمشة، التي يكون معظمها من الحرير، والقطيفة، والمخمل، وهي أفخر أنواع الأقمشة في ذلك الوقت.[٤] ومن أقمشة جهاز العرائس أيضاً الغفارة،[٥] والمحرزة، والثياب والرازى.[٦] ويذكر ابن حزم: نص غاية في الأهمية عن العروس " المُــقلة " أي الفقيرة، وكيف كانت تساعدها النساء، وخاصه المسنات " أي الكبيرات منهن " في إعارتها بعض الثياب والحلي.[٧]

ويدل هذا على أن المرأة الأندلسية العجوز، التي انقطع عنها الرجاء،لم تجلس قعيدة البيت، بل كانت تحاول أن تشارك في مجالات، إن صح التعبير " الخدمة الاجتماعية ". وقد أدت العلاقات المستمرة بين المسلمين والمسيحيين، بحكم الجوار والتداخل الحضاري، أن يستخدم كلا الجانبين الأشياء نفسها من الأقمشة والأثاث وأدوات الزينة والحلي. ولقد قام المستعربون واليهود بدور

١- بيرس: الشعر الأندلسي. ص ٣٤٢، ٣٥٤.

٢- ابن عبدون: المرجع السابق، ص ٥١. كحالة: نفس المرجع، جـ ٧، ص ١٦٠.

Dozy: op.. cit. pp. 155. 157.
Lévi Provençal: Hist. T.III. p. 324.

٣- الونشريسي: المعيار المغرب. جـ ٦ ص٤٢٠.

٤- Lévi Provençal: op. cit., T.III. p. 424.

٥- والغــفارة (بكسر الغين) غطاء للرأس وبفتحها مع تشديد الفاء، غفارة تعني عباءة

٦- ابراهيم القادري: دراسات أندلسية، ص ١٧.

Dozy: op, cit. pp. 312. 318.

٧- ابن حزم: طوق الحمامة. ص ٧٨، ٧٩.

الوسيط بين شمال إسبانيا والأندلس في الجنوب.[١] ولهذا انتقل الكثير من أسماء الملابس العربية، إلى اللغة الإسبانية. وما تزال تستعمل حتى يومنا هذا ومنها كلمة جلابية Chilaba، وقميص Camisa،وسروال Zaraguelle وغيرها.[٢]

ب- أدوات الزينة.

حث رسول الله ﷺ نساء المسلمين جميعاً على التجمل، فقال للسيدة عائشة رضي الله عنها " مالي أراك شعثاء، مرهاء، سلتاء ".[٣]

وفي قول آخر للرسول ﷺ قال إياكم والشعث، حتى لو لم يجد أحدكم إلا زيتونة فليعصرها ويدهن بها.[٤] وكانت نساء الأندلس تحرصن حرصاً كبيراً على زينتهن، بتكحيل العيون، والتخضب بالحناء، وارتداء أفضل الملابس، والتحلي بالذهب، والحلي، وخاصة في الأعياد.[٥]

ويبدو أن هناك بعض النساء، كن يفرطن في عمليه التزين إفراطاً كبيراً، إلى الحد الذي وصفه ابن حزم: بأن إفراطهن في التزين، كان يفحشهن،ولا يجملهن وفي هذا المعنى يقول:-

تزين إذا قلت، ويفحش أمرها

إذا أفرطت يوماً وهل يُحــمد الفرط[٦]

أما عن أدوات الزينة، التي تستخدمها النساء. فقد ذكر الونشريسي: بعضاً منها مثل المكاحل، والمراود الغالية، والأمشاط، والأمرية، والأنعلة، والقباقب وخرز الأمتعة، بخيوط الذهب والفضة. وكانت المراود تصنع من الفضة للإكتحال. ويحكى أن " الشيخ العوفي " صاغ لابنته مكحلة من فضة، وقال" غلبتني على ذلك أمها ".[٧] ويبدو أن بعض شيوخ وفقهاء الإسلام قد حرم استخدام تلك الأدوات، وخاصة من معدني الذهب والفضة، ورغم هذا يذكر الونشريسي: أنها كانت

١- بيرس: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ص ٢٩١.

٢- Valentin Beneitez Cantero: Vocabularia Espanol Arabe Marroqui,1949. pp. 130.

٣- ابن عبد ربه: طبائع النساء، ص ١٢٣، ١٢٤. والشعثاء التي لا تدهن. والمرهاء التي لا تكتحل، والسلتاء التي لا تختضب، أي تصبغ شعرها بالحناء.

٤- ابن عبد ربه: نفس المصدر، ص ١٢٣.

٥- هنرى بيرس: الشعر الأندلسي، ص ٢٧٧؛ كمال أبو مصطفى: مالقة الإسلامية، ص ٨٠.

٦- بيرس: نفس المرجع، ص ٢٧٧.

٧- الونشريسي: (أحمد بن يحيى الونشريسي) المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب. دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ ــ ١٩٨١م. جـ ٢ ص٥٠٢.

منتشرة كثيراً بين طبقات النساء، وكلا على حسب مقدرتهن. واستخدمت النساء أيضاً السواك للمحافظة على صحة أسنانهن. وكان يصنع من خشب عطرى، للعناية بالفم والأسنان. ويذكر بيرس أن هذه العادة، لم تكن تعرفها المجتمعات الأوروبية الغربية في ذلك الوقت.[١]

خلاصة القول: أن العطور والمراهم كانت تستخدم على نحو شائع في كل طبقات المجتمع. ويستخدمها بكثرة الرجال والنساء على حد سواء.[٢] ويذكر أويثى ميرندا Huici Miranda: أن المرأة الأندلسية كانت تهتم إهتماماً كبيراً بنظافتها، فكانت تخرج إلى الحمامات العامة بانتظام، وكانت قرطبة وحدها تضم عدداً كبيراً من حمامات النساء، الخاصة بهن فقط. وقد كان الخروج إلى الحمامات فرصة للتسلية والتسرية، والخروج عن روتين الحياة اليومية ولقاء الصديقات، والتمتع بقدر من الحرية، بعيداً عن متاعب الحياة اليومية داخل الدور.[٣]

وكانت أدوات الزينة والمراهم تباع في أسواق خاصة بالنساء. ويذكر ابن حزم: أن باب العطارين. أحد أبواب مدينة قرطبة السبعة، ويقع في الجانب الغربي منها، وكانت تقوم حوله تجارة العطور والمراهم وأدوات الزينة الخاصة بالنساء، ولذلك أصبح ملتقى النساء من كل أنحاء المدينة.[٤] وكانت هذه الاسواق بصفة خاصة تخضع لرقابة المحتسب دائما لسهولة الغش والتدليس في صناعة العطور والمراهم، وصعوبة اكتشاف هذا الغش لأنه يحتاج إلى خبرة بالأعمال الكيمائية. ويذكر أحمد بن عبد الرؤوف في رسالته للحسبة: بأن المحتسب كان يمنع خلط الحناء قديمها بجديدها. لأن القديم يضعف لونه وصبغته إذا خـُـزن مدة طويلة، وكذلك يمنع خلط المسك والزعفران والعطور البلدية بالعطور الهندية الجيدة، وإذا ضبط شئ من هذا القبيل، يصادر المضبوط، ويتصدق به.[٥]

وهناك أيضاً بعض العطارين الذين يستعملون ورق " الحُــلْــب" (وهو نبات عشبي من فصيلة القرنيات ويُؤكل ويعالج به) في تحضير الحناء، فتعطى الحناء رونقاً وخضرة جميلة ولكنها تضعف صبغتها وهذا تدليس أيضاً.[٦]

١- بيرس: نفس المرجع. ص ٢٧٧.

٢- بيرس: المرجع السابق: ص ٢٧٨.

٣- Huici Miranda "Ambrosio": Historia Musulmana de Valencia Y Su Region, Valencia. 1969 Tomo.I. pp.65.

٤- ابن حزم: طوق الحمامة. ص ٤١ هامش، رقم (٤).

٥- أحمد بن عبد الرؤوف: ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة والمحتسب (الرسالة الثانية) نشر وتحقيق ليفي بروفنسال ١٩٥٥. القاهرة. ص٧٨.

٦- ابن عبدون نفس المصدر: الرسالة الأول، ص٥٠؛ وراجع ابن عبدون: نفس المصدر. حول تحايل العطارين وغشهم، والمواد المستخدمة في غش المراهم، والكريمات، و الدهانات وغيرها، ص٤٢ وما بعدها.

وكانت أدوات الزينة في المغرب والأندلس. تعرف باسم "الطلاء". ومن أشهر من قام بالدراسة والتعمق في تلك الصناعة " إسماعيل بن يوسف الطلاء المنجم " ولقب بشيخ الطلاتين أو الكيميائيين، وهو رجل أفنى عمره في العلم والصناعة. أما العلم فهو الكيمياء، وأما الصناعة فهي مساحيق التجميل للنساء، وأتساءل هل كان يظن أحد: بأن لمساحيق التجميل الخاصة بالنساء، صناعة رائجة في القرن الثالث الهجرى.(١)

وقد تخصص إسماعيل الطلاء بصفة خاصة في مستحضرات تجميل النساء ، أي ما يختص بوسائل تجميل وجوه النساء، وتطريتها بالدهانات والعقاقير المناسبة، وهو ما يسمى في عصرنا الحديث، بالمكياج Make up.(٢)

وقد قام الطلاء المنجم بعدة جولات في المشرق، قبل أن يفر إلى الأندلس، بعد قيام الدولة الفاطمية في المغرب " مسقط رأسه "، حيث قصد قرطبة، واستقر بها في خلافة عبد الرحمن الناصر، ومنذ ذلك الوقت. انقطعت أخباره. ويذكر الأستاذ الدكتور/ ممدوح حسين: أن إسماعيل الطلاء ابتعد برغبته عن بلاط الحكام، نظراً لما عاناه في المغرب من إتهامه ظلماً بسك عملة مزيفة وهروبه إلى الأندلس، من جراء هذا الحادث، ويرجح د/ ممدوح حسين: أن الطلاء قنع بعمل مستحضرات التجميل والارتزاق من بيعها، بعيداً عن الاتصال بالأمراء، لأن الأضواء لم تكن مسلطة عليه، لعدم اتصاله بالطبقة الحاكمة، وإن كان هذا لم يمنع الكثيرين من كتاب التراجم، والطبقات، مثل الحميدي، والزبيدي وغيرهم. في الترجمة له.(٣)

ويذكر الونشريسي: بأن أشد اهتمام للمرأة بأدوات الزينة، يكون يوم عرسها فيُطلى وجهها وجسدها بأنواع معينة من الدهانات، خاصة لتلك المناسبة.(٤)

جـ- الحُلي.

تأثرت صناعة الحلي في الأندلس تأثراً كبيراً بالحلي المشرقية، وخاصة في عهد الأمير الأموى عبد الرحمن الثاني " الأوسط "، الذي فتح أبواب الأندلس أمام التجار العراقيين، وبضائعهم المختلفة التي منها الحلي وأدوات الزينة، والتي سرعان ما انتشرت بين الأندلسيين المسلمين

١- ممدوح حسين: مقال بمجلة العربي عن فن الطلاء المكياج والطلاؤون. صانعو الطلاء والمقال عن إسماعيل بن يوسف الطلاء المنجم، حياته والمناصب التي وصل إليها، وبراعته في صناعة مستحضرات التجميل.

أنظر: ممدوح حسين: مجلة العربي. العدد (٣٢٨) السنة التاسعة والعشرون) مارس ١٩٨٦. ص ١٠٦، ١٠٧ وما بعدها.

٢- ممدوح حسين: نفس المرجع: ص١٠٧.

٣- ممدوح حسين: نفس المرجع: ص١١٠.

٤- الونشريسي: المعيار المغرب، جـ ٣، ص ٢٥٢.

والمستعربين. ويروي المؤرخون في هذا الصدد: إن الأمير عبد الرحمن الأوسط. أشترى من أحد التجار، عقداً للسيدة " زيدة " زوجة هارون الرشيد، بمبلغ عشرة آلاف دينار، وأهداه لزوجة من زوجاته تسمى "الشفاء"، فعرف " بعقد الشفا " أو " بعقد الشبا " أي الملتف مثل الثعبان.وكان هذا العقد قد سُرق ضمن الأشياء الثمينة الأخرى، التي نهبت في بغداد، إبان الفتنة والحروب التي قامت بين الأمين والمأمون.(١)

ومن الطريف: إن أسطورة هذا العقد، استمرت في إسبانيا مدة طويلة، إلى ما بعد خروج المسلمين من الأندلس، عندما وضعته إحدى ملكات إسبانيا المسيحية في جيدها.(٢)

ويذكر ابن عذارى: أيضاً عن الحلي القادمة من الشرق، أن تاجراً من عدن، قدم إلى قرطبة، زمن المنصور بن أبي عامر، ومعه جواهر كثيرة وأحجار كريمة، فاشتراها منه المنصور.(٣) ويورد صاحب أخبار مجموعة: قصة تدل على مدى ما تمتعت به جاريات أمراء بني أمية، من التزين بالحلي الثمينة، فيقول: إن " هشام الرضا " جلس يوماً مع جارية له، ودخل عليه رجل يدعى " الكناني " من كورة جيان Jaen، وقد وقع عليه ظلم من أبي أيوب عامل جيان وأخاه، وذلك بأن طُلب منه بأن يشارك بدفع الدية، في قتل رجل من قبيلة أخرى، وتحمل هو ورجال قبيلته تلك الدية، لأن القاتل من قبيلتهم، فمد هشام يده إلى الجارية الجالسة بجواره، وكان عليها قلادة بمبلغ ثلاثة آلاف دينار، فأخذها منها، وأعطاها للكناني ليسد بها حاجته.(٤)

وقد بالغت نساء بني أمية في احراز الأحجار الكريمة واللآلئ النفيسة وأفخر أنواع الحُـــلي.(٥) وكانت الحلي الأندلسية، كما يذكر بروفنسال: في البداية تخضع للتأثيرات الإسبانية القوطية القديمة، إلى أن بدأ تدفق الطرق التجارية والتأثيرات العراقية. أو الإيرانية بصورة أكبر.(٦)

ولكن ما كاد يصل القرن العاشر الميلادى إلى نهايته، حتى بدأت قرطبة تحتل مكانة عالية تفوق بيزنطة في صناعة الحلي والجواهر، من عقود وخواتم ومعاصم مرصعة، وفي تزيين الجلود أيضاً.(٧)

١- ابن عذارى: البيان المغرب، جـ ٢، ص ٩١؛ عبد العزيزسالم: قرطبة حاضرة الخلافة، جـ ٢، ص ١٤٤؛ ليفي بروفنسال: تاريخ إسبانيا الإسلامية، جـ١، ص ٢٠.

Lévi Provençal: Hist, T.1. p. 264

Lévi Provençal: La Civilizacion, p. 67

٢- العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٣٩، ١٤٠.

٣- ابن عذارى: نفس المصدر، جـ ٢، ص ٤٣٥؛ سالم: نفس المرجع، جـ ٢، ص ١٤٤.

٤- راجع القصة كاملة، في مجهول: أخبار مجموعة، ص ١٢٢.

٥- عمر رضا كحالة: المرأة، جـ ٧، ص ١٦٠.

٦- Lévi Provençal: Hist. T.1. p.269.

٧- الطاهر مكي: دراسات عن ابن حزم، ص ٣٩.

وكان معظم المشتغلين بصناعة الحلي القرطبية من اليهود. وكانوا يقومون بهذه المهنة في مكان معد لذلك يعرف " بالصاغة ". وكانت الحلي تصاغ على طريقتين، إما بالإسلوب القوطي الذي ظل يحتفظ به النصارى. أو بالإسلوب المشرقي كما ذكرناه آنفاً، وعلى الأخص الطراز العراقي.[١]

ومن الأدوات التي كانت المرأة تعلق بها الحلي الخاصة بها " الحقاب " وجمعها حــقب.[٢] ومما ساعد على ازدهار صناعة الحلي في إسبانيا، وجود الكثير من الأحجار الكريمة، البالغة القيمة والتنوع والندرة. كالياقوت الأحمر ويستخرج من حصن منت مايور Monte Mayor في كورة مالقة، وحجر آخر يشبهه بناحية بجانة Pechina، وحجر اليهود، وحجر اللؤلؤ في برشلونة Barcelona، والمرجان بساحل بيرة Vera، واللازورد الجيد في لورقة Lorca، والبلور على مقربة من لورقة أيضاً ... إلخ.[٣]

وقد أورد الشعراء في قصائدهم، أسماء كثيرة لأشياء نفيسة مثل العاج والابنوس، وغير ذلك. ومن العاج على سبيل المثال صنعت " العلب العاجية " التي توضع فيها الحُــلي والعطور،[٤] والأحجار التي لم تكن موجودة في جبال الأندلس وحصونه. يبدو أنها كانت تستورد، مثل العقيق الأحمر، و الزمرد (أو الزبرجد)، و الفيروز الأزرق.[٥]

ومن أشهر أنواع الحلي الأندلسية، الخواتم بفص، أو بدون، والعقود والأقراط التي تحلي الأذن والجبهة، والسوار. والخلاخيل. والتيجان، والدلايات الذهبية المرصعة. وكانت محلات الصاغة الكبرى تتركز في مدينتين هما قرطبة وإشبيلية. ويشير ابن حزم إلى مهارة الصياغ، الذين يميزون بدقة بين الذهب الخالص والذهب المُشرب بالفضة.[٦]

ومع إزدهار صناعة الحلي، إزدهرت أيضاً صناعة العلب العاجية المُطعمة والمرصعة، لوضع الحلي بداخلها. وكانت هذه العلب تصنع خصيصاً لجواري الخلفاء، وزوجاقم لصيانة حليهن وعطرهن.[٧]

١- سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، جـــ ٢، ص ١٤٤.

٢- Dozy: Noms des Vêtements, p.143.

٣- للمزيد من التفاصيل حول تلك الأحجار، وأماكن تواجدها في الأندلس. راجع: هنرى بيرس: الشعر الأندلسي، ص ٢٨٧؛ بروفنسال: تاريخ إسبانيا الإسلامية، ص ١٧٧.

٤- بيرس: نفس المرجع، ص ٢٨٨، ٢٨٩.

٥- بيرس: نفس المرجع: ص ٢٨٧، ٢٨٨؛ عبد العزيز ســالم: قرطبة حضارة الخلافة. جـــ ٢، ص ١٤٤.

٦- بيرس: نفس المرجع، ص ٢٨١.

٧- عبد العزيز سالم: دائرة معارف الشعب. العدد (٦٤)، ص١٨٢.

ومن أروع أمثلة هذه الصناعة التي اختصت بها مدينة الزهراء، صندوقان من العاج. صنعا بأمر من الخليفة الحكم المستنصر بالله في سنة ٣٥٥هـ للسيدة " صبح " أم هشام المؤيد ولى العهد، وما زالا إلى اليوم، الأول في متحف بلنسية بمدريد، والثاني في كنيسة نبرة Navarra. والصندوق الأخير يحمل اسم صانعه وهو " دُرى الصغير " وهو فتى صقلبي.(١)

د- العطــور.

اهتم الأندلسيون أيضاً بالعطور. وكانت تصنع لها قوارير خاصة محكمة الصنعة.(٢) وكثيراً ما نرى في قصائد الشعراء الأندلسيين. إشارات إلى العطور وخاصة الأكثر انتشاراً في الأندلس مثل السوسن Azucena الذي يحتوى على الخلوق. وهو ضرب من العطر المزعفر Azafaran. والعنبر Anbar الرمادي، وزهرة النسرين وهي تشبه العنبر في رائحتها النفاذة والورود والزعفران، وورد البنفسج، والأقحوان، والخُشخاش، وهي زهرة فيها نقاط سوداء تشبه المسك في رائحتها، والمسك Almizcle وهو نوع من العطور أسود اللون، وشقائق النعمان وغيرها، وإن كان المسك هو المسيطر ويالحاح على مزاج الأندلسيين.(٣)

وعطر آخر يسمى " رشح البان " مخلوطاً مع ماء الورد، يستخدمونه للتندية بعد تناول وجبات الطعام.(٤) وهذه العطور تشهد: بأن للأندلسيين، ذوقاً خاصاً قوياً يميل إليها ويتذوق رائحتها.(٥)

وكانوا يلقون بالعطور على الفحم المشتعل، حتى تؤثر فيهم بقوة،وكانت تلك العطور تحفظ في سلال صغيرة من الجلد تسمى " جُـــونة".(٦)

١- سالم: قرطبة، جـ ٢، ص ١٣٢، ١٣٣؛ سالم: دائرة معارف الشعب، العدد (٦٤). ص ١٨٢. ١٨٣.

ويذكر بيرس أن تلك العلب العاجية أطلق عليها اسم (حُـق) أو مخزنة.

انظر بيرس: نفس المرجع. ص ٢٨٠.

٢- عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، جـ ٢، ص ١٤٩.

٣- هنرى بيرس: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ص ٢٨٧.

٤- سالم: نفس المرجع. جـ ٢، ص ١٤٩.

٥- بيرس: نفس المرجع، ص ٢٨٠، ٢٨١.

٦- بيرس: نفس المرجع ص ٢٧٩، ٢٨٠.

سادساً: الزواج والطلاق:

قبل أن نخوض في موضوعي الزواج والطلاق،وما يتبعهما من اتفاقات ومشاكل أحياناً.نود أن نشير إلى أن المجتمع الأندلسي.كان تواقاً للحب بطبيعته. وقد أخذ الحب عنده أبعاداً أخرى،غير التي عرفناها في الشرق فالعلاقة بين الرجل والمرأة.كانت أكثر حيوية وحرية وعلانية وصراحة، ويرجع بعض المستشرقين أمثال البورنث Albornoz.أن الحب في الأندلس.مرتبط إلى حد بعيد بالمفهوم الغربي.بل ويرجع إلى جذور مسيحية. وأنه يساير روح العصر الذي نما وترعرع فيه، وأن الحب في الأندلس مختلف تماماً عما عرف باسم " الحب العذري " في الشرق، وأن الحب الأندلسي يبتعد عن الحب المرتبط بالخضوع الذي عرفه المشارقة. ويؤيد بيرس Peres رأي البورنث Albornoz في أن هذا الحب جذوره غربية إسبانية مسيحية.[١]

وأبرز قصص الحب الأندلسية، والتي تناولت العلاقات بين الرجال والنساء عرفناها من خلال "طوق الحمامة". ومؤلفه الفقيه الأندلسي ابن حزم. كان في غاية الصراحة مع نفسه عندما نقل تلك القصص، فنراه تارة يذكر أسماء أصحابها، وتارة أخرى لا يذكر أسماء أصحابها، إما لمكانتهم، أو خوفاً من أن يلحق بهم ضرر لو صرح علانية بأسمائهم. ومن تلك القصص، قصة وفاء أخيه أبي بكر لزوجته حتى بعد وفاتها.[٢]

وقصة الشاعر المعروف بالرمادي، مع الجارية "خلوة "، والتي خلدها في أشعاره. وترجع أهمية تلك القصة. في أنها تدلنا على قلة حجاب النساء الأندلسيات. وخاصة الجواري، وخروجهن وحدهن. فتلك الجارية عندما قابلها شاعرنا كانت بمفردها. بل ووقفت معه، وتبادلت معه حديثا طويلاً، مما يؤيد رأينا في سهولة حجاب المرأة الأندلسية.[٣] ويروى ابن حزم: أيضاً قصة وفاء أخرى: من إمرأة أندلسية لزوجها. وهي قصة بنت زكريا بن يحيى. وكان عمها قاضي الجماعة، والتي كانت متزوجة من يحيى بن محمد بن يحيى بن إسحاق. ومات بعد مدة قصيرة معها، فبلغ من حزنها وجزعها عليه. أن باتت ليلة موته معه في دثار واحد. وجعلته آخر صلة لها بعالم الرجال، إلى أن ماتت أسفاً عليه.[٤] وكما رأينا، فالقصة الأولى لجارية، وهي قصة خلوة مع الشاعر الرمادي.وهي قصة بنت زكريا بن يحيى التميمي. فهكذا الحب عند الأندلسيين لم يكن وقفاً على فئة معينة. بل كانت تعرفه جميع الفئات، والطبقات. وقصص" الطوق "كثيرة في هذا الشأن، ولم تكن المبادأة دائما من جانب الرجل.

١- Pièrre Guichard: Structures Sociales. p. 171.

٢- راجع القصة كامنة في، ابن حزم: طوق الحمامة، ص ٣٠٢؛ صلاح خالص: إشبيلية، ص ٩٦.

٣- راجع القصة كاملة. أيضاً في ابن حزم: نفس المصدر. ص ٤٠، ٤١، ٤٢

٤- ابن حزم: نفس المصدر، ص ٩٥، ٩٦.

فقد أورد ابن حزم قصصاً صريحة. كانت البداية فيها من المرأة، أي أنها هي التي تعلن حبها للرجل، ومن ذلك ما قاله عن جاريه اشتد وجدها بفتى من ابناء الرؤساء، وهو لا يعلم بذلك ولا يحس به، فشكت حبها إلى إمرأة تثق بها، فنصحتها أن تحاول ذكر حبها له بالشعر، ففعلت ولم يجدى ذلك معه أيضاً، إلى أن جمعتهما ليلة منفردين، فقد كانا قد نشئا معاً من البداية. وكان الفتى عفيفاً متصاوناً، فقامت إليه وقبلته في فمه،ثم ولت ولم تنبس بكلمة، فكان ذلك كما يقول ابن حزم:بدء الحب بينهما، فلم ينم ليلته.ولا غمض له عيناً بعدها.[١] وحول هذا المعنى أيضاً، جاءت قصة عبد الرحمن بن هشام " المستظرف بالله "،الذي أحب ابنة عمه،وكانت تدعى " حبيبة "، ابنة سليمان المستعين. ويبدو أن أمها رفضت هذه العلاقة، فلم يجد أمامه غير الشعر، الذي صب عليه جام غضبه ولوعته.[٢]

أما أجمل تعريف للحب فهو ما ذكره ابن حزم في بداية " الطوق " فيقول: " الحب أعزك الله، أوله هزل– وآخره جد– دقت معانيه لجلالتها، عن أن توصف فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناه. وليس بمنكر في الديانة، ولا بمحظور في الشريعة،إذ القلوب بيد الله عز وجل... الخ.[٣] ولم تقف قصص "طوق الحمامة " عند هذا الحد، بل وردت قصصاً كثيرة أخرى، أخشى إن ذكرها، كلها أكون قد أطلت في هذا الموضوع، وإن كان في رأيي، أن موضوع الحب، والعلاقة بين الرجل والمرأة في الأندلس،من أهم الموضوعات الإجتماعية،التي تبرز لنا أشياء كثيرة، وخاصة في مجال الحياة الاجتماعية، ومدى توثق هذه العلاقة بين كافة الأطراف.[٤]

ونلاحظ.أن الشعراء الأندلسيين نادراً ما يصورون الحبيبة العارية في أشعارهم. فجسد المرأة في الأندلس، كان له حرمته وجلاله وتقديره، والشاعر الأندلسي كان يفضل جسداً مستوراً يغذي الخيال بمزيد من أحلام اليقظة، على لحمٍ عارٍ تلتهمه الأنظار! وتفتن روح الإسباني المسلم ملابس إمرأة شفافة، تتيح له أن يكتشف تناسق جسمها، ولابد أن صبر الشاعر قد نفذ تماماً من تحشم حبيبته حتى يقول لها:–

١- القصة في " طوق الحمامة" أطول كثيرا مما ذكرتها. وقد حاولت اختصارها. دون الإخلال بمغزاها أنظر ابن حزم: نفس المصدر، ص ٩٢.

٢– ابن الآبار: الحلة السيراء، جـ ٢، ص ١٣؛ بيرس: الشعر الأندلسي، ص ٣٧٣.

٣- ابن حزم: المصدر السابق، ص ١٩. ويورد ابن حزم بعد هذه المقدمة عن الحب،قصص لبعض أمراء بني امية، ويوضح مدى حبهم لنسائهم وجواريهم.

٤- للمزيد من التفاصيل راجع:– ابن حزم: نفس المصدر، ص ٤٣؛ هنرى بيرس: المرجع السابق، ص ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٦٠، ٣٦١.

وقد نقل بيرس قصصاً من الطوق، وأضاف إليها رأيه، حول حرية المرأة الأندلسية، وتناول المرأة من خلال أشعار الشعراء الأندلسيين

إنزعى الوَشْى فهو يستر حُسْناً

لم تحزه برقْمِهن الثيــــــابُ

ودعيني عســـى أُقبل ثــغــراً

لذ فيه اللمُي وطاب الرضَابُ

وعجيبٌ أن تَجريـــنى ظــلماً

وشفيعي إلى صِباكِ الشـــبابُ.(١)

ومما لاشك فيه أن المرأة الأندلسية، لم تكن هي الجارية الرقيقة التي تخضع لكل نزوات سيدها. وكان من العادي جداً بين جمهرة الحرفيين، أو الفلاحين،أن ترى النساء دون خمار،وفي أشد الحالات تمسكاً، نجدها تغطي رأسها بحجاب، وتترك وجهها مكشوفاً. (٢)

الزو اج .

أما عن الزواج فقد حض الإسلام عليه وشجعه،وهناك أحاديث كثيرة عن الرسول ﷺ،تحض على النكاح.فعن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: " النكاح رق فلينظر أحدكم من يرق كريمته"وقول الرسول ﷺ "من سنتنا النكاح".(٣) وفي عصر ما قبل الإسلام وبدايته،كان الزواج مشافهة.فلم يعرف العرب عقود الزواج المكتوبة.وكان الزواج يتفق عليه بين ولي الزوجة،وكان في الغالب والدها وبين وكيل الزوج.وكان في الغالب والده.ويؤكد الأستاذ الدكتور/أحمد الشامي،على عدم العثور على أي عقود زواج إسلامية مكتوبة في فترة صدر الإسلام.(٤)

ويذكر جيشار:أن الإسلام لم يستطع أن يقضى على الزواج القبلي– أي الزواج الداخلي– في نطاق القبيلة الواحدة، رغم ما جاء من أحاديث تحث على الزواج البعيد عن نطاق القبيلة،لما فيه من ميزات من ناحية تحسين الجنس والسلالة. ونرى الإسلام أيضاً حرم زواج الأقارب من الدرجة الأولى، كالأختين مثلاً في ذمة رجل واحد، وفي آن واحد.(٥) والحقيقة أن رأي جيشار هذا صواب إلى حد بعيد في مراحل الإسلام الأولى، وقبل أن يتوسع هذا التوسع الكبير الذي أصبح من

١- بيرس: المرجع السابق، ص ٣٥٤.

٢- بيرس: نفس المرجع : ص ٣٤٩، ٣٥٠.

٣- ابن عبد ربه: طبائع النساء، ص ٢٢.

٤- أحمد الشامي: التطور التاريخي لعقود الزواج في الإسلام "دراسة مقارنة"،جامعة الزقازيق ١٩٩٢، ص ١٢، ١٣.

٥- Guichard- op. cit. p. 75.

الصعب معه المحافظة. على الزواج داخل نطاق القبيلة. وضربنا مثلاً لذلك بالمجتمع الأندلسي. وأقدم عقد زواج وصل إلينا يرجع إلى نهاية القرن الثاني الهجرى.[١]

ورغم التغيرات التي طرأت على عقود الزواج،على مر العصور الإسلامية، إلا أن مضمونها ظل واحداً، وهو الإيجاب والقبول.[٢]

أما عن عقود الزواج الأندلسية بصفة خاصة،فيتضح من الوثائق الأندلسية أن عقد الزواج. كان يبدأ بالبسملة والصلاة على رسول الله وبيان أهمية النكاح بالإسترشاد بآية من القرآن الكريم. ثم اسم الزوج واسم الزوجة،ووالدها وهل هي بكر أم ثيب؟ ومقدار الصداق الذي قبضه والد الزوجة.... إلخ.[٣]

ولا يتم الزواج إلا بولي وصداق وشهود، وأقل الصداق عند مالك ربع دينار. ولا يجوز نكاح بصداق مجهول. ويفسخ قبل البناء. ويجعل الصداق إلى أجل معلوم.[٤] وبعد الإتفاق على المهر والترتيبات الأخرى، تتم كتابة العقد. وقد استحدث لهذا الغرض خطة تسمى خطة المناكح. لتزويج المرأة التي غاب عنها وليها، أو من لا ولي لها، واشترط ابن عبدون: أن لا تسند هذه الخطة إلا لرجل ورع.

وقد تولاها في قرطبة زيدون بن محمد المخزومي.[٥] وشروط عقد الزواج لابد أن تكون واضحة وملزمة للطرفين، ولا يلتزم إحداهما بعد الزواج بشروط لم تدون في عقد الزواج، وأجرة قاضي المناكح كما ذكر الونشريسي تكون على الزوجين، أو أحداهما حسب الظروف.[٦]

أما عقد زواج المسلم الأندلسي بالمرأة الكتابية، فلا يختلف عن عقد زواج المسلمة. فإن كان لها ولي ذكر في العقد، وإن لم يكن لها ولى،عقد نكاحها أساقفة أهل دينها، إلا أن التشريعات الفقهية حرصت على ألا يعقد نكاح المسيحية أو اليهودية أمير أو ولي مسلم، فأولياؤها أحق بالعقد، إلا أن

١- الشامي: نفس المرجع، ص ١٤.

٢- الشامي: المرجع السابق، ص ١٦.

٣- كمال أبو مصطفى: مالقة الإسلامية، ص ٦٠.

وللمزيد عن شروط عقود الزواج راجع ، كمال ابو مصطفى: نفس المرجع، ص ٦١.

٤- ابن عبد الرؤوف: ثلاث رسائل أندلسية " الرسالة الثانية "، ص ٨٠.

٥- إبراهيم القادري: مجلة دراسات أندلسية، مقال عن ظاهرة الزواج في الأندلس، تونس. العدد التاسع. يناير ١٩٩٣م، ص ١٧، ١٨.

٦- الونشريسي: المعيار المغرب. جـ ٣. ص ١١٠، ١١١، ١١٥، ١١٦.

يرفضوا. فيعقد نكاحها الأمير.[١] وقد عرف الأندلسيون الخاطبة. وكانت أمور الزواج عادة لا تبدأ إلا بالخطبة. وتتولى إحدى الخاطبات هذه المهمة مبينة صفات وحسنات كل من الرجل والمرأة. وأحياناً يقوم بهذا الدور الأصدقاء. وقد اعتبر الأندلسيون يوم الجمعة اليوم المفضل لهذه المناسبة.[٢] ويذكر الخشني: أن هناك رجالاً أندلسيين كانوا يصرون على رؤية زوجاتهم،في فترة الخطبة. وقبل البناء بهن والعقد عليهن.[٣]

وقد كان من حق الفتاة المخطوبة، أن ترث خاطبها، إذا كانت هذه الخطبة قد تمت برضاء وقبول الطرفين، الخطيب ووالد الزوجة، والنكاح عقد شفاهة وبدون عقد، ولكن هذا الكلام الذي تم بين الطرفين، لابد أن يكون عليه شهود ومات الخاطب قبل الدخول، ترثه ويرثها هو أيضاً.[٤]

وقد أورد ابن عبد الملك : في الذيل والتكملة. ما يفيد بأن والد العروس أحياناً عندما يجد رجلاً صالحاً يخطبه لابنته، دون حرج، ومثال ذلك ما ذكره عن أسماء بنت داود، مولى أمير المؤمنين هشام المؤيد بن الحكم المستنصر بالله، وهي من مدينة بلنسية، وقد زوجها أبوها من أحمد بن محرز فتى كان يقرأ عليه، وذلك لما وجده فيه من فضل وعقل، فأعجبه فقال له يوماً: أتحب أن أزوجك ابنتي؟ فخجل الفتى وذكر له حاجته في ذلك، فزوجها منه ونذر لها داراً وزفها إليه.[٥]

وقد ساد في الأندلس ما يعرف بزواج المتعة، الذي وجد فيه بعض طلبة العلم وسيلة لتجنب الزنا، وكان الزوجان يتفقان معاً ويحددان مدته حسب رغبتهما، ويعقد عقد الزواج في هذه الحالة دون ولي المرأة، ولم يتجاوز المهر في هذا النوع نصف درهم، حسبما تبينه بعض النصوص.[٦]

وإن كان بعض الفقهاء مثـــل ابن رشد، أفتى بعدم جوازه شرعاً ووجوب إقامة الحد عليه، غير أن الواقع العياني جاوز المحاذير الفقهية.[٧] ويرجع تحريم زواج المتعة،إلى أنه لا ميراث فيه ولا عدة ولا وفاة ولا طلاق.[٨]

١- ابراهيم القادري: نفس المرجع، ص ١٩.

٢- ابراهيم القادري: نفس المرجع، ص ١٥ ليفي بروفنسال: ثلاث رسائل في الحسبة، ص ٧٩.

٣- الخشني: قضاة قرطبة، ص ١٨.

٤- الونشريسي: المصدر السابق، جـ ٣، ص ١٦٨.

٥- ابن عبد الملك: الذيل والتكملة، جـ ٢، ص ٤٤٨ ترجمة رقم (٢٣٦).

٦- القادري: دراسات أندلسية، ص ١٩.

٧- ابن عبد الرؤوف: ثلاث رسائل في الحسبة، الرسالة الثانية، ص ٨١.

٨- ابن عبد الرؤوف: نفس المصدر والصفحة.

ومن خلال دراستي لهذا الموضوع. اتضح لي أن شروط المرأة في عقود الزواج،كانت أكثر بكثير من شروط الرجل.إن لم نقل أن الرجل ليس له شروط، وربما يرجع ذلك إلى خوف المرأة من تلاعب الزوج بها بعد الزواج،أو لأن الطلاق حق مطلق في يد الرجل، فأرادت أن تضع عليه بعض الشروط حماية لها. ومن أهم شروط المرأة مثلاً أن تكون " العصمة" في يدها،أي تتملك المرأة أمرها، ولها حرية تطليق نفسها.(١) وقد اختلفت عقود الزواج الأندلسية بعض الشئ عن عقود الزواج الأخرى في بقية العالم الإسلامي، وخاصة في المشرق، واتضح ذلك من خلال الدراسة التي قام بها هادي روجيه إدريس " H.R. Idris "، عن عقود الزواج، والتي أوردها جيشار في كتابه " الحياة الاجتماعية في الأندلس.(٢)

فقد وصل الأمر أحياناً إلى اشتراط الزوجة على زوجها عدم زواجه أو تسريه بالسراري عليها، وخاصة إذا كانت من الأوساط الأرستقراطية، بل أكثر من ذلك إذا فعل ذلك وأخل بالشرط الموجود في العقد تكون الداخلة عليها طالقة. كما اشترطت عليه في عقد نكاحها، بعدم ضربها، وأن تتصرف فيما تملك وعدم تدخل الزوج في مالها إلا برضاها وموافقتها، فإذا شاءت في مالها باعت وإن شاءت وهبت وتصدقت، وأن يسمح لها بزيارة بيت أهلها، وأن يزورها أهلها في بيتها وإن أخل بشرط من هذه الشروط يكون أمرها بيدها.(٣)

ومن شروطها أيضاً ألا يغيب عنها غيبة متصلة، أكثرمن ستة أشهر،إلا إذا كان يؤدى فريضة الحج عن نفسه. وضرورة إتقانه لصنعة أو حرفة حتى تضمن بها عيش العائلة.(٤) وكانت الزوجة أحياناً، إذا تزوجت بزوج على قدر من الثراء، تشترط عليه في عقد نكاحها، أن يقدم لها خادمة تساعدها في أعباء المنزل.(٥)

وكانت المرأة صاحبة الرأي في زواجها. ويحدثنا "الطوق " عن جارية جميلة كانت لسعيد بن منذر، صاحب الصلاة في جامع قرطبة، على أيام الحكم المستنصر. أحبها وتعلق بها، وعرض عليها أن يعتقها ويتزوجها، فطلبت منه ساخرة أن يتخفف من لحيته. وكانت طويلة لأنها تستبشع

١- أحمد الشامي: عقود الزواج ص ٢٥. صلاح خالص: إشبيلية، ص ٩٦.

٢- Guichard: Op. cit. p.129.

٣- أحمد الشامي: نفس المرجع، ص ٢٧. صلاح خالص: نفس المرجع، ص ٩٦؛ القادري: دراسات أندلسية، ص ١٨. كمال أبو مصطفى: مالقة، ص ٦١ .

وللمزيد حول شروط المرأة الأندلسية في عقود الزواج راجع:-

كمال أبو مصطفى: نفس المرجع، ص ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤.

٤- القادري: نفس المرجع، ص ١٥.

٥- Lévi Provençal: Hist. T.III. p. 400.

ضخامتها، فاعمل فيها "الجلمين "، على حد تعبير ابن حزم، حتى لطفت، ثم دعا بجماعة أشهدهم على عتقها، وحين خطبها لنفسه، لم ترض به. وكان في جملة من حضر أخوه "حكم بن منذر"، فأسر إلى واحد في المجلس أن يعرض عليها رغبته في خطبتها لنفسه،فرضيت به وتزوجته في ذلك المجلس بعينه. وكرهت قرطبة هذا الموقف من الحكم على نسكه وورعه واجتهاده،ولكن الجارية أنفذت رأيها، وما كانت تستطيع، لو لم يكن ذلك حقاً مقرراً لها. ولن ينالها أي أذى في استعمال هذا الحق.[١]

وعن "عائشة بنت أحمد القرطبية "، يحكى المقري: أنه خطبها بعض الرجال والشعراء، ولم ترض عن أحد منهم، وكتبت تقول:-

أنا لبـؤة ولكنني لا أرتضي

نفسي مناخاً طول عمري من أحـد

لو أنني أختار ذلك لم أجب

كـلباً وقـد غلقت سمعي عن أسـد[٢]

وعن نزهون بنت القلاعى الغرناطية، رفضت رجلاً قبيحاً تقدم إليها، ولم يستهويها، وكتبت إليه شعراً تهجوه فيه،[٣] وقد أشترط الونشريسي: لصحة الزواج، أن تسمع موافقة المرأة علانية، وإلا ستكون مصية تحل بالزوج والزوجة ووليها، إذا غـصبت أو أكرهت المرأة على الزواج بدون موافقتها وإذنها.[٤] والفتاة البكر اليتيمة،لا تزوج إلا بأذنها وإذنها صمتها، فحين تسأل عن رأيها، فإن صمتت زوجت، وإن أنكرت بالقول أو بالبكاء أو ما يظهر عليها ما يدل على الرفض، لم تزوج.[٥]

أما عن تعدد الزوجات، فقد قيدته الشريعة بأربع زوجات، وأباحته لضرورات، أحصاها فقهاء الشريعة، ووضعت شروطاً له، من أهمها كما ذكر ابن عبد الرؤوف، المساواة في الملبس، والطعام، والمبيت، وعدم تفضيل واحدة على الأخرى، إلا مالا يستطيع العدل فيه، مثل الجماع، والمحبة، ورغم كل هذه الشروط نجد الإسلام يحث على الاكتفاء بواحدة، ويتضح ذلك في قوله تعالى: ﴿ وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾.[٦]

١- ابن حزم: طوق الحمامة، ص ٧١، ٧٢؛ الطاهر مكي: دراسات عن ابن حزم، ص ٢٧٢.

٢- المقري: نفح الطيب، جـ ٤، ص ٢٩٠.

٣- القادري: دراسات أندلسية، ص ١٥.

٤- الونشريسي: المعيار المغرب، جـ ٣، ص ١٣٠، ١٣١.

٥- ابن عبد الرؤوف: رسالة في الحسبة، الرسالة الثانية، ص ٨٠؛ الونشريسي: نفس المصدر، جـ ٣، ص ١٣٦، ١٦٩، ٢٥٣.

٦- ابن عبد الرؤوف: نفس المصدر. الرسالة الثانية، ص ٨٣؛ الشامي: عقود الزواج في الإسلام. ص٩.

وكان المحتسب يأمر الرجل،إذا كانت له ابنتان،ألا يزوج الكبيرة على أنها الصغيرة،أو العكس. وإذا كانت إحداهن أجمل من الأخرى، فلا يزوج الأقل جمالاً على أنها الأخرى.[١] والجدير بالذكر هنا. أن تدخل الأمهات في أمور الزواج، كان كثيراً، وخاصة في نقاط المهر والصداق.[٢] ويقص علينا ابن حزم قصة حول تدخل الأمهات، وهي قصة أم يحيى بن محمد، إلى حد أن منعته من الزواج بجارية، وهو قرطبي من أصل عريق، فباعت الجارية، حتى تمنعها عنه على غير إرادته. وذهبت إلى تزويجه من إحدى العامريات، حتى أصيب بالجنون.[٣]

أما عن حفلات الزواج. فقد كانت من الأحداث الهامة، التي يحتفي بها الإسبان المسلمون، إحتفاءاً شديداً. فقد كانت العروس تخرج من بيت أهلها، إلى بيت زوجها، مرتدية ثوباً خاصاً لهذه المناسبة، ومشهد الحفل يكون مثار إعجاب المدعوين. ويتكلف بيت العروس نفقات طائلة، مما أدى إلى شن حملة قوية من الفقهاء على ذلك النمط، وتشغل حفلات الزواج إسبوعاً كاملاً، وقد ترك لنا ابن حزم في " الطوق " وصفاً لحفل جرت العادة على عمله بشوارع قرطبة، وبه عدد كبير من المارة، والفارغين عن العمل، وما أكثرهم بقرطبة.[٤]

وكانت هذه الأعراس، تنحر فيها الذبائح، وتدق الطبول، وتعزف المزامير وتكون فرصة لالتقاء النساء الفساق، بالرجال، فيشربون الخمر. وكان هذا كله موضع استكار من الفقهاء.[٥] ولم يمنع الفقهاء اظهار الابتهاج والفرحة بالعرس تأسياً بسنة الرسول، أن يضربوا بالدف في الأفراح،ولكن ما منعوه،هو الاسراف في اللهو والفجور.[٦]

ويعتبر الأندلسيون الليلة التي تسبق عيد النيروز (أي عيد الربيع وهو في شهر مارس) أنسب وقت للإحتفال بالدخلة والعرس.[٧] وهناك بعض الرجال لم يجدوا حرجاً في الزواج بالمرأة الثيب، طمعاً في أموالها، أو مكانتها الاجتماعية،[٨] بعد التغالي في المهور، الذي نظروا إليه على أنه " شبح " بسبب تكاليفه الباهظة،التي دفعت البعض إلى العزوف عنه،وتفضيل حياة العزوبية خوفاً مما يفرضه

١- ابن عبد الرؤوف: المصدر السابق، ص ٨٢.

٢- Guichard: op, cit, p. 129.

٣- الطاهر مكي: دراسات عن ابن حزم، ص ٢٧٠، ٢٧١.

٤- بيرس: الشعر الأندلسي، ص ٢٦٤، ٢٦٥؛ الطاهر مكي: نفس المصدر، ص ٤٢، ٤٣.

٥- الونشريسي: المعيار المغرب، جـ ٣، ص ٢٥٠، ٢٥١.

٦- الونشريسي: نفس المصدر، جـ ٦، ص ٤١٧.

٧- بيرس: الشعر الأندلسي، ص ٢٧١.

٨- القادري: دراسات أندلسية، ص ١٢.

الزواج من واجبات، ومسئوليات جسيمة. فيشير ابن قزمان في أزجاله، إلى شخص تكبد في زواجه تكاليف باهظة، جعلته يعاهد نفسه بعدم معاودة التجربة مرة ثانية.[١]

وكان الرجل الأندلسي يفضل التسري على الزواج، نظراً لوفرة الإماء والجواري. ففي أيام المنصور بن أبي عامر، تغالى الناس في مهور بناتهم، وما يجهزونهم به من الثياب والحلي والدُور، فعزف الناس عن الزواج بالتسري.[٢]

وفي هذا المعنى يذكر المقري: أن محمد بن أفلح، غلام الحكم المستنصر، ضاق بجهاز ابنته، وحُمل مالا يطيق، حتى لم يبق معه سوى لجام محلى بالذهب، فذهب به إلى المنصور بن أبي عامر. وكان صاحب دار ضرب العملة في ذلك الوقت، وأعلمه بحاجته،فأعطاه دراهم وزن اللجام بحديده وسيوره. ففرح فرحاً عظيماً، وكاد لا يصدق ما حدث له،من كرم المنصور معه، حتى أنه قال عنه، لو حملني على خلع طاعة مولاي الحكم لفعلت. ويبدو أنه كان في ضائقة شديدة، حتى يقول هذا الكلام الخطير.[٣] وكلمة مهر كلمة حبشية قديمة، ومعناها الثمن.[٤]

ومن المؤكد أن قيمة المهر، اختلفت حسب موقع العائلات في الهرم الاجتماعي. فتحدثنا كتب الفتاوى والنوازل، حول ما يسوقه الرجل لزوجته أحياناً " قرية بكاملها " وأحياناً أخرى نصف ما يملكه وأحياناً ما يملكه كله .

وأحياناً يشترط أن ما يستجد بينهما بعد الزواج يكون مناصفة بينهما.[٥] وكان الأب يهب ابنته بعض الهدايا والدور في جهازها، والبعض الآخر يخرج لها الهدايا على سبيل التفاخر والتباهي أمام الناس،على أن ترد مرة أخرى بعد إتمام الزواج. وكتب الفتاوى مليئة بتلك العادة الأندلسية، التي أحدثت في بعض الأحيان الكثير من المشاكل، لطمع الزوج أحياناً فيما بين يديه، وعدم اعترافه برد تلك الأشياء التي أخرجها الأب على سبيل التباهي والتفاخر، وليس ملكاً خالصاً أو هبة لا ترد.[٦]

١- القادري: نفس المرجع، ص ٩، ١٠، ١١.

٢- العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢٥٠.

٣- المقري: نفح الطيب، جـ ٣، ص ٨٨.

٤- أحمد الشامي: عقود الزواج، ص ٢٣، ٢٤.

وحول معنى المهر في القرآن الكريم. راجع أحمد الشامي:نفس المرجع، ص ٢٣ وما بعدها.

٥- الونشريسي: المعيار المغرب، جـ ٣، ص ١١٧، ١٤٥، جـ ٦ ص ٧٨.

٦- الونشريسي: المرجع السابق، جـ ٣، ص ١٢٢، ١٢٣، ١٢٥، ١٢٦، جـ ٦، ص ٧٧.

وقد كانت الهدية التي توهب للعروس من قبل أهلها يحاسب عنها الزوج، بل وتورث عنها في حالة وفاتها بعد الزواج.[١] وكان من حق الزوج أن يستمتع بجهاز الزوجة، التي جهزت به من أموال الصداق، أو المهر فقط، فكان من حقه أن يستمتع بالأبسطة والأفرشة التي أحضرتها الزوجة معها من هذا المال.[٢]

وكان الزوج بعد الدخول بزوجته،إذا وجد بها عيبا،يخير بين أمرين،إما أن يمسك بها أو يطلقها.[٣] ولم تكن كل الزيجات تسير دائماً على ما يرام، فقد ذكر بيرس:أن الشعر لم يصمت،وأمدنا بأبيات توضح ما كان يحدث من مشاحنات ومشاجرات بين الازواج،كانت تؤدى في كثير من الأحيان إلى الطلاق.[٤]

وقبل أن أتحدث عن موضوع الطلاق، أود أن أشير إلى شئ توصلت إليه من خلال دراستي لهذا الموضوع، وهو ما يمكن أن نطلق عليه " الزواج السياسي " أي زواج المصلحة، وتحقيق مآرب سياسية، أو مناصب من وراء إتمام تلك الزيجات، وخاصة بين الطبقات الحاكمة.

وكانت أولى هذه الزيجات،ذلك العرض الذي تلقاه" عبد الرحمن بن معاوية الداخل " لحظة دخوله الأندلس من يوسف الفهري بتزويجه ابنته " أم موسى"، وذلك لمحاولة يوسف ضمه إليه خوفاً من شعبيته الكبيرة، والتي كانت تزداد يوماً بعد يوم، وخوفاً من هروب الأمر والحكم من بيد يديه،ومحاولةِ لاستخلاص الأمر لنفسه في إمارة الأندلس. ولكن عبد الرحمن بن معاوية تنبه لتلك المحاولة من جانب يوسف، ورفض تلك الزيجة ولم تتم.[٥]

أما الزيجة الأخرى، فهي زواج أسماء بنت غالب من المنصور بن أبي عامر. فقد كان المنصور على عداء شديد مع الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي، لأمر من أمور الدولة.[٦] وأخذ جعفر يتقرب إلى غالب بن عبد الرحمن والد أسماء وقائد الجيوش، فخطب ابنته لابنه عثمان. وفطن ابن أبي عامر إلى ما يدبر له من جعفر المصحفي بتلك الزيجة، ومصاهرة قائد الجيوش، وكادت تلك السياسة أن تؤتى ثمرها. ولكن ابن أبي عامر، حال دون إتمام تلك المصاهرة، ودفع أهل القصر،

١- الونشريسي: نفس المصدر. جـ ٣، ص ١٦٧.

٢- الونشريسي: نفس المصدر. جـ ٣، ص ١١٦، ١١٧، جـ ٦، ص ٤٢٩، ٤٣٠.

٣- الونشريسي: نفس المصدر، جـ ٣، ص ١٦٦، ١٦٨؛ ابن عبد الرؤوف: رسالة في الحسبة. الرسالة الثانية، ص ٨١.

٤- بيرس: الشعر الأندلسي. ص٢٦٥.

٥- مجهول: أخبار مجموعة. ص ٧، ٧١؛ ابن عذارى: البيان المغرب، جـ ٢، ص ٤٣، ٤٥.

Dozy: Histoire, T.I. p. 264. 265.

٦- انظر أسباب الصراع. العبادي: في تاريخ المغرب، ص ٢٤٤.

وعلى رأسهم " صبح " أم الخليفة هشام المؤيد بالتوسط في مخاطبة غالب بالموافقة عليه. ونجح في فسخ تلك المصاهرة، ووافق غالب على خطبته لابنته، وعقد عليها في محرم سنة ٣٦٧هـ ـ ٩٧٨م. وبتلك المصاهرة تم أمره، وعز جانبه، بل واستطاع أن يقضي على المصحفي، وأوعز إلى الخليفة باستصدار أمر بعزل المصحفي، وزج به في السجن، وقضى بذلك على أهم خصومه السياسيين.[١]

ومن تلك المصاهرات أيضاً، زواج الوزير عيسى بن سعيد من أخت عبد الملك المظفر بن أبي عامر الصغرى، وإحدى بنات المنصور. وقد أخذت أمور الوزير بعد هذا الزواج، تتناهي في الجلالة والعظمة، وأخذته الألسنة على حد تعبير ابن بسام، أي أصبح مشهوراً.[٢]

وتزوج أيضاً المظفر عبد الملك بن أبي عامر بواجد بنت رجل من الجنائين أحبهما حتي حمله حبها علي زوجها رغم الفوارق الشاسعة بينهما .[٣]

(٢) الطلاق.

أما عن الطلاق، فيبدو أن المرأة الأندلسية، من نص أوردة المقري في النفح، لم تقف مكتوفة الأيدى حياله. ولم تكن دائماً ترضى بالأمر الواقع، وتسلم به. ويقول المقري:" إن إمرأة رفعت إلى أبي جعفر الشقورى، وكان جالساً في مجلس حكمة،بأنها تحب مطلقها،وتبتغى الشفاعة لها في ردها إليه، فتناول الرقعة منها، ووقع عليها بالشفاعة لها في ردها إلى زوجها، وذلك تأسيا بشفاعة الرسول ﷺ لُبريرة في مُغيث."[٤]

ويتضح من وثائق الطلاق الأندلسية، أنها تبدأ بذكر " اختلاع " أي طلاق الزوج لزوجته، ويذكر اسم الزوج والزوجة، وأحياناً كانت المطلقة تبرئ زوجها (طليقها) من نفقة العدة، ومؤخر الصداق،نظير أن يتنازل لها عن حضانة الابناء أو البنات. وكان الأب يقوم بالإنفاق على ابنائه أو بناته، إلى أن تسقط النفقة بزواج البنات، وتختم وثيقة الطلاق بذكر " أسماء الشهود. ثم تؤرخ باليوم والشهر والسنة.[٥]

١- ابن عذارى: المرجع السابق، جـ ٢، ص ٢٦٧ وأنظر كذلك عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم. ص ٣٣٠.

Dozy: op. cit. T.II. p.216.

٢- ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مجلد (١)، ص ١٢٤.

٣- ابن حزم: طوق الحمامة، ص ١٩، ٢٠.

٤- المقري: نفح الطيب، جـ ٥، ص ٣٨٦.بُريرة جارية عائشة ومُغيث زوجها،فلما أُعتقت بريرة وهو ما يزال على الرق،اختارت مفارقته،فجاء إلى النبي يبكي.ويسأله أن يشفع له عندها.

٥- كمال أبو مصطفى: مالقة الاسلامية، ص ٦٩ . هامش رقم (١).

أما عن الأسباب الموجبة للطلاق، فقد أوردت بعض كتب "الفتاوى" ما كان يوجب على المرآة خاصة طلب الطلاق من زوجها، عكس الرجل الذي كان حقه مطلقاً، ولا يحتاج إلى أسباب للطلاق، وفي بعض الأحيان كان يأبي الرجل طلاق زوجته، فكانت تلجأ إلى القاضي تشكو إليه،وكان القاضي في كثير من الأحيان، وخاصة إذا إقتنع بشكواها، يساعدها على الانفصال عن زوجها.

وقد أورد الخشني: في هذا الموضوع قصة عن القاضي سعيد بن سليمان الغافقي. وقد جلس بين يديه رجل وزوجته متنازعان، وتريد الزوجة الطلاق وتصر عليه، والزوج يراودها في دفع ثمناً لطلاقها، وهي لا تملك شيئاً تدفعه له وتفتدي نفسها منه ، فراوده القاضي في أن يدفع له فديه مقابل طلاقها وتصير عليه ، والزوج يروادها في دفع ثمناً لطلاقها فرضي وكان القاضي لديه " شُقة"بيضاء أي جبة وهي شئ مثل العباءة يلبسها في الشتاء يحميه من البرد وكان قد صنعها له أهل بيته فأستغني عنها في سبيل حل النزاع وإعطاء تلك المرأة حريتها لما رآه من تمسكها بالطلاق بل وصل الأمر إلي التهديد بقتل نفسها امام القاضي إذا لم يطلقا منه [١].

ومن الأسباب الأخرى التي توجب طلاق المرأة، ويأخذ بها القاضي، أن تكون كارهة لزوجها، وأيضاً كما ذكر الونشريسي في المعيار: تطلق المرأة من الزوج الذي يغتصب أموالها بدون إذنها ورضاها، فلها في هذا الحالة أن تطلب الطلاق، فإن رفض الزوج طلاقها فإثمها في عنقه، أي ذنبها في رقبته، ولها أن تلجأ إلى القاضي.[٢]

ومن الأسباب الموجبة لطلاق المرأة أيضاً، إذا أساء زوجها معاملتها بالسب، أو بالضرب، أو كانت تسكن معه في حاضرة، وتشكو منه قلة النفقة، رغم ثرائه، ورغبت في أن تلجأ إلى قوم صالحين هروباً منه، ومن معاملته، في هذه الحالة يطلب القاضي إيداعها عند قوم آمنين حتى يتعهد الزوج بتغيير معاملته لها، أو تطلق منه. وتوضع المرأة مع نساء مثلها، وليس مع رجال حفاظاً عليها حتى تحل مشكلتها.[٣] وكان يلجأ إلى هذا الحل حماية للمرأة، وخاصة إذا كانت غير ميسورة ويخاف عليها من الضياع، لعدم وجود عائل لها، أو مورد رزق.

وتطلق المرأة أيضاً، إذا عرضها زوجها للفجور والفسق من أجل جلب مزيد من المال. وعند ذلك تلجأ إلى القاضي: الذي يتأكد من صحة شكواها، وفساد زوجها، وعدم أمانته عليها، وأنه غير ميسور، ولذلك يعرضها دون رضاها للفساد، فيحكم القاضي بتطليقها.[٤]

١- الخشني: قضاة قرطبة، ص ٦٣، ٦٤.

٢- الونشريسي: المعيار المغرب، جـ ٦، ص ١٤٨.

٣- الونشريسي: نفس المصدر، جـ ٣، ص ١٣١.

٤- الونشريسي: نفس المصدر، جـ ٢، ص ٤٣٢، ٤٣٣.

والمرأة التي تفقد زوجها لمدة عام في أرض الإسلام أو الحرب،ولم تتحقق حياته من مماته،كانت تقوم برفع مشكلتها إلى القاضي، الذي كان يقوم بدوره بالتثبت من حضور المفقود " أي الزوج " في صف القتال أو غيابه وانقطاع أخباره. فإذا تأكد من ذلك أجله سنة عن يوم يثبت ذلك عنده. فإذا تمت السنة ولم يسمع له خبر " أعتدت الزوجة " أي أوفت عدمًا وقسم ماله بين ورثته وجاز لأمرأته الزواج بعد أربع سنوات من فقدانه.(١) وفي حالة رجوع الزوج بعد كل الإجراءات السابقة من قِبل القاضي تبرأ المرأة من أي إتهام يوجه إليها وخاصة إذا كانت قد تزوجت بغيره، وتبقى مع زوجها الثاني لعدم توافر سوء النية من جانبها.(٢)

ومما سبق يتضح لنا أن المرأة الأندلسية مثل أية إمرأة مسلمة طُبقت عليها القواعد والقوانين الشرعية الإسلامية، لتعطيها الحق في طلب الطلاق من زوجها إذا أحست أن هذا الزواج سيقدم لها ضرراً مادياً أو معنوياً.

١- كمال أبو مصطفى: مالقة الإسلامية، ص ٦٨.

٢- الونشريسي: المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٣٠. ٤٣١.

الفصل الثاني.

دور المرأة في المجال السياسي في الأندلس.

أولاً: تأثير أمهات الأولاد على الولاة والأمراء والخلفاء في عصر الدولة الأموية.

(أ) أيلة أو إيخلونا والأمير عبد العزيز بن موسى.

مارست الجواري أمهات الأولاد نفوذاً كبيراً في الحياة السياسية.(١) فكثيراً ما كانت تحدث في البلاط مآسي وروايات ومهازل وتدبر فيه الدسائس، وتنظم المؤامرات بين رجال البلاط ورجال الدولة. وكثيراً ما كانت تشترك النساء في تلك المؤامرات،(٢) بطريق مباشر أو غير مباشر. وكان الطريق الثاني أكثر شيوعاً واستخداماً لدى الجواري، لما فيه من سهولة، وقليل من العناء.(٣) ومن أوائل تلك المؤمرات. ومع بدايات الفتح الإسلامي للأندلس. نذكر ما حدث لوالى الأندلس عبد العزيز بن موسى بن نصير، الذي خلف والده على إمارة الأندلس. بعد رجوعه إلى المشرق. وقام بجليل الأعمال في تثبيت دعائم السيادة الإسلامية في شبه جزيرة أيبريا واستكمال فتحها والقضاء

---

١ - الطاهر أحمد مكي: دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة. الطبعة الثالثة. دار المعارف. ١٩٨١ م. ص ١٩.

٢- عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس. ص ١٦١ ؛ أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٦٤.

٣- عمر رضا كحالة: المرأة في عالمي العرب والإسلام. سلسلة بحوث إجتماعية. الطبعة الثانية. مؤسسة الرسالة. القاهرة ١٩٨١ م. جـ٦، ص ٦١.

على الكثير من الثورات.[١] فكان أول من نظم البلاد من الناحية الادارية. ومهد لنقل الإسبان إلى الاستعراب، ضارباً المثل الأول بزواجه من قوطية.[٢]

فقد تزوج عبد العزيز بن موسى من إيخلونا "Egilona"، أرملة الملك لزريق، وتطلق عليها المصادر العربية اسم أيلة "Aila". أما المصادر الإسبانية فتسميها Egilona أو Egilon.[٣]

ويذكر الأستاذ/ ليفي بروفنسال Lévi Provençal: أن هذه الأميرة من المحتمل أن تكون قد أسلمت، ودانت بالديانة الإسلامية، حتى ولو ظاهرياً. ومن المحتمل أيضاً أنها بعد أن تزوجت عبد العزيز، أنجبت منه فتى أسمته " عاصم " بدليل أنها حملت لقباً جديداً في المصادر العربية وهو " أم عاصم" نسبة إلى ابنها من زوجها الجديد.[٤]

وقد عاش معها عبد العزيز مدة ولايته في إشبيلية Sevilla. التي كانت العاصمة السياسية للأندلس في ذلك الوقت. قبل نقلها إلى قرطبة Cordoba. في عهد أمراء بني أمية. واتخذ سكنه معها في جزء من كنيسة " سانتا روفينا" Santa Rufina. وتنطق باللغة الإسبانية Rabina، والتي تحولت فيما بعد إلى مسجد.[٥]

ولقد حمّلت الكثير من المصادر العربية، تلك الأميرة. مسئولية اغتيال عبد العزيز بن موسى على يد اتباعه. فيجمع ابن عبد الحكم وابن عذارى والمقري، في نقل تلك الأحداث. بنفس التفاصيل دون أدنى اختلاف: حول قصة زواج عبد العزيز من إيخلونا. والتي كانت قد صالحت بعد الفتح على نفسها وأموالها، وباءت بالجزية، وأقامت على دينها في ظل نعمتها.

ويبدو أنها كانت على درجة كبيرة من الجمال والذكاء، بحيث استطاعت أن تفتن زوجها، وتملك زمامه. فقد أقنعته بوضع تاج فوق رأسه، تشبهاً بملوك النصارى، رغم أنه عارضها في البداية قائلاً لها: ليس في ديننا استحلال لباسه فقالت له: إن الملوك إذا لم يتوجوا فلا ملك لهم، فهل لي أن أعمل لك مما بقي عندى من الجوهر والذهب تاجاً؟ ولن يعرف أتباعك ما أنت عليه في خلوتك، ولم تزل به حتى فعل.

١- السيد عبد العزيزسالم: دائرة معارف الشعب. عدد(٦١)، ص ٦.

٢- عبد العزيزسالم: تاريخ المسلمين وآثارهم. ص ١١٥؛ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس. العصر الأول، القسم الأول ص ٧١.

٣- Sánchez Albornoz: La Espana Musulmana. T.I, p. 53.
Lévi Provençal: Histoire de L'Espagne Musulmane. T.I. p.33.

٤- Provencal: op. cit, tl, p33

٥- Ibid: p 33. Albornoz: op. cit. T.I. p. 53.

وبينما هو ذات يوم جالس، والتاج على رأسه، دخلت عليهم إمرأة. كان قد تزوجها زياد بن النابغة التميمي. وكانت هي أيضاً من بنات النصارى، فرأته والتاج على رأسه. فلما عادت لبيتها قالت لزياد، ألا أعمل لك تاجاً؟ فقال: ليس في ديننا استحلال لباسه.فقالت:" ودين المسيح"إنه لعلى إمامكم ، فأعلن ذلك زياد بن حبيب،إلى أبي عبيدة بن عقبة بن نافع،وتحدثا به مع خيار الجند، فلم تكن لهم همة من هذا الوقت،إلا كشف ذلك،حتى رأوه عياناً وصدقاً،فقالوا تنصر، ثم هجموا عليه وقتلوه.

وهناك رواية ثانية قيلت في أسباب مقتل عبد العزيز بن موسى،وهي أنه اتخذ باباً صغيراً أمام مجلسه،حتى ينحني كل من يدخل عليه دون أن يشعر الداخل بأنه ينحني،وجعل لإيخلونا مجلساً تنظر منه إلى الناس،إذا دخلوا عليه وتراهم من موقعها دون أن يروها.فلما رأتهم ينحنون أمام عبد العزيز،ظنت أنهم يسجدون له،فقالت له:الآن قوي ملكك،وبلغ الناس ما أراده عبد العزيز من وراء فتح هذا الباب الصغير. فثار أتباعه ومن معهم من العامة، ووثبوا عليه وقتلوه.[١]

ويخرج لنا الأستاذ الدكتور/حسين مؤنس،من أحداث القصة الأولى بمعلومة جديدة حول الألفة والمحبة،التي سادت بيوتات الأندلس عقب تزوجهم من الإسبانيات.وعرفنا ذلك من خلال قصة التزاور"أي تبادل الزيارات العائلية " والتي رأت فيها زوجة زياد بن النابغة عبد العزيز،واضعاً التاج على رأسه في خلوته.[٢]

وأود أن أضيف هنا بأنه ربما كانت إيخلونا على صلة قرابة بزوجة زياد وخاصة أن كلتاهما مسيحية إسبانية،وعلى صلة وثيقة بحيث تدخل عليهم،بل، وتصل،وبدون حرج إلى عبد العزيز في خلوته مع زوجته.

لقد كانت تلك الحادثة هي الجريمة السياسية الأولى في الأندلس، على حد تعبير المستشرق الإسباني/البورنث Albornoz،[٣] وكالعادة انقسم المؤرخون المستشرقون. ما بين مؤيد ومعارض

١– حول أسباب مقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير. راجع القصتين السابقتين بالتفصيل في:

ابن عبد الحكم: (عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم) فتوح إفريقية والأندلس، بيروت ١٩٦٤، ص ٨٤،٨٥؛

ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ٢، ص٢٣. ٢٤. وما يليهما؛ المقري: نفح الطيب، جـ ١، ص ٢٨١.

واختلفت الرواية العربية فقط. حول صلة إيخلونا بلزريق الملك القوطي. الذي قتل إبان الفتح العربي لإسبانيا مباشرة، فيذكر ابن عبد الحكم وابن عذارى: أن تلك الأميرة كانت ابنته،أما المقري فيقول: أنها زوجته وهو الرأي الأرجح، والذي أخذ به الكثير من المؤرخين المعاصرين.

عبد العزيزسالم: تاريخ المسلمين وآثارهم، ص ١١٣، ١١٤؛ العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٨٥.

٢– حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص ٤٢٠، ٤٢١.

٣– Sanchez Albornoz: La Espana Musulmana. Tomo I., p. 53.

لتلك الأحداث. ومن أبرز المؤيدين الفرنسي/ليفي بروفنسال،والذي يضيف، بأن هذه الأميرة أسلمت ظاهرياً، لكي تستطيع أن تصل إلى مكانة أفضل لدى زوجها، وتعوض بما ما فقدته من مجدها القديم.[١] ويرى المستشرق الإسباني/أجوادو بليي "Aguado Bleye" أن اغتيال عبد العزيز جاء نتيجة اتباعه الاعمى لاقتراحات زوجته ، التي فرضت عليه أن يتحدى جميع المحيطين به ، رغبة منه في إرضائها.[٢] ويؤيد جيشار الرأي السابق أيضاً حول إنصياع عبد العزيز،وتنفيذه لطلبات زوجته،دون إدراك للعواقب، والتذمر الذي حدث في الجيش.وكان من نتيجته أن قرر القادة قتله، بل والتمثيل به،وإرسال رأسه إلى دمشق،للخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك[٣].

عارض البورنث الرواية العربية حول مقتل عبد العزيز، بل والأكثر من ذلك أنه شكك في مقدَرة مؤرخي إسبانيا الإسلامية، وعدم توخيهم الحذر والدقة في نقل الأحداث الحقيقية. ويضيف:بأنهم دائما يبالغون وينقلون غير الحقائق. أما عن رأيه في قصة مقتل عبد العزيز،فيرجعها في المقام الأول لأسباب سياسية لا علاقة لها بزواجه من إيخلونا،ويقول: إن الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك،خاف من انتقام عبد العزيز بن موسى،وتمرده عليه،بأن ينفصل بإسبانيا، ويأخذ بثأر أبيه،نتيجة لما وصله من المعاملة السيئة التي لاقاها أبوه في المشرق، فأرسل الخليفة سليمان إلى شبه الجزيرة الأيبيرية،مجموعة من رؤساء العرب، لكي يغتالوا عبد العزيزفي كنيسة سانتا روفينا Santa Rofina،وذلك في مارس ٧١٦ م.[٤]

ومن خلال استعراضنا لتلك الآراء،التي أثيرت حول مقتل عبد العزيز، يتضح لنا:أن يد القـصاص ربما عبثت كثيراً بالأحداث الفعلية،كعادة المؤرخين المسلمين.في نقل الأحداث، وإضفاء المزيد من الخيال والأسطورة إليها.

فقد تكون تلك الأحداث وقعت بالفعل. ولكن ليس لدرجة أن يصبح عبد العزيز بن موسى ألعوبة في يد زوجته، مهما بلغ جمالها وذكائها.

فمن المعروف أن عبد العزيز رجل مسلم، آثاره واضحة،وإنجازاته كثيرة خلال الفترة التي تولى فيها حكم الأندلس. وإن كان زواجه بأرملة لزريق قد أوجد فيه القول. وسمح لاعدائه بفتح ثغرة عليه. وفي رأيي أنهم دخلوا له وقضوا عليه من خلال تلك المسألة التي ضخموا أحداثها، وأعطوها أكبر من قدرها.

١- Provençal: Histoire de l'Espagne musulmana. T.I, p. 33.

٢- Aguado Bleye: Manuel de la Historia de España, Madrid, 1947 Tomo I, p 400.

٣- Guichard: Structures Sociales. paris. 1977. p. 106.

٤- Albornoz: La Espana. T.I. p. 53.
العبادي:في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٨٥؛ عبد الله عنان: دولة الاسلام، العصر الأول، القسم الأول ص ٧٢.

أما نفي اليورنث لتلك الأحداث برمتها، بل واتهامه للمؤرخين المسلمين بأنهم مصدر غير موثوق فيه. فمعروف عن اليورنث تعصبه الشديد للعنصر الإسباني. ولا يستطيع أن يقف صامتاً،أمام إقحام إمرأة إسبانية في مؤامرة كهذه، وتحميلها نتيجة تلك الأحداث.التي أجمعت عليها الكثير من المصادر العربية. وفي النهاية نستطيع أن نقول:إن تلك الأحداث وقعت بالفعل، ولكن ليست بالدرجة التي صورتها المصادر العربية، والأرجح إتخاذ الخليفة الأموى ذريعة من تلك الأحداث،لإبعاد عبد العزيزعن حكم الأندلس.

ب- سارة القوطية.

ومن النساء اللآتي لعبن دوراً كبيراً في مجال الحياة السياسية في إسبانيا الأميرة،" سارة القوطية " Sara La Goda. وأفضل تعريف لنا بسارة، ما أورده حفيدها عنها، واشتهر في التاريخ الأندلسي بنسبه إليها وهو الفقيه المؤرخ أبو بكر محمد المعروف " بابن القوطية " [١] صاحب كتاب تاريخ افتتاح الأندلس.[٢] وكتاب الأفعال.[٣] ولقد أورد ابن القوطية: قصة حياة جدته سارة بالتفصيل في كتابه الأول. وملخصها أن عمها أرطباس Ardabast بسط يده على ضياعها وأملاكها،هي وأخويها الصغيرين،عقب وفاة أبيهم، فتوجهت سارة بأخويها إلى الشام.[٤]

ثم نزلت بعسقلان،حتى قصدت باب الخليفة هشام بن عبد الملك بدمشق، فأنهت خبرها إليه،والعهد المنعقد لأبيها على يد الوليد"الخليفة السابق"، وتظلمت من عمها. ورأت في ذلك الحين عبد الرحمن بن معاوية صبياً،بين يدى جده الخليفة.[٥]

فكتب لها هشام إلى حنظلة بن صفوان الكلبي، عامله على إفريقية، بإنفاذ عهد الوليد بن عبد الملك. وأمر بذلك عامله حسام بن ضرار الكلبي، فتم لها ذلك. وأهم ما خرجت به سارة من تلك الرحلة. كما ذكر ابن القوطية:زواجها من القائد العربي عيسى بن مزاحم، الذي قدم معها إلى الأندلس. وقبض ضياعها " أي أعطته أملاكها" كما كانت عادة القوط، بل وعادة الإسبان إلى

١- Nykl: Hispano Arabic Poetry. Baltimore. 1946. p.44.

٢- نشره العالم الإسباني جاينجوس P. De Gayangos وترجمه إلى الإسبانية المستشرق الإسباني Ribera أنظر الدراسة النقدية للمصادر.

٣- نشره المستشرق الإيطالى إجناسيو جويدى Ignacio Guidi.

٤- ابن خلكان: وفيات الأعيان، تحقيق الدكتور/ احسان عباس، بيروت ١٩٧٨م، جـ٤، ص ٣٧٠، ٣٧١.

٥- وظل عبد الرحمن الداخل فيما بعد يحفظ لها ذلك.فكانت إذا آتت قرطبة أذن لها بدخول القصر بدون استئذان. كغيرها ومقابلة. أهل بيته.

اليوم. رغم أن الإسلام، أقر الذمة المالية المنفصلة للزوجة. فهي لها حرية التصرف في ما لها كيف تشاء، أن تمنح، أو أن تمنع.[١]

ويضيف البورنث:أنها أعطته أيضاً أموالها القوطية Visigatica Corona، ولعلها اسم عملة ذهبية أو فضية. كانت تعرف باسم التاج أو الدرهم القوطي الغربي.*[٢] ثم توفي عيسى، في العام الذي دخل فيه عبد الرحمن بن معاوية الأندلس، بعد أن أنجب منها ولدين هما ابنهيم وإسحاق. ويذكر الأستاذ الدكتور أحمد مختار العبادي أنهما أدركا شرف الرياسة. والجاه في إشبيلية قاعدة المولدين، ومن سلالة هؤلاء، جاء مؤرخنا المذكور أبو بكر بن القوطية.

وبعد ذلك تنافس عليها بعض رجال عبد الرحمن بن معاوية "الداخل "، وفاز بها عُمير بن سعيد، الذي أنجبت له حبيب بن عمير، جد بني سيد، وبني حجاج، وبني مسلمة، وبني حجز الجرز. وكانوا أشراف ولد عمير بإشبيلية. وكان عمير له أولاد من غيرها، ولكن لم يشرفوا مثل ابنائها، على حد تعبير ابن القوطية.[٣]

وقد طالت حياة سارة.كما رأينا،حتى إنها حضرت أيام الأميرعبد الرحمن بن معاوية، بل إنه كان السبب في زواجها الثاني. فقد تدخل بشكل مباشر في إتمام تلك الزيجة.وكما رأينا،فقد أثرت سارة في الحياة السياسية،بتلك الزيجات من رجال مسلمين،بل ومشرقيين.فزوجها الأول، تزوجته في المشرق.

وكانت هي السبب المباشر لدخوله الأندلس، بعد اقترانها به. وترجع أهمية زيجات سارة، في أن كثيراً من المؤرخين. يعتبرونها البداية الحقيقية لاختلاط الجنس العربي، بالجنس الإسباني، والذي نتج عنه إخراج هذا العنصر الجديد في المجتمع الأندلسي. والذي عــرف بطبقة المولدين.[٤]

١- ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٣١، ٣٢؛ المقري: نفح الطيب، جـ ١، ص ٢٦٦، ٢٦؛ أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٣٣٨.

Guichard: op, cit, p. 142. Albómoz: La Espana. Tomo I, p. 67.

٢- Albornoz: op, cit, T.I. p. 66.

* اسم لعملة قوطية، تختلف باختلاف العصور. وخاصة في القيمة. أنظر:-

* Corona Visigatica
Corriente " Federico": Diccionario Espanol – Arabe. *
Madrid, 1977, pp. 118. 470.

٣- ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٣٢؛ المقري: نفح الطيب، جـ ١، ص ٢٦٧؛ العبادي: الإسلام في أرض الأندلس، ص ٦٣.

Albornoz: op. cit. T.I. p. 68.

٤- راجع طبقة المولدين، ص ٦٦.

جـ- عجب والحكم " الربضي".

وقد لعبت"عجب"دوراً هاماً في بلاط أمراء بني أمية،وفي قيادة دفة الحكم.فهي تعتبر إحدى شهيرات النساء القرطبيات،في عصر الأمير الحكم بن هشام"الربضي"،وقد بلغ من حبه لها وولهه بها،أن أنشأ لها منية خاصة بها حملت إسمها،كما حصلت على قدر كبير من التعليم،والتفقه في الدين،والعلوم الأدبية،واللغوية.[1]

ويورد لنا الخشني:قصة في كتابه"قضاة قرطبة"، نخرج منها بأن تلك المرأة تمتعت بمكانة فريدة،في عصر مولاها الحكم"الربضي".وابنه عبد الرحمن بن الحكم"الأوسط"من بعده.فقد تسببت في عزل القاضي محمد بن زياد عن القضاء،وذلك لمجاملته لها ومحاباته لابن اخيها الذي تلفظ بألفاظ .

مهينة للإسلام. وبلغ هذا الكلام الأمير عبد الرحمن الأوسط،الذي أمر بالقبض عليه، وحبسه، فتوسطت له " عجب " لدي الأمير، اعتماداً على مكانتها من أبيه راجية الشفاعة لابن اخيها، فقال لها عبد الرحمن. نــحكم القضاء، فيما فعله، وأحضر فقهاء المدينة،وعلى رأسهم القاضي محمد بن زياد المذكور،فأفتى الجميع بقتله،ما عدا القاضي محمد بن زياد،وفطن عبد الرحمن إلى أن " عجب " توصلت إلى القاضي، حتى يدلي بتلك الشهادة، التي تبعد ابن اخيها عن القتل، فما كان من عبد الرحمن الأوسط، إلا أن أبعده عن القضاء.[2]

د- طروب في عهد عبد الرحمن الأوسط وسطوها.

ولنا مع طروب وقفة طويلة،إذ لم تحظ جارية إسبانية بتلك الشهرة والمكانة التي حظيت بها"طروب".فهي واحدة من الجواري" الشماليات القادمات من بلاد الإفرنج،في جنوب فرنسا،أو من مقاطعات قطالونية،والباسك، والبشكنس Vascos،وجليقية Galicia.وهؤلاء الجواري بصفة عامة،كان لهن حظوة كبيرة في قرطبة،لأهن بيضاوات البشرة،شقراوات الشعر،زرقاوات العيون،ومن بينهن كان الأمراء،يختارون غشيقاهم المدللات.[3]

ولقد كان لهؤلاء الجواري دور كبير في بلاط قرطبة، وخاصة حين يحالف إحداهن الحظ،وتنجب لسيدها ولداً فتترقى بذلك إلى منزلة أرفع، ويطلق عليها لفظ "أم ولد".أي تتساوى مع الحرة.أو كما يقول بروفنسال: تحمل اسم " الأميرة الأم ". والتي عادة ما كانت تتمتع بعد وفاة

---

١ - حمدى عبد المنعم حسين: مجتمع قرطبة في عصر الدولة الأموية. رسالة دكتوراه، نوقشت بآداب الإسكندرية، سنة ١٩٨٤، ص ٢٩٨.

٢ - الخشني: قضاة قرطبة. ص ٥٩. ٦٠؛ حمدى عبد المنعم: مجتمع قرطبة. ص ٢٩٨، ٢٩٩.

٣ - حمدى عبد المنعم: نفس المرجع، ص ٢٩٩.

مالكها،بالحرية وبكل ثروته الشخصية.[١] وقد كان للحاكم رجال معينون،ومكلفون باختيار الحرم الخاص بالأمير، وكانوا يتصفون بالخبرة في هذا المجال. وقد كانوا حريصين على اختيار أحسن العناصر،تبعاً لرغبة ومزاج وليهم.[٢]

ويهمنا هنا الحديث بصفة خاصة عن عبد الرحمن الأوسط،وجاريته طروب.ولقد صور لنا جميع المؤرخين،عبد الرحمن كصائد نساء في المقام الأول،ودليلهم على ذلك كثرة ابنائه.فكان لديه ما لا يقل عن ٤٥ ابن و ٤٢ ابنة. وكان دائما يتمسك في تسريه بالمرأة العذراء.وكان أيضاً حريصاً على معرفة جذور ونسب جارياته،وأصولهن وحتى تاريخ عائلاتهن.[٣]ورغم كثرة أسماء جاريات الأمير عبد الرحمن الأوسط،إلا أن إحداهن قفز اسمها،واحتلت مكانة بارزة في سطور المؤرخين،وهي "طروب". وكانت بشكنسية من نبــرة Navarra ذات جمال بارع. وكان عبد الرحمن شديد التعلق بها.[٤] وقد سُبيت وهي صغيرة، وأرسلت إلى المدينة، ثم عادت إلى إسبانيا مرة أخرى، وهي متسلحة بحصيلة كبيرة من الأغاني، والأشعار، التي جعلتها تملك زمام إسبانيا العربية، عن طريق التحكم في حاكمها الأمير عبد الرحمن الأوسط.[٥]

وكانت طروب أحب نساء عبد الرحمن إليه، وأعظمهن سلطانا عليه. كما يقول ابن الآبار، في الحلة السيراء. ورغم ذلك كانت أقلهن وفاءً له.[٦] وترك لنا الأمير عبد الرحمن الأوسط، شعراً كثيراً، يفيض بالحب والعذوبة، يتغزل به في طروب، ويوضح مدى حبه وتقديره لها. ويقول المقري: كان يوماً في بعض أسفاره، واشتاق إليها، وجاءه خيالها، وهو يشرب وينادم، عبد الله بن الشمر فقال مرتجلاً:-

شاقــك من قرطبــة الساري

في الليل لم يدرى به لــداري

فأجازه ابن الشمر قائلاً:-

زار وحيا في ظــلام الدُجــى

أحبب به من زائــر ســاري[٧]

١- Lévi Provençal: Hist., T.I, p.67.

Lévi Provençal: La Civilizacion Arabe en España, p.72.

٢- Provençal: Hist., T.I, p.267.

٣- Provençal: Hist, T.I, p. 267.

٤- عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس، ص ١٠٥.

٥- Lévi Provençal: La Civilizacion. P. 72.

٦- ابن الآبار: الحلة السيراء، جــ ١، ص ١١٤ هامش رقم (١).

Dozy: Historia de los Musulmanes de Espana. T.I, pp.388, 389.

٧- المقري: نفح الطيب، جــ٣، ص٦١٣.

ومرة أخرى خرج في إحدى غزواته إلى جليقية. وطالب غيبته عنها فكتب إليها:-

فقدتُ الهوى مذ فقدتُ الحبيبا

فمـــا أقـــطع الـــيـــل إلا نحيبا

وإذا بدت لى شـــمسُ النـــهار

طالعةً ذكَرتنيَ طـــــروُبا(١)

وكان من عادة نساء القصر،أن يتنافسن طمعاً في العرش لأولادهن. وكانت طروب تريد العرش لابنها عبد الله، ولكنه ليس أكبر ابناء الأمير عبد الرحمن سناً. وكانت تفعل المستحيل،لاستمالة العامة والخاصة لولدها. وكانت تجمع ما تستطيع من أموال الأمير لتلك المهمة. أي مساندة ولدها بتلك الأموال، بل وصل الأمر بها إلى شدة الطمع والتغالي،في ابتزاز الأمير،إعتماداً على مكانتها منه.

فقد أورد لنا الكثير من المؤرخين،تلك القصة التي تدل على مدى بزخ الأميرعبد الرحمن الأوسط،وإسرافه عليها،وإغداقه عليها بالمال،فقد غضبت منه يوما،وأبدت هجرانها له،وامتنعت عنه،وأغلقت عليها بابها. فأمر بنيان الباب عليها بالخرائط "،أي الحقائب أو الصرر"المملؤة بالدراهم،إسترضاءً لها واستعطافاً لوصلها، فلما فتحت الباب، وتساقطت عليها الدراهم من كل جانب فالفتها نحو عشرين ألفاً.

ومرة أخرى، أمر لها بعقد قيمته عشرة آلاف دينار، فجعل بعض من حضر مجلسه يعظم هذا الأمر " أي أنه إسراف وكثير في أن يدفع هذا المبلغ في عقد " فقال عبد الرحمن، ويحك: إن لابسه أنفس منه خطراً، وأرفع قدراً، ولئن راق من هذه الحصباء منظرها، فلقد برأ الله من خلقه جوهرا يغشى الأبصار.

وهل على هذه الأرض، أحسن من وجه أكمل الله فيه الحسن،ونظرته،وألقى عليه الجمال، بهجته؟!(٢) وأنشد فيها شعراً.(٣)

١- ابن الآبـــار: الحلة السيراء، جـــ ١، ص ١١٤؛ ابن ســـعيـــد: (علي بن موسى بن سعيد المغربي) المُغرب في حُـــلى المَغرب، حققه الأستاذ الدكتور/ شوقي ضيف، القاهرة ١٩٥٥م ، جـــ ١، ص ٤٦، ٤٧؛ المقري: نفح الطيب، جـــ ١، ص ٣٤٩؛ وراجع باقي القصيدة في ابن الآبار: نفس المصدر، جـــ ١، ص ١١٥.

٢- مجـــهـــول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، تحقيق الأستاذ/ابراهيم الإبياري، الطبعة الأولى ١٩٨١م ، ص ١٢٣؛ ابن عذارى: البيان المغرب، جـــ ٢، ص ٩٢؛ المقـــري: المصدر السابق، جـــ ١، من ٣٤٩، ٣٥٠؛ عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس، ص ١٠٦؛ عبد العزيزسالم: قرطبة حاضرة الخلافة، جـــ ٢، ص ١٤٤، ١٤٥.

٣- راجع تلك القصيدة في:- ابن عذارى: نفس المصدر، جـــ ٢، ص ٩٢؛ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الأول، ص ٢٧٨.

Adolfo Federico de schack: *Poesia y Arte de los Arabes en Espana y Sicilia*, Mexico. 1944, p. 78.

وقد كان أكبر أولاده. والمرشح لولاية العهد من بعده ابنه محمد. ولم تذكر لنا المصادر.أو المراجع اسم " أمه "، كل ما نعرفه عنها أنها توفيت بعد ولادته على الأغلب.لأن التي تولت تربيته وإرضاعه جارية أخرى.من جواري عبد الرحمن تدعى " الشفاء"،وكانت جميلة، تقية، عاقلة. خرجت مع زوجها الأمير في إحدى غزواته،فأصابها المرض، وماتت وهي في طريق العودة إلى قرطبة، ودفنت في قرية قريبة من طليطلة Toledo.[١]

ويبدو أن فراسة طروب كانت في محلها،من حيث ميل الأمير عبد الرحمن الأوسط،إلى ابنه الأمير محمد،الذي تولى الإمارة بعد وفاته،ولذلك أسرعت إلى تدبير مؤامرة،مع حاجب أو رئيس فتيان القصر،الذي كان يتمتع بنفوذ كبير في القصر،ويدعى " نصر الخصى ".[٢]

وقد وردت تفاصيل تلك المؤامرة،في معظم كتابات المؤرخين المسلمين الذين أرخوا للأندلس. وأيضاً في معظم كتابات المستشرقين، وإن كان هؤلاء المستشرقين.قد اكتفوا بنقل تفاصيل المؤامرة،دون التعليق عليها.

وأول من انفرد بنقل تلك الأحداث من مؤرخي القرن الرابع الهجري المؤرخ الأندلسي ابن القوطية في كتابه " تاريخ افتتاح الأندلس ". وكل من كتبها بعد ذلك نقلاً عنه.

وتفاصيل القصة بإيجاز: أن طروب أم عبد الله بن عبد الرحمن الأوسط كانت تعمل على إقصاء ولاية العهد عن محمد بن عبد الرحمن، وإقامة ولدها عبد الله ولياً للعهد، ولكنها لم تستطع تحقيق هذه الرغبة. ولذلك اتفقت مع شخصية قوية في الدولة هي شخصية نصر الخصى، على التخلص من الأمير عبد الرحمن وولده محمد بدس السم لهما. وكان نصر مهيئا لتقبل هذا الوضع بسبب بغضه للأمير محمد،وميله إلى عبد الله، وتصادف أن وصل إلى قرطبة في ذلك الوقت طبيب عراقي يعرف " بالحراني " نسبة إلى مدينة حران بشمال العراق. فطلب منه نصر أن يعد له سماً زعافا، ومنحه ألف دينار، ولم يستطع الطبيب الحراني الرفض لمكانة " نصر الخصي " في البلاد. ولكنه تحايل في ابلاغ إحدى نساء الأمير،وتدعى " فجر " بما حدث،وسارعت " فجر " التي كانت ضرة لطروب،وأبلغت الأمير تفاصيل المؤامرة ليأخذ حذره،وعندما قدم نصر الشراب المسموم للأمير عبد الرحمن،طلب منه عبد الرحمن أن يشربه هو، فذهب نصر يتعذر بعدم الرغبة فيه،وفي أن نفسه تعافه،ويستبشعه: فزجره عبد الرحمن بشدة. وقال له: سبحان الله! شئ إجتهدت لي فيه، والطفت تركيبه، تخاف غائلته. عزمت لتشربنه؟! فعلم أنه لا يمكن مخالفة الأمير،ولابد له من شربه،فشربه.واستأذن في الخروج إلى منزله.وانطلق يركض،واستغاث بالحراني صانع السم ليسعفه.

---

١ – ابن الآبار: الحلة السيراء، جـ ١، ص ١١٤ هامش رقم (١).

Lévi Provençal: Hist. T.I. p. 277.

٢ – تمتع هؤلاء الخصيان بنفوذ كبير في بلاط بني أمية.

راجع: محمد عبد الله عنان: نفس المرجع، العصر الأول، القسم الأول. ص ٢٧٧.

فنصحه الحراني بتناول لبن الماعز، ففرق غلمانه في أنحاء كثيرة،لكي يحضروه. ولكنه كان قد مات قبل أن يؤتى باللبن. وقد سُــر الناس لحتفه،وذلك في شتاء عام ٨٠٥ م- ٢٣٦هــ.[١]

وقد نقل الكثير من المستشرقين أخبار هذه المؤامرة بتفاصيلها لكن بدون التعليق عليها.ويبدو أنها قد راقتهم أحداثها،ولذلك التمسوا جانب الصمت في التعليق عليها.[٢] ومن الواضح أن أسباب تلك المؤامرة حدثت لأن الأميرعبد الرحمن،لم يعمل على اختيار أحد من أولاده ولياً للعهد بصفة رسمية،مما ترك الساحة خاوية للمشاحنات بين نسائه، ومحاولة كل واحدة أخذ ولاية العهد لابنها. وفي نفس الوقت يظهر ميله إلى ابنه الأمير محمد. مما جعل طروب تدبر تلك المؤامرة للتخلص منهما سوياً. لكن العجيب أن كل المصادر الإسلامية وعلى رأسها المصدر الأم لنقل أحداث تلك المؤامرة " ابن القوطية" لم تذكر ما حدث لطروب، وتركت لنا الكثير من علامات الاستفهام. مثال هل عرف عبد الرحمن بالمؤامرة؟ وإذا كان قد عرف، لماذا تركها دون عقاب؟ وهل تغلب حبه لها على عقابها،على تلك المؤامرة الكبيرة؟ ورغم كل تلك الاستفهامات،المرجح هنا أن التزام كل المصادر للصمت في سرد أحداث ما بعد المؤامرة،يؤكد لنا أن الأمير عبد الرحمن،لم يمسسها بسوء، فلو كان قد فعل بها شيئاً لكان من الأحرى على ابن القوطية أول من نقل تفاصيل المؤامرة. أن يذكر لنا ما حدث لها. ولكنه لم يمدنا بشئ مفيد حول هذا الموضوع.

وبعد مرور أقل من عامين على تلك المؤامرة، مساء الثاني والعشرين من سبتمبر عام ٨٥٢ م (٣ ربيع ثاني ٢٣٨هــ) توفي عبد الرحمن فجأة. وقد ناهز من العمر ستين عاماً. مما يجعلنا نرجح أن طروباً ربما عاودت الكرة مرة أخرى. ولكن هذه المرة بدون أن تنكشف.ومما يؤكد قولنا هذا أن طروباً لم تكف عن محاولة فرض ابنها،حتى بعد موت الأمير عبد الرحمن. فقد فعلت ما بوسعها،واستعانت لإعلان ذلك باثنين آخرين من الفتيان التابعين لها وهما " سعدون وقاسم" ولكن دون جدوى.[٣] فقد تمكن محمد بن عبد الرحمن من تولي الإمارة.[٤]

١- وردت أحداث تلك المؤامرة بشكل مفصل في:-

ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٩١ وما بعدها؛ ابن حيان: المقتبس من أنباء أهل الأندلس، ص ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٥، ١٥٦؛ ابن الآبار: الحلة السيراء. جــ ١، ص ١١٤ هامش رقم (١)؛ ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر. جــ ٤. ص ١٥٦؛ العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٦٥- عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم. ص٢٣٤.

٢- وقد نقلها من المستشرقين:-

Dozy: Historia de los Musulmanes. Tomo I. pp. 388 – 389.

Albómoz: la España Musulmana. T.I. p.297.

Provençal: Hist.. T.I. p.277.

Provençal: La Civilizacion, pp. 71. 72.

٣- Lévi Provençal: Hist.. T.I. p. 278.

٤- عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس. القسم الأول. ص ٢٨٩.

والحقيقة:أن إبعاد عبد الله بن طروب. لم يكن بسبب ميلهم في المقام الأول للأمير محمد. وإنما ما ذكره ابن سعيد: عن عبد الله بن طروب. وكيف كان مستهتراً،متهمكاً في اللذات. فكان أولوا العقل يميلون إلى أخيه محمد. فلما مات عبد الرحمن، وكان ذلك بالليل اتفق رؤوس الخدم.على أن يولوا محمد بن عبد الرحمن. وجاءوا به في نفس ليلة موت أبيه، ودخل القصر وتمت له البيعة. ولم يختلف عليه أحد.(١)

ومن الواضح أن طروباً،بعد كل تلك الأحداث الفاشلة لمحاولتها رفع ابنها عنوة لتولي الإمارة.رضيت بالأمر الواقع،أو قد ضعف سلطانها مع موت مولاها عبد الرحمن الأوسط. وتقدمها في العمر، وانحسار الأضواء عنها.فلم تحاول مرة أخرى. ولم نعد نسمع عنها شيئاً في أحداث الأندلس بعد ذلك.

ثانياً: " دُر " أو " ونقة " بنت فرتون البشكنسية جدة الخليفة عبد الرحمن الناصر

أول خلفاء الأندلس وأعظمهم على الإطلاق،الخليفة"عبد الرحمن الناصر" ويرجع نسبه إلى الأميرة البشكنسية المعروفة باسم "ونقة" Onneca وبالإسبانية الحديثة Iniga ابنة ملك نافارا Navarra، فرتون بن غرسية Fortun Garces المعروف بالأنقر. وكان قد وقع في أسر المسلمين. وأقام في قرطبة عشرين عاماً وزوج ابنته الأمير الأموى عبد الله بن محمد.جد الخليفة الناصر. وذلك قبل أن يتولى إمارة الأندلس. وأطلق عليها اسم عربي وهو " دُر"،وأنجب منها ابنه محمداً والد عبد الرحمن الناصر. وهنا يصبح فرتون الجد الأعلى للخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر.(٢)

ونظراً لصلة القرابة التي ربطت الناصر بالبشكنسيين عن طريق هذا الزواج، فقد لجأت إليه الملكة طوطة Dona Toda، ملكة البشكنس، والوصية على عرش نبرة، في سنة ٣٤٧هـ - ٩٥٨م. في رفقة حفيدها شانجة المعروف بسانشو السمين Sancho el Craso، والذي كان قد عزله نبلاء ليون وقشتالة عن عرش نبرة وليون، وولوا مكانه أخاه أوردونيو الرابع.

وترجع صلة القرابة عن طريق"دُر"،التي تزوجت في صباها وقبل أن يتزوجها الأمير الأموى عبد الله بن محمد، في أثناء أسر أبيها من " أثنار سانشيث" Aznar Sanchez. وأنجبت منه طوطة

١- ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، جـ ١. ص ٥١، ٥٢.

Provençal: op.. cit., T.I. p. 278.

٢- أحمد مختار العبادي: الإسلام في أرض الأندلس، ص ٦٣.

المذكورة،والتي أصبحت وصية على عرش نبرة. وبذلك أصبح الأمير محمد والد عبد الرحمن الناصر.أخاً لطوطة من أمها، وبالتالى فهي عمة الناصر.[١]

وقد أكرم الناصر وفادة عمته وحفيدها. وكان من نتائج هذه السفارة أن عقدت محالفة بين الناصر وبينهم، كسب الناصر من ورائها حصوناً في مملكة شانجة مقابل مؤازرته لهم، والعمل على استرجاع عرشه من أخيه.

ففي سنة ٣٤٩هـ-٩٦٠م أرسل الناصر جيشاً إلى نبرة أعاد إلى شانجة عرشه، إلا أن شانجة نكث بوعده مستغلاً وفاة الناصر سنة ٣٥٠هـ.فأضطر الحكم المستنصر ابن عبد الرحمن الناصر وخليفته،لمحاربته.والاستيلاء على تلك الحصون.[٢]

وجاءت إلى الحكم المستنصر بالله سفارة أخرى تشبه تلك السفارة السالفة الذكر. فقد وفدت عليه الأميرة "ونقة" أم لزريق بنت بلاشكش Oneca Rodrigo Velasquez.وكان ولدها لزريق هو قومس جليقية الأكبر، فأخرج الحكم للقياها أهل دولته، واحتفل لقدومها يوم مشهود، وأجزل لها العطاء هي ووفدها،وسافرت بعد ذلك.[٣]

ثالثاً:السيدة " صبح " Aurora البشكنسية، ودورها في المجال السياسي.

لعبت السيدة " صبح " زوجة الخليفة الحكم المستنصر بالله دوراً سياسياً هاماً على مسرح الحياة السياسة الأندلسية. وذلك في فترة حكم ثلاثة رجال هم زوجها، أو مولاها الحكم، وابنها الخليفة هشام المؤيد، وحاجب ابنها المنصور بن أبي عامر. وكان بداية ظهورها في بلاط قرطبة في أوائل عهد الحكم المستنصر. وكانت فتاة رائعة الجمال، فشغف بها الحكم المستنصر،وأغدق عليها حبه وعطفه، وسماها جعفر.[٤]

أما كلمة "صبح " أو صبيحة فهي ترجمة لكلمة Aurora الاسبانية. ومعناها الفجر أو الصباح الباكر. ويبدو أنه الاسم النصراني الذي كانت تحمله عند وفادتها إلى قرطبة.[٥]

١- عبد العزيزسالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٢٩٠؛ سحر سالم: بحث عن الزواج المختلط في الأندلس. ص ٢.

Abdurrahman el Hajji: Inter marriage between Andalusia, and Northern Spain. Vol. XI, No. 1-2 pp. 6-7.

٢- عبد العزيزسالم: نفس المرجع ، ص ٢٩٠.

٣- المقري: نفح الطيب، جـ ١، ص ٣٨٥.

٤- جعفر: معناها في اللغة العربية النهر أو الناقة الغزيرة الحلب، ولعلها ترمز هنا للعطاء، لأنها أنجبت لسيدها ولى العهد.

٥- عبد الله عنان: دولة الاسلام في الأندلس. جـ ١، ص ٥٢٠.

وكانت بشكنسية الأصل من إقليم الياسك في شمال إسبانيا. ثم صار لها نفوذ كبير في الدولة الأموية، وتلقبت بالسيدة صبح.[1] وكان الحكم يثق بإخلاصها وحبها ويستمع لرأيها في معظم الشئون.

وكانت كلمتها هي العليا في تعيين الوزراء ورجال البطانة. وأحد أبرز هؤلاء الرجال، كان الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي، الذي كان يجتهد في خدمتها وإرضائها،ويستأثر لديها،ولدى الحكم بنفوذ كبير،إلى أن دخل الميدان شخصية جديدة.[2]

ومن الأسباب التي جعلتها تحتل تلك المكانة لدى الحكم المستنصر،أن الحكم تولى الحُكم في سن متقدمة. إذ كان عمره ثمانية وأربعين سنة. ولم يكن حتى بلوغه هذه السن قد أنجب ولداً "وليا للعهد"، كان هذا يثير قلقه وجزعه. إذ كان تواقاً لأن يكون له وريث في الملك، ولذلك فقد فرح فرحاً شديداً، حينما ولدت له السيدة "صبح "، ولداً في سنة ٣٥١هـ –٩٦٢م، وسماه عبد الرحمن. وكان مولده حادثاً سعيداً خلده الشعراء والأدباء، ولكن هذا الولد توفي طفلاً، فحزن الحكم حزناً شديداً لفقده، على أن القدر لم يلبث بعد فترة أن حباه بمولود آخر ذكر، سماه هشاماً في٣٥٤هـ ٩٦٥م. فكان ولي عهده الملقب بهشام المؤيد بالله.[3]

وهنا بدأ ظهور محمد بن أبي عامر،الذي لم يكن قد تلقب بعد " بالمنصور " ويذكر ابن عذارى: أن الحكم لم يزل يقدمه ويؤثره، إلى أن أصبح هشام ولياً للعهد، فزاد مقداره لخصوصيته بخدمة ولي العهد، والسيدة والدته.[4] على أن الخليفة الحكم المستنصر، لم يلبث أن أصيب بعلة " الفالج ". وكان هشام لا يزال صغيراً فشلت حركة الحكم، وصارت السلطة بيد وزرائه وحاشيته ونسائه.[5]

أما عن كيفية دخول ابن أبي عامر إلى بلاط بني أمية، فيذكر ابن عذارى والمقري: أن الحكم طلب يوماً وكيلاً لولده الأول عبد الرحمن، فذكر له وزيره جعفر بن أبي عامر المصحفي، ولزوجته "صبح " جماعة اختارت منهم ابن أبي عامر. وباختيار صبح له، نصبه الحكم لخدمتها، وخدمة ابنها عبد الرحمن سنة ٣٥٦هـ .

---

١ – ابن عذارى: البيان المغرب، جـ ٢، ص ٢٥١.

٢ – عبد الله عنان: نفس المرجع، جـ ١، ص ٥٢١

٣ – عبد الله عنان: نفس المرجع. جـ ١، ص ٥٠٢.

٤ – ابن عذارى: نفس المرجع، جـ ٢، ص ٢٥٨.

Lévi Provençal: L'Espagne Musulmane au Xéme. Siécle. p. 59.

٥ – العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢٣٤.

وعندما مات عبد الرحمن بقي في خدمة أمة السيدة"صبح"،إلى أن ولدت هشام المؤيد، فعين أيضاً لوكالته.[١]

وبدأ نجم ابن أبي عامر في الصعود،يوماً بعد يوم،كما يقول ابن عذارى: من خلال استمالته للسيدة"صبح"،بحسن الخدمة،وموافقه المسرة، وحسن البذل، في باب الإتحاف، والمهاداة، حتى استهواها، وغلب على قلبها، وابن أبي عامر يجتهد في برها، والمثابرة على ملاطفتها، فيبدع في ذلك، ويأتيها بأشياء لم تعهد مثلها. "مما دفع الحكم المستنصر إلى القول يوماً لبعض ثقاته "، ما الذي استلطف به هذا الفتى حرمنا، حتى ملك قلوبهن، مع اجتماع زخرف الدنيا عندهن، حتى صرن لا يصفن إلا هداياه،ولا يرضين إلا ما آتاه. إنه لساحر عظيم،أو خادم لبيب، وإني خائف على ما بيده.

ويضيف ابن عذاري أيضاً،أنه صنع يوماً قصراً من الفضة لصبح، وحمله على رؤوس الرجال، فجلب حبها بذلك. وقامت بأمره عند سيدها الحكم. وحدّث الحكم خواصه بذلك، وقال إن هذا الفتى قد خلب عقول حرمنا،بما يتحفهم به. وكان الخليفة الحكم يعتقد في " الحَـدثَـان " النبوءات " prediccions. ويتخيل في ابن أبي عامر، أنه المذكور في الحدثان: " بأن القائم عليهم من الجزيرة الخضراء أصفر الكفين، " فكان يقول لأصحابه: أما تنظرون إلى صُفرة كفيه؟!.[٢]

وبعد أن مات الحكم المستنصر أصبح الخليفة حينئذ هشاماً. الذي تلقب " بالمؤيد" وليس له من الأمر غير الاسم.[٣] وفي بادئ الأمر ازدادت العلاقة قرباً بين صبح وابن أبي عامر. فقد كان يرى فيها المرأة التي اجتمعت السلطة في يدها بوفاة سيدها الحكم، ووصايتها على ولدها الطفل. فبذلك أصبحت أداة هينة سهلة يستطيع أن يخضعها لإرادته،ويسخرها لمعاونته، في تحقيق مشاريعه البعيدة المدى. وكانت هي من جانبها تغدق عليه كل عطف وثقة، وتمده بالأموال اللازمة، لكي يستميل

١- ابن عذارى: المصدر السابق، جـ ٢، ص ٢٥١، ٢٦٥؛ المقري: نفح الطيب، جـ ١، ص ٣٩٩؛ عبد العزيزسالم: تاريخ المسلين وآثارهم في الأندلس، ص ٣٢٤، ٣٢٥؛ أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢٤٠، ٢٤١؛ بروفنسال: تاريخ إسبانيا الإسلامية، ص ٤٢، ٤٣؛ جودت الركابي: في الأدب الأندلسي، ص ٢١.

٢- من المعروف أن عبد الملك جد المنصور دخل مع طارق ونزل الجزيرة الخضراء وساد أهلها وكثر عقبه فيها:-

ابن عذارى: نفس المصدر، جـ ٢، ص ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٧؛ المقـري: نفس المصدر، جـ ٣، ص ٨٦، ٨٧، ٨٨؛ العبـادى: نفس المرجع، ص ٢٤٣؛ سالـم: المرجع السابق، ص ٣٢٥، ٣٢٦؛ عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس، ص ١٤٨.

٣- ابن الآبار: الحلة السيراء، جـ ١، ص ٢٩٦.

العساكر إليه. وأيضاً لكي تضمن ولاءه لابنها الصغير. ولكن بعد أن بزغ نجمه. وثبتت قدماه، وتخلص من خصومه حجب هشام،وتلقب بالمنصور.[١]

والحقيقة أنه: في بداية فترة حكم هشام المؤيد، كانت السلطة موزعة بين الثالوث صبح، والمصحفي، وابن أبي عامر. وكان من الطبيعي أن يحدث صراع بين هذا الثالوث، في محاولة كل منهم للإستئثار بأمور الحكم. وكانت العلاقة ما تزال على أشدها بين صبح، وابن أبي عامر. في البداية كانت تمر بمرحلة الوئام والحب، ولم تحدث أيضاً إلجافاة بين المصحفي، وابن أبي عامر. فعمل هذا الثالوث في البداية على التخلص من عدوهم الأول مجتمعين. وهم الصقالبة، والمتمثلين في الفتيين " فائق وجؤذر"، واتباعهما. فعمل ابن أبي عامر على استصدار حكم، أو أمر،من الخليفة هشام المؤيد بعزلهم. وبذلك قوض شوكتهم.[٢] ثم اتجه إلى المصحفي بعد ذلك، وخاصة عندما أحس بازدياد نفوذه. وبدأ يضايقه في أمور الحكم. ويذكر ابن عذاري: أنه استعان بالسيدة "صبح " وسائر حريم القصر، حتى تم مراده، وتخلص من المصحفي.[٣]

ومن خلال كل ما ذكرناه، نرى أن السيدة صبح كان لها اليد العليا في مساعدة ومساندة ابن أبي عامر، والوقوف إلى جواره فيما وصل إليه من مرتبة ومكانة رفيعة بارزة. فقد أجمعت كافة الكتابات التاريخية على هذا الموضوع، وإن كان بعضها يرجعه إلى غرام وحب السيدة صبح لابن أبي عامر. ولكن ما من شك في أن هذا الحب، لم يكن وحده هو السبب في ثقة السيدة صبح بابن أبي عامر. فهناك عوامل أخرى، وهي محاولتها الاحتفاظ بالحكم لولدها ولى العهد، الذي كان طفلاً صغيراً في ذلك الوقت. ورأت في ابن أبي عامر كما ذكر المؤرخون: من القوة والكفاءة ما يحقق لها ما أرادت. وقد يؤيد ذلك القول موقفها المعارض له عندما أحست باستبداده، وانفراده بالحكم بعد ذلك.

ومن الواضح أن ابن أبي عامر. كان شديد الذكاء. رأي في البداية مهادنة تلك السيدة القوية، وكسبها إلى جانبه، حتى يتمكن من الخلاص من خصومه أولاً لما رأه من قوتها، واجتماع السلطة

١- عبد الواحد المراكشي: (محي الدين بن عبد الواحد المراكشي)، تاريخ الأندلس المسمى المعجب في تلخيص أخبار المغرب. الطبعة الأولى ١٩١٤ م. ص ١٥؛ ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، جـ ١، ص ١٩٩؛ العبادي: في تاريخ المغرب. ص ٢٤٠، ٢٤١؛ بروفنسال: تاريخ إسبانيا الإسلامية، ص ٥٩.

٢- ابن الآبار: المصدر السابق. جـ ١، ص ٢٧٨، ٢٧٩ هامش رقم (٢).

٣- ابن عذارى: البيان المغرب. جـ ٢. ص ٢٦٥؛ سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم. ص ٣٢٧.

وقد ولى ابن أبي عامر صهره غالب خطة الوزارتين. بأمر من السيدة صبح. بعد أن امتدحه لديها وعمل على القضاء على المصحفي. راجع قصة زواج ابن أبي عامر من أسماء بنت غالب الفصل الأول ص ١٢٦ وما يليها.

في يدها. إلى أن تثبت قدماه. وعندئذ كشر عن أنيابه. فلم يعد في حاجة إليها. ولذلك بادلته السيدة صبح جفاء بجفاء،وانقلبت عليه لحجره الشديد على ولدها هشام.

فيروي المؤرخون: أنها حاولت أن تأتي بجيش من المغرب. على نفقتها الخاصة للقضاء على المنصور بن أبي عامر. وأنها أخذت الأموال من بيت المال في القصر الخلافي بمدينة الزهراء. ووضعتها في "جرار" لإرسالها على شكل هدايا إلى حليفها المغربي " زيرى بن عطية المغراوي". ولكن المنصور استطاع بفضل عيونه أن يكشف المؤامرة، ويستولى على هذه الأموال والهدايا. ولكي لا تتكرر تلك المحاولة مرة أخرى من جانبها لتهريب الأموال، نقل المنصور بيت المال فوراً من مدينة الزهراء، إلى مدينة الزاهرة، التي بناها المنصور بنفسه في شمال شرق قرطبة.[1] وحتى يستقل ابن أبي عامر نهائياً عن صبح، ويقطع كل علاقة بها. انتقل في أوائل سنة ٣٧٠هـ – ٩٨٠م، إلى مدينة الزاهرة، وحجر على الخليفة، وعزله عن العالم، ومنع دخول أي شخص إليه. إلا بإذنه. وصار الخليفة محجوباً بين جدران قصره، يغمره الخمول والنسيان.[2]

وهكذا فشلت صبح في محاولاتها،رغم السطوة الشديدة التي تمتعت بها في عهد زوجها الحكم المستنصر، وبداية عهد ابنها هشام المؤيد. ولم يسفر ذلك الصراع بينها وبين ابن أبي عامر، إلا لمزيد من توطيد حكمه وسلطانه. ولم تعد صبح أهلاً لمقاومة ابن أبي عامر. والوقوف في جهه. ويبدو أنها رضيت بالأمر الواقع في آخر الأمر، ولجأت إلى السكينة والعزلة. ولكن يبدو أن وضع انزوائها واستكانتها. لم يمر بسهولة على أهل قرطبة، ولم يتقبلوه لما لها من شعبية كبيرة بين جموع المواطنين القرطبيين. لهذا ظهر الكثير من أبيات الشعر التي عبرت بوضوح عن رأي الشارع القرطبي. وتزمره لما حدث للخليفة وأمه، بل والتنديد بابن أبي عامر، فمن ذلك ما قيل على لسان هشام، يشكو حاله ووحدته قائلاً:–

أليس من العجـــائب أن مثلـــي

يرى ما قـــل ممتنعاً عليـــه

وتملك باسمـــه الدنيـــا جميعـــاً

وما من ذاك شيئاً في يديـــه

١– ابن سعيد: المُغرب في حلى المَغرب، جـ ١، ص ٢٠١؛ المقري: نفح الطيب جـ ٣، ص ٩٢، ٩٣؛ العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢٥٥.

وقد أورد لنا المقري، كمية ومبالغ تلك الأموال. والذهب. والفضة. التي حاولت صبح تهريبها.

٢– محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، جـ ٢، ص ٥٣٦.

وقولهم أيضاً:-

اقترب الوعد وحـــان الهـــلاك

وكل ما تحـــذره قـــد آتـــاك[١]

وقد كانت قصة صبح مع المنصور ابن أبي عامر، فيما يبدو مثار أقاويل كثيرة من حيث طبيعة العلاقة بينهما، وخاصة في المجتمع القرطبي. ويروي " ابن حزم ": أن المنصور أدخلت عليه جارية يوماً ليبتاعها، فغنت شعراً على لسان المنصور يتغزل فيه بصبح،كان يقال على ألسنة العامه بشوارع قرطبة فأمر بقتلها.[٢] ورغم ما ذكرناه، عن قصة صراع صبح مع ابن أبي عامر والتي قد يبدو فيها التحامل على المنصور ابن أبي عامر. نريد أن نوضح أنابن أبي عامر، غنى عن التعريف، وهو من أفضل حكام الأندلس على الإطلاق، وتاريخه وفتوحاته كثيرة جداً. وقد يكون له اعذاره فيما فعله مع السيدة صبح، وربما رأي أها تجاوزت، ما كان يمكن أن يكون مرسوماً لأي سيدة مثلها وفي مكانتها،في ذلك الحين سواء جارية أم حرة. فرأي الحد والوقوف أمام بعض طموحاها، وإن كان تصدى لها بشكل قاسٍ، بعض الشئ. فهي قد آزرته في بداياته بكل ما تملك. ورغم هذا فنسبه عربي أصيل ومعروف. وقد أورد نسبه ابن الآبار في " الحلة السيراء"، وبشئ كثير من الإجلال والتعظيم.[٣]

ولكن الشئ الغريب الذي لاحظته من خلال دراستى لقصة صبح دورها، وسطوها، وإنكسارها، أن كل الروايات الإسلامية، قد صمتت، ولم تشر إلى أن الحكم قد اتخذ منها زوجة، إشارة صريحة. كما أشارت لغيرها ممن هم أقل شأناً ومكانة منها مثل ايخلونا زوجة عبد العزيز بن موسى أو"در،ونقة" السالفة الذكر،أو زوجات المنصور بعد ذلك. فقد أنجبت للحكم غلامين، وفي سن حرجة متقدمة بالنسبة له. فكان من الضرورى أن نعرف هل الحكم اتخذها زوجة، ورفعها بعد هذا الإنجاب، أم ظلت "أم لد "، وحظية فقط؟ فموضوع كهذا كان ينبغى ألا يفوت على المؤرخين المعاصرين لها، وخاصة الذين اهتموا بها، وأسرفوا كثيراً في ذكر نفوذها وسطوها.[٤]

أما عن وفاها، فكانت في مدة حجابة المنصور، في ٢٩ من ذى الحجة ٣٨٩هـ - ١١ ديسمبر ٩٩٩م. وقد رثاها شاعر العصر أحمد بن دراج القسطلي الأندلسي (ت ٤٢١هـ - ١٠٣٠م)، في قصيدة طويلة رائعة. جاء فيها: يرثى أم هشام أمير المؤمنين المؤيد بالله:

١- المقري: نفح الطيب، جـ ١، ص ٦٠٣؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، جـ ٢، ص ٥٣٦، ٥٣٧.

٢- ابن حزم: طوق الحمامة في الإلفة والألأف، حققه الأستاذ الدكتور/الطاهر أحمد مكي، دار المعارف،١٩٨٥م، ص ٦٢.

٣- ابن الآبار: الحلة السيراء، جـ ١، ص ٢٧٥.

٤- ليفي بروفنسال: تاريخ إسبانيا الإسلامية، جـ٢، ص ٢٠٢ ،٢٣١، ٢٣٠،٢١٩،٢٠٨،٢٠٤.

هل المُلكُ يملك ريبَ المَنـــونِ ؟

أم العـزُ يصرِفُ صَرف القضَاءِ؟

جــزاكِ بأعمــالك الزّكيـــــات

خيرُ المُجازيــن خَـيَر الجـزاءِ[١]

وفي النهاية، نستطيع إن نقول:أن تلك المرأة تمردت على وضعها في القصر من خلال مكانتها، التي اكتسبتها لدى سيدها الحكم المستنصر. وتمتعت بنفوذ كبير في بلاط بني أمية، وذلك سواء في أيام سيدها الحكم، أو عندما تولت الوصاية على ابنها هشام عقب وفاة الحكم، أو عندما توسمت في ابن أبي عامر الخير، ووقفت بجانبه بكل قوهّا وأموالها، تؤازره، حتى وصل إلى أعلى درجات الترقي. بل وأصبح هو الحاكم الفعلي، والخليفة عبارة عن اسم فقط. ورغم أنها كانت جارية مجلوبة، وليست من سلالة الأمراء والخلفاء أو البيت الحاكم، إلا أنها استطاعت بذكائها ومهارتها، أن تصرف شئون الحكم زمناً ليس بالقصير.

رابعاً: أمهات ولد المنصور بن أبي عامر.

المنصور ابن أبي عامر هو مؤسس "الدولة العامرية" بالأندلس. رغم وجود الخلافــة الأمويــة، المتمثلة في ذلك الغلام الصغير المسمى هشام المؤيد ابن الحكم المستنصر. ولكن الحقيقة: إن المنصور ابن أبي عامر، وأولاده من بعده، كانوا هم الحكام الفعليين. وقد أتعب المنصور ابن أبي عامر، ملوك قشتالة بالغزو والإغارة عليهم. فكان يواليهم بالصوائف، والشواتي المتلاحقة، حتى أذعنــوا مــن خطط الخسف، كما لم يذعنوا لأحد من قبله، ولا عرفوه في زمن بعده.[٢]

ولم يجد ملوك إسبانيا النصرانية في الشمال، أمام هجمات المنصور الظافرة، والمتلاحقة، والمتفوقة عليهم دائماً، غير مهادنته، بل والتقرب إليه بإهدائه بناهم. فكان المنصور يتخذ منهن السرارى، إلى أن تنجب الواحدة منهن وتصبح "أم ولد ". ومن بين هؤلاء الملوك أقماط قشتالة. وقد حكم منهم في أيام المنصور إثنان هما جارثيا فرنانديث Garcia Fernandez ٩٩٠-٩٩٥ م،ثم ابنه سانشــو جارثيا Sancho Garcia ٩٩٥ – ١٠١٧م. وكلاهما لقى الكثير من المتاعب، والهزائم، على يد المنصور. فالأول هو الأب انتهت حياته بالأسر في معركة مع المنصور، ثم حمل إلى قرطبة، حيــث مات ودفن هناك، في كنيسة للمستعربين تعرف باسم كنيسة القديسين الثلاثة، ثم نقل رفاته بعــد

١- راجع القصيدة كاملة في:-

ديوان ابن دراج القسطلي: نشر وتحقيق الأستاذ الدكتور/ محمود على مكي،منشورات المكتبة الإسلامية. دمشق ١٣٨١ هـ - ١٩٦١م: ص ١١٩، ١٢٣.

٢- ليفي بروفنسال: تاريخ إسبانيا الإسلامية، ص ٦٦.

ذلك إلى دير كاردينيا Cardena،بقشتالة. أما الثاني وهو الابن،فقد مني بهـزائم كـثيرة أيضـاً. واضطر آخر الأمر أن يعقد إتفاقاً مع المنصور، ويزوجه ابنته.[١] وتزوجها المنصور سـنة ٩٨١م. وأسلمت وحسن إسلامها. وكانت من خيرات نسائه دينا متيناً وحسباً أصيلاً. وأطلقـت علـى نفسها اسم "عبدة". وأنجب منها المنصور ابنه عبد الرحمن شنجول.

ويذكر ابن عذاري: أن هذا الاسم " شنجول " غلب عليه من قبل أمه، وأطلقته عليه أمه حتى يذكرها بأبيها شانجة، فتلك الكلمة تصغير لشانجة أي سانشو الصغيرSanchuelo، وقد حرفتـه العامة،وأصبح شنجول.

ويذكر أنه كان أشبه الناس بجده في الشكل.[٢]

وينفي الأستاذ الدكتور/ أحمد مختار العبادي. أن يكون هذا الاسم معناه الأحمق.كما ورد في تاريخ الأندلس لابن الكردبوس. ويقول أنه من المعروف عن عبد الرحمن هذا أنه كان فعلاً شاباً أحمقاً طائشاً. ولعل هذا ما يعنيه المؤلف، وليس معنى الاسم نفسه.[٣]

ويضيف الأستاذ الدكتور/ العبادي. أيضاً إستاداً إلى بعض الرويات المسيحية،أن المنصور مات في ٢٧ رمضان سنة ٣٩٢هـ- ١٠٠٢م، وهو في سن الخامسة والستين. ومات متأثراً بجراحة. كما تقول الرواية المسيحية،استناداً على مثل إسباني شائع ومعروف يقول:-

En Calatanozor murio el Manzor Y Perdia al Tambor ومعناه " مات المنصور في قلعة النسور. وفقد طبله ".[٤]

ومما ذكر عند موت المنصور أيضاً، ما قاله مؤرخ لاتيني في حولياته " مات المنصور، ودفن في جهنم سنة ١٠٠٢م ."[٥]

١- العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٨٧. هامش رقم (١).

والرواية المسيحية تقول: إنها أخته وليست ابنته، عكس كل الروايات الإسلامية التي ذكرت إنها ابنته. انظر:-

Diccionario de Historia de EspaÑa. Tomo I. p. 1208.

٢- ابن الآبار: الحلة السيراء، جـ ١، ص ٢٧٢ هامش رقم (١)؛ ابن عذارى: البيان المغرب، جـ ٣، ص ٣٧، ٣٨؛ العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢٦٥؛ العبادي: الإسلام في أرض الأندلس، ص ٦٣؛ عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم، ص ٣٤٣؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، جـ ١، ص ٥٨٣.

٣- العبادي: تاريخ الأندلس لابن الكردبوس، وهو قطعة من كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق الأستاذ الدكتور/ أحمد مختار العبادي، مدريد ١٩٧١، ص ٤٤.

٤- العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢٦٦.

٥- Lévi Provençal: Hist., T.II. p. 233.

ومما سبق يتضح لنا: إلى أي مدى أذل المنصور ابن أبي عامر ملوك قشتالة وليون، حتى أنهم كانوا يشترون رضاءه بالمصاهرة. وصاهر المنصور حاكم ليون أيضاً، والذي يسمى برمودة الثاني Bermudo II، فقد عانى هذا الحاكم من خروج الأشراف عليه في مملكته، إلى حد أنهم هددوا عرشه، فلم يجد أمامه سوى اللجوء للمنصور ابن أبي عامر، ليعاونه في توطيد أركان مملكته. فجاء إليه في قرطبة سنة ٩٨٥م، مستجيراً لمعاونته. وقد أجابه المنصور إلى طلبه،وقدم له المعونات اللازمة. ولكي يضمن برمودة الثاني المساندة الدائمة للمنصور،قدم له ابنته Teres تيرس، أوتاراسيا Tarasia، عروساً له، فقبلها المنصور، واتخذها سرية، أو زوجة له.[١]

وكان هؤلاء الحكام، لا ينقطعون عن زيارات المنصور المتكررة في قرطبة. فقد أورد ابن الخطيب: في كتابه " أعمال الأعلام " صورة لزيارة سانشوجارسيا، ملك قشتالة Sancho Abarca. لقرطبة في سبتمبر سنة ٩٩٢م رجب ٣٨٢هـ. فخرج المنصور للقائه، وكان معه حفيده عبد الرحمن شنجول لا يزال طفلاً في المهد، وعندما رآه جده، تـرجّـل عن راكبته، وقـبّـل رجله ويده. وكان هذا اللقاء بما فيه من فخامة وأبهة، حديث الناس في قرطبة لمدة طويلة.[٢] ومن زوجات المنصور أيضاً، أسماء بنت غالب. وقصة زواجها من المنصور معروفة ومشهورة.[٣]

ومن محظيات المنصور أيضاً"الزلفاء"أم ولده عبد الملك المظفر،الذي تولى الحجابة من بعده،وكما يذكر ابن عذاري، أنها كانت السبب في قيام محمد بن عبد الجبار بثورته ضد عبد الرحمن شنجول،أخو ابنها عبد الملك المظفر الأصغر، وذلك لاعتقادها بأن ولدها المظفر مات مسموماً، متهمة أخاه عبد الرحمن شنجول، بالتدبير لذلك. فحقدت عليه، وسعت إلى حتفه عند بني مروان " عداة " قومها. وذلك بأن أرسلت واسطة، فتى يدعى بشر الصقلبي،من الفتيان العامريين المنحرفين عن عبد الرحمن شنجول، فأرشده هؤلاء إلى محمد بن هشام ابن عبد الجبار، الذي كان يتسم بالقوة والبأس، ففتح معه باب التدبير. ووعده بأن الزلفاء سوف تساعده، وتمده بما يطلب من الأموال، إذا خلصها من عبد الرحمن شنجول.[٤] وكان لها ما أرادت، ولقى عبد الرحمن شنجول حتفه، وبذلك انتقمت لابنها عبد الملك المظفر.

١- عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، جـ ١، ص ٥٨٣.

٢- ابن الخطيب:(لسان الدين أبو عبد الله محمد بن الخطيب) أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق الأستاذ/ليفي بروفنسال،بيروت١٩٥٦م،ص٦٣، بروفنسال: تاريخ إسبانيا الإسلامية، ص٦٦.

٣- ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، جـ ٢، ص ٤٧٩، ٤٨٠.

Dozy: op., cit., T.II, p. 216.

Provençal: op., cit., T.I, p. 215.

٤- ابن عذارى: البيان المغرب، جـ ٣، ص ٥٢؛ عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين، ص ٣٤٧.

وقد كان للزلفاء أيضاً دوراً في إقصاء الوزير عيسى بن سعيد،وإبعاده عن منصب الوزارة، وذلك بسبب حقدها عليه مباركته لزواج ابنها عبد الملك المظفر في أثناء فترة توليه الحجابة،من ابنه أحد الجنائين. ويقول ابن بسام: في هذا الصدد: " وعندما رآها عبد الملك هام بها حبا، وهان عليه لفرط حبه بها، وعفته فاتخذها زوجة ". فأنكرت أمه عليه هذه الفعلة، وأشارت إلى الوزير عيسى بن سعيد،بالتدخل لمراجعة ابنها، وإثنائه عن رأيه، فما كان من عيسى،إلا أن زاده استحساناً في تلك القينة. فعلمت الزلفاء بما دار،فحقدت عليه،إلى أن اُتهم بالخيانة، واُبعد عن منصبه.(١)

---

١ – ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، المجلد الأول، ص ١٢٤، ١٢٥.

ومن الأشياء التي نقمتها الزلفاء أيضاً، على الوزير عيسى بن سعيدإساءته إلى جارية لها، تدعى " خيال "، وهي " أم ولد "، لولدها عبد الملك المظفر. ويبدو أنها كانت ذات مكانة لديها، وكان ذلك أيضاً أحد الأسباب، التي عزل الوزير على أثرها، بعد إنقلاب الزلفاء عليه.

الفصل الثالث

دور المرأة في المجال العلمي في الأندلس.

أولاً: دور المرأة في الأدب الأندلسي، مع ذكر أمثلة لشاعرات الأندلس المشهورات.

أمثـــال: العجفـــاء – حسانة التميمية – مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري – الغسانية البجانية – حمدة أو حمدونة بنت زياد المؤدب " الوادي آشية "– ولادة بنت المستكفي – مهجة القرطبية... وغيرهن.

ثانياً: الكاتبات، والمعلمات، والخطاطات، والمذهبات.

ثالثاً: شعر الحب والغزل عند المرأة، ما قيل فيها، وما قالته.

أولاً: دور المرأة في الأدب الأندلسي . مع ذكر شاعرات الأندلس المشهورات.

حظيت المرأة الأندلسية بقدر كبير من إهتمام المؤرخين المسلمين، والمستشرقين، وبخاصة في مجال الإبداع الأدبي. فقد أرخ لها عدد من المستشرقين، وعلى رأسهم هنرى بيرس، الذي تناولها في فصل كامل بعنوان " المرأة والحب " في كتابه " الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ". وكذلك ريبيرا Ribera والبورنث albornoz وغيرهم.

ولكن يبدو أن من أوائل من اهتم بالحديث منهم عن المرأة الأندلسية هو المستشرق الألماني البارون فون شاك Von Schack، في كتابه الذي صدر بالألمانية في برلين سنة ١٨٦٥م، بالعنوان الذي ترجمته العربية تعني" شعر العرب وفنهم في إسبانيا وصقلية ". وقد نقله إلى الإسبانية المستشرق الإسباني خوان فاليرا Juan Valera، الذي اعتمدنا على ترجمته في هذا البحث.(١) ولقد جاء حديث شاك " عن المرأة الأندلسية في مقدمة الفصل الرابع من كتابه،والذي أوقفه على دراسة" شعر الغزل في الأندلس، وكانت النتيجة التي خرج بها من خلال ذلك الشعر، أن وضع المرأة في إسبانيا كان أكثر تحرراً عما كانت عليه في بقية الشعوب الإسلامية، مما ساعدها على الإسهام بجهدها في كل ألوان الثقافة المعروفة على أيامها، وليس قليلاً عدد أولئك اللآتي وصلن وبلغن شهرة واسعة، ولعبن دوراً بارزاً في مجال الإبداع العلمي والأدبي. وزاحمن فيه الرجال، ونلن في ظل هذه الحضارة الأندلسية الراقية، إحتراماً لم تعرفه المرأة أبداً في المشرق الإسلامي.(٢)

١- راجع:-

Adolfo Federico de Schack: Poesia y Arte de Los Arabes en Espana Y Sicilia. Traducción de, Juan Valera Mexicco, 1944.

٢- Schack: op, cit, p. 62-63.

ومن المستشرقين المتحمسين أيضاً لحرية المرأة الأندلسية. الإسباني خوليان ريبيرا. فهو من أشد المؤيدين لحريتها، التي كانت السبب الرئيسي والأساسي في محافظتها على أسبتة الأجيال الجديدة من ابناء المسلمين، والتقليل من شأن التأثير العربي الإسلامي عليهم.

وتظهر مكانة المرأة الأندلسية فيما نالته من ثقافة وعلم في كافة المجالات وبخاصة دراستها لأمهات الكتب الإسلامية، مثل موطأ الامام مالك وصحيح البخاري،إلى جانب علوم الفلسفة والطب والموسيقى، بل ووصلت كثيرات منهن إلى مرتبة " المعلمات الكبيرات ". ويضيف ريبيرا: بأن المرأة الأندلسية المسلمة، بدأت تصل لهذه المكانة السامية، منذ منتصف القرن الثالث الهجرى،[١] أي في أوج إزدهار الدولة الأموية الأندلس.

ولكن جيشار الفرنسي،يعارض هذه الآراء السالفة،ويقول:إن المرأة الأندلسية لم يكن مسموحاً لها أن تظفر بقدر من التفتح مثل الذي ظفرت به المرأة المشرقية مستنداً إلى رأي ابن حزم:الذي أورده في طوق الحمامة،والذي يقول فيه."أن المرأة شغلها الشاغل الرجل،تتفنن في إرضائه،ومضاجعته.أو الزواج منه"[٢].

والحقيقة،أننا من خلال مراجعة نصوص الطوق. نرى أن ابن حزم قد ناقض نفسه، وعلى صفحات نفس كتابه، حول قدرة النساء على التحصيل والتعليم فيقول: " لقد شاهدت النساء، وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيرى، لأنى ربيت في حجورهن، ونشأت بين أيديهن، لم أعرف غيرهن ولا جالست الرجال، إلا وأنا في حد الشباب، وحين تـفيل وجهي، وهن علمنني القرآن، وروينني الكثير من الأشعار، ودربنني على الخط".[٣]

فبتلك الكلمات،حسم ابن حزم قضية المرأة الأندلسية.فهو فقيه كبير إن لم نقل أكبر فقهاء الأندلس في عصره.وعندما تـستخرج النساء من بين أيديهن "دُرة"كابن حزم،فلابد أن يكن هن أنفسهن على مستوى كبير من العلم والثقافة. اكتسبنه منذ نعومة أظافرهن،وبلغن فيه شأناً بعيداً.ولكن المآخذ التي أخذها ابن حزم على المرأة الأندلسية،وذكرها من خلال الطوق أيضاً.فهي تدور حول "سوء الظن بالمرأة، وهو معذور في ذلك،فالمرأة لها عالمها الخاص،في جوانب معينة، يختلف كلية عن عالم الرجال. ونرى من الأفضل عدم الإطلاع عليه.

ولذلك عندما توغل ابن حزم في عالم المرأة الخاص، وعرف الكثير من أسرارها، أساء الظن بها. أما عن الدور الذي لعبته المرأة الأندلسية في مجال الإبداع الأدبي والعلمي، فيعد أحد الجوانب

١- Ribera y Tarragó:Disertaciones y Opúsculos. Tomo I. Madrid 1928. p. 347-348.

٢- Pièrre Guichard: Structures Sociales. p. 168.

٣- ابن حزم: طوق الحمامة. ص ٧٩.

Sánchez Albórnoz: La Espana. Tomo I, P. 301.

Abd el Magid Turki: "Stvdia Islamica" Fammes Privilégiées dans le system D'Ibn Hazm. Paris, 1977. p. 76 – 77.

المشرقة في تاريخ الحياة العربية الإسلامية في الأندلس. وقد أخذ الشعر بصفة خاصة جانب التميز، ولم تجد القوافي تربة خصبة تتحرر فيها من قيودها خارج مهدها الأول في شبه الجزيرة العربية، كما وجدتها في الأندلس، وهي ميزة تفوق بها الأندلس على غيره من أصقاع الإمبراطورية الإسلامية.[١]

كذلك اهتم بعض المؤرخين المسلمين، بالمرأة الأندلسية اهتماماً خاصاً ومنهم محمد بن عبد الملك المراكشي (ت ٧٠٣هـ – ١٣٠٤م)، الذي أفرد لها فصلاً كاملاً في نهاية كتابه الذيل والتكملة " لكتابي الموصول والصلة".[٢] وأيضاً أبو العباس أحمد المقري التلمساني (ت١٠٤١هـ – ١٦٣١م) والذي أوقف فصلاً كاملاً في كتابه نفح الطيب: لشاعرات الأندلس المشهورات.[٣]

ونود أن نوضح هنا: أنه في الوقت الذي كانت المرأة الأندلسية تنال كافة الحقوق العلمية والثقافية، كانت المرأة الأوروبية في هذا الوقت،مخلوقاً من الدرجة الثالثة، قلما تنال حظاً من الثقافة، إلا في طبقات النبيلات. وكن ينلن قشوراً من الثقافة، لا تكاد تعدو القراءة والكتابة.[٤]

أما من حيث إعداد الشاعرات الأندلسيات، فالحقيقة كن من الوفرة والنضوج، بحيث شكلن ملمحاً بارزاً من ملامح الشعر الأندلسي. وكان إنتاجهن من ناحية القول، والصوغ، والجَرس، والإشراق، والجرأة. والرصانة، والجزالة ما يدفع الدارس إلى ضرورة الوقوف في ساحته بعض الوقت فاحصاً متأملاً مستبيناً ما فيه من أسباب الجرأة،ومظاهر الإبداع،والإمتاع، وليس أدل على ذلك من أنهن فرضن وجودهن فرضاً، على موكب الشعر في الأندلس.[٥]

واشتهر منهن عدد كبير كن يساجلن الرجال في ميادين الشعر والعلم والفن وكن زينة مجالس السمر والطرب والغناء. وكان لبعضهن صالونات أدبية تضم عظماء الرجال في الفنون والآداب. وقد سبقن فرنسا بهذا التقليد عدة قرون. وكان تعليم البنات شائعاً في الأندلس، وكثيرات منهن كُـــن يحفظن بضعة دواوين لشعراء العرب، وينظمن أيضاً الشعر، ويترسلن كالاوربيات اليوم، أي يخرجن حاسرات الرؤوس.[٦]

١- الطاهر مكي: دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ و الفلسفة، دار المعارف ١٩٨٠، ص ٨٨، ٨٩.

٢- يقوم بنشر الأجزاء الباقية من هذا الكتاب الأستاذان، إحسان عباس. ومحمد بن شريفة.

٣- المقري: نفح الطيب. جـ ٤، ص ١٦٦، وما يليها.

٤- علي عبد العظيم: ابن زيدون عصره حياته وشعره، رسالة ماجستير نوقشت بكلية دار العلوم يوليو ١٩٥٤، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٥، ص ٦٩.

جودت الركابي: في الأدب الأندلسي، الطبعة الرابعة، دار المعارف ١٩٧٥، ص ٩٧ ،٩٨.

٥- مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي. ص ١١٥، ١١٨.

٦- علي عبد العظيم: ابن زيدون. ص ٧٠. الشكعة: الأدب الأندلسي. ص ٤٦.

وإذا كانت المرأة " الجارية " ولأسباب إقتصادية. كانت تتلقى الكثير من التعليم، فكذلك كانت المرأة الحرة في الوسط الارستقراطي أيضاً تنال قدراً كافياً من التعليم.(١)

والشعر الأندلسي بصفة عامة، لم يصل إلى أوج إزدهاره الكامل وسماته الجمالية،إلا في القرن الرابع الهجري.أو العاشر الميلادي،الذي اقترن بقيام الخلافة الأموية،الأندلسية عام ٣١٦هـ – ٩٢٩ م.(٢)

واستحقت الأندلس أن تحتل مكاناً بارزاً ممتازاً، في وفرة إنتاجها الشعري ذي النزعة الكلاسيكية المجددة، كما نشأ لون شعرى جديد، إن صح القول: كما يذكر بروفنسال: عرف " بالشعر الشعبي" وأنواع مبتكرة أخرى كالموشحات، ثم الأزجال، وعنها أخذ المشرق،وسارع إلى اصطناعها. كأنما كان يتوق الأندلس إلى التحرر من قيود المعاني القديمة. وقالب الشعر الكلاسيكى القديم.(٣)

وفيما يختص بالشعر الأندلسي،الذي قارب عملية الفتح،لا نكاد نحس فارقاً بينه وبين شعر الشرق. فقد كانت معظم شاعرات الأندلس في هذه الفترة المبكرة من الفتح ممن وفدن من المشرق، وحملن معهن تأثيرات المشرق في المعاني والألفاظ. ويرجع الأستاذ الدكتور/ مصطفي الشكعة، هذا إلى أن المرأة الأندلسية المسلمة في العهود الأولى للفتح الإسلامي، لم تكن قد انغمست وذابت بعد في دوامة الحياة الأندلسية، بما فيها من اختلاف عن المشرق.(٤)

ويضيف الأستاذ الدكتور/الشكعة أيضاً، أن المرأة كلما كانت أقرب إلى زمن الفتح كانت أقرب إلى عروبتها، وبالتالي إلى حشمتها، والابتعاد عن الجرأة والإسفاف، وتجنبت فحش القول في أشعارها. وكلما بعدت كانت أقرب إلى التحرر، الذي هو على حد تعبيره " تحلل ".(٥)

ولكن الحقيقة التي لا جدال فيها، أن التأثيرات المشرقية على الشعر الأندلسي،ظهرت بجلاء ووضوح، وخاصة في بداية الدولة الأموية،أي في عصر الأمراء. وأشهر من نقل تلك التأثيرات " زرياب " وأولاده. ويذكر " بيرس " أن إسبانيا،بدأت تقلل شيئاً فشيئاً من نظرتها إلى المشرق، واحتذائها ما يجرى فيه بعد أن أصبح عندها الأدباء،والشعراء. والمفكرون، والمغنون. والموسيقيون. من الجنسين. فإذا صح القول: بأن شخصاً كأبي علي القالى " أو قمر " المغنية البغدادية مثلاً، كان

١- صلاح خالص: إشبيلية في القرن الخامس الهجرى. ص ٩٩.

٢- إميليو غرسية غومث: الشعر الأندلسي، ص١٢.

٣- بروفنسال: سلسلة محاضرات عامة، ص ٢؛ غومث: نفس المرجع. ص ١٢.

٤- الشكعة: المرجع السابق. ص ١٢٢.

٥- الشكعة: نفس المرجع. ص ١١٨.

أوسع ثقافة، وأرقى حضارة من الوسط الأندلسي، الذي أحاط بهما في القرن العاشر الميلادي فقد قلبت الموازين بعد ذلك لصالح المسلمين الإسبان، في القرن الذي تلاه.[(١)]

أشهر شاعرات الأندلس .

(١) العجفاء.

ونستطيع القول بشكل جازم: أن أول شاعرة ظهرت بأرض الأندلس،كانت من الجواري الوافدات من المشرق، ولا نعرفها باسمها، فذلك شئ غاب عن مؤرخي الأندلس، وإنما بصفتها "عجفاء". فقد كانت بالفعل جارية هزيلة، ضعيفة، نحيلة. وكانت من القيان الوافدات من الشرق، والمدربات على الإنشاد الديني والأدبي والعزف والغناء[(٢)].

ويروي المقري: حول تلك القيان الداخلات من المشرق إلى الأندلس ومنهن " عابدة المدينة " وكانت جارية سوداء من رقيق المدينة حالكة اللون، غير أنها كانت تروي عن " مالك بن أنس " إمام دار الهجرة، وغيره من علماء المدينة، حتى قال بعض الحفاظ : إنها تروي عشرة الآف حديث، وقال ابن الآبار إنها تسند حديثاً كثيراً، وكانت في الأصل جارية للأمير الأموي محمد بن يزيد بن مسلمة بن عبد الملك بن مروان، الذي وهبها أثناء رحلته إلى الحج، لحبيب بن الوليد المرواني المعروف " بدحون "، الذي قدم بها إلى الأندلس، وقد اعجب بعلمها، وفهمها، واتخذها لفراشه، وصارت أم ولد بشر بن حبيب.[(٣)]

(٢) حسانة التميمية.

أما الشاعرة الثانية على الأرض الأندلسية، فهي حسانة التميمية، ولكننا إذا أردنا الدقة، ما ترددنا في أن نجعل منها أول شاعرة ظهرت على أرض الأندلس. وليست من الوفدات، وذلك لأنها مولودة في الأندلس،في إلبيرة" غرناطة " فضلاً عن كونها من الحرائر، وليست من القيان، وملكة الشعر عندها موروثة عن أبيها أبي الحسين بن أبي المخشي الشاعر، أحد من مدحوا الحكم الربضي، وإن كنا لا نعلم على وجه التحديد ميلادها، ووفاتها. ولكننا نعرف أنها عاشت في أواخر القرن الثاني الهجري، وأوائل القرن الثالث.

١- هنرى بيرس: الشعر الأندلسي: ص ٤٦.

٢- الشكعة: المرجع السابق، ص ١١٩، ١٢٠.

٣- المقري: نفح الطيب، جـ ٤، ص ١٣٦.

وذلك لأنها مدحت الحكم بن هشام (الربضي) في ذلك الوقت، بل عندما مات الحكم سنة ٢٠٦هـ،وقع عليها ظلم من عامل إلبيرة جابر بن لـبيد،فشكته إلى عبد الرحمن بن الحكم " الأوسط "، ولده وولي عهده.[١]

وقد أورد المقري، لها ترجمة، ويقول عنها: تأديت وتعلمت الشعر، فلما مات أبوها: كتبت مديحاً إلى الحكم " الربضي" تقول فيه:—

إنيّ إليـك أبا العاصـي مُوَجعـةٌ
أبا المخشـي سَقَتْه الواكِفُ الدِّيَمُ
قد كنتُ أرتعُ في نـعُماهُ عاكفـةً
فاليوم آوى إلى نُعمـاكَ يا حكَمُ
أنت الإمام الذي إنقـادَ الأنـامُ لهُ
وملكتهُ مقاليد النُّهـي الأمـمُ
لا شئَ أخشى إذا ما كنتَ لي كنفـاً
آوي إليه ولا يعزوني العَـدَمُ
لازلتَ بالعـزَّةِ القـعسـاءِ مرتدياً
حتى تـذلَّ إليك العُربُ والعَجمُ

فلما وقف الحكم على شعرها استحسنه، وأمر لها بإجراء راتب دائم وكتب إلى عامله على إلبيرة، فجهزها بجهاز حسن.[٢]

وقد ضربت حسانة مثلاً رائعاً، في عدم إستكانة المرأة الأندلسية المسلمة التي يقع عليها ظلم. فيُحكي: أنها وفدت على عبد الرحمن بن الحكم " الأوسط " شاكية إليه عامله على إلبيرة " جابر بن لـبيد" وكان والده الحكم " الربضي" قد وقع لها بخط يده تحريراً لأملاكها، ويبدو أن جابر سلبها تلك الأملاك بعد وفاة الحكم. فتوسلت إليه بما في يدها من مخطوط الحكم، فلم يُعـزها فجاءت إلى عبد الرحمن الأوسط، وأقامت بفنائه، وتلطفت مع بعض نسائه،حتى أوصلتها إلى عبد

١- ابن عبد الملك المراكشي: (أبو محمد بن عبد الملك المراكشي) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق الأستاذ الدكتور محمد بن شريفة، الرباط ١٩٨٤م؛ جـ ٢. ص ٤٨٤؛ عبد العزيزسالم: دائرة معارف الشعب، العدد ٦٤ ، ص ٢٠٢؛ الشكعة: الأدب الأندلسي. ص ١١٩. وما يليها.

Nykl (B.A.R): Hispāno Arabic Poetry, Baltimore, 1946, p. 22, 23.

٢- المقري: المصدر السابق، جـ ٤، ص ١٦٧.

الرحمن وهو حال طرب وسرور، فانتسبت إليه فعرفها وعرف أباها، ثم أنشدته قبل عرض شكايتها. ويدل هذا على ذكاء منها، أن تمدحه أولا،ثم تعرض شكايتها ثانياً من خلال أبيات المدح كي تجذب المزيد من الانتباه. فقد كان للشعر الجيد تأثير كبير على أمراء بني أمية. فقد أحبوه، وتذوقوه، وقالوه أيضاً: فقالت:

إلى ذى الندىَ والمجدِ سارت ركائبي

على شحطٍ تَصلىَ بنارِ الهَواجــــر.

ليِجبُرُ صَدعي إنه خيــر جابـــرِ

ويمنعني من ذى الظــلامة جابـــر.

فإنّي وأيتامي بقَبضَـــــة كفـــه

كذى ريشٍ أضحى في مخالب كاسرِ.

جديـــرٌ لمثلي أن يُقالَ مَــروُعَــةٌ

لموت أبي العاصي الذي كان ناصري.

ســقاه الحيا لو كان حياً لما اعتدى

عليّ زمانٌ باطــشٌ بطش قـــــادرِ

أيمحـــو الذي خَطه يمنــاه جابــرٌ

لقد سامَ بالأمـــلاك إحدي الكبائـــرِ

ولما فرغت رفعت إليه خط والده " الحكم الربضي" بالرقعة التي عقدها لها فأخذها. ووضعها على عينيه،وبكى،ثم قال: تعدى ابن لبيد طوره ونقض رأي الحكم، إنصرفي يا حسانة، فقد عزلته لك. ووقع لها على عهد جديد مثل أبيه وأمر لها بجائزة. فانصرفت راضية مسرورة، وبعثت إليه بقصيدة أخرى منها:-

ابن الهشامـــين خيرُ النـــاسِ مأثـــره

وخـــيرُ مُنتجَـــعَ يومـــاً لـــرواد

قل للإمام أيـــا خير الـــورى نسبـــاً

مقابـــلاً بين آبـــاء وأجــــــداد

فإن أقمتُ ففي نــعْـــماكَ عاطفـــة

وإن رحلت فقـــد زودتني زادي[1]

١- راجع القصيدة كاملة في:- المقرى: نفح الطيب، جـ ٤، ص ١٦٧، ١٦٨؛ عبد العزيزسالم: دائرة معارف الشعب، عدد (٦٤) ص ٢٠٢.

(٣) عائشة بنت أحمد القرطبية.

وكان الشعر يجري وينساب على ألسنة نساء الأندلس، فبرعت منهن أيضاً عائشة بنت أحمد القرطبية، ويقول عنها ابن بشكوال: ذكرها ابن حيان وقال عنها لم يكن في جزائر الأندلس في زمانها من يعدلها. فهماً،وعلماً،وأدباً،وشعراً، وفصاحة وعفة،وجزالة،وحصافة، وكانت تمدح الملوك في زمانها،وتخاطبهم فيما يعرض لها من حاجتها، فتبلغ ببيانها حيث لا يبلغه كثير من أدباء وقتها. ولا ترد شفاعتها. وكانت حسنة الخط، تكتب المصاحف، وماتت عذراء لم تتزوج قط، قال: ورأيت لها شعراً أرسلته إلى بعض الرؤساء أوله:-

لولا الدموع ما خشيتُ عـزولاً

فهي التي جعلـت إليك سبيـلاً

وتصرفت في شعرها أحسن تصرف، ومحاسنها كثيرة، وماتت سنة أربعمائة هجرية- ١٠١٠م.[١] وقد عشقت عائشة أحد ابناء المنصور ابن أبي عامر، وولعت به.[٢] وذكرها المقري أيضاً نقلاً عن ابن حيان. وأضاف بأنها تعد

من عجائب زمانها وغرائب أوانها. وكان عمها أبو عبد الله الطبيب شاعراً، ولكنها كانت أشعر منه " ودخلت يوماً على المظفر بن المنصور ابن أبي عامر وبين يديه ابن صغير له، فارتجلت قائلة:-

أراك الله فيـه مـا تـريـدُ

ولا برحـت معاليه تزيدُ

فقـد دلّـت مخايله على مـا

تـؤمله طـالعُهُ السـعيـدُ

فـسوف تراه بـدراً في سمـاء

من العَـليا كـواكبُـهُ الجـنودُ

فأنتم آل عامـر خيـر آلِ

زكـا الابناءُ منـكم والجنودُ [٣]

١- ابن بشكوال: (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس؛ الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦ ص ٢٣٢، ٢٣٣؛ بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٧٣.

٢- الطاهر مكي: دراسات عن ابن حزم، ص ٦٨.

٣- راجع باقي القصيدة في، المقري: نفح الطيب. جـ ٤. ص ٢٩٠.

وقد نقل المؤرخ الانجليزى. نيكل Nykl، تلك القصة في كتابه " الشعر العربي الأندلسي" وأضاف عن عائشة أنها كانت ذات أسلوب أدبي خاص وفريد، تمتعت به دون سائر نساء ورجال عصرها.[1]

(٤) مريم بنت أبي يعقوب.

مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري الفصولي الشلبي " الناصري". وعاشت في إشبيلية بعد سنة ٤٠٠هـ - ١٠٠٩م، وأصلها من مدينة شلب Silves في غرب الأندلس، وذكرها ابن دحية في المُطرب، وابن بشكوال في الصلة، وعنهما نقل المقري: وأجمعوا على أنها كانت شاعرة وأدبية " جزلة " مشهورة. وأنها كانت تعلم النساء الأدب،وتحتشم لدينها،وفضلها،وقد عمرت،وعاشت عمراً طويلاً، ويوماً قالت شعراً تصف فيه حالتها بعد أن تقدم بها العمر فأنشدت:-

وما يُرتجى من بنتِ سَبعين حجـــة

وسبع كنسجِ العنكبوت المهلهــلِ

تدبُ دبيبَ الطفلِ تسعى إلى العصا

وتمشي بها مشيَ الأسيـــر المكـبلِ

وقد بعث إليها المهدى يوماً بدنانير وكتب إليها:-

ما لى بشكر الذي أُوليت من قبــلِ

لو أننى حُزتُ نطق اللسن في الحَللِ

يا فذَة الظرفِ في هذا الزمـــانِ ويا

وحيدةَ العصرِ في الإخلاصِ وفي العملِ

أشبهــتِ مريماً العــذراء في وَرَعٍ

وفــُقتِ خنساء في الأشعــارِ والمثلِ

فكتبت إليه رداً على تلك الأبيات:-

مــن ذا يجاريكَ في قولٍ وفي عملِ

وقـــد بدَرتَ إلى فضلٍ ولم تُــســـــلِ

ما لى بشــكر الذي نَظَمـــتَ في عنق

مَن اللآلىء وما أوليتَ من قــــبـلِ

١- Nykl: Hispano Arabic Poetry, p. 64. 65.

حليتــــنى بِحُلــى أصبحتُ زاهية

بهاعلى كل أنثى من حلى عــطــلِ

لله أخــلاقــكَ الغُر التي سُقِيتْ

ماء الفرات فرقت رِقــةَ الغــــزلِ

أشبهتَ مــروان مَن غرت بدائعه

وأنجــدت وغــدت من أحسن المثلِ

من كان والــده العضبَ المهند لم

يَلد من النسـل غير البيضِ والأسلِ (١)

وقد كانت مريم تعلم بنات الأسر الراقية في إشبيلية، العلم، والشعر.فتخرجت من مدرستها الكثيرات من النساء البارعات. (٢)

(٥) الغسانية البجانية.

ومن شاعرات الأندلس المشهورات الشاعرة الغسانية البجانية، نسبة إلى بجانة Pechina. وهي كورة عظيمة، مشهورة بإقليم المرية Almeria. عاشت الغسانية.وهذا هو إسمها وليس لقبها، في القرن الرابع الهجرى،أو العاشر الميلادى، وإن كان ابن سعيد المغربي يذكرها ضمن شاعرات القرن الخامس الهجرى، أو الحادي عشر الميلادى. وكانت مشهورة في زمانها تمدح الملوك.

وقد أنشدت قصيدة طويلة، تمدح فيها الأمير خيران العامري، صاحب المرية، وتعارض فيها أبا عمر أحمد بن دراج أولها:-

لله الخير قد أوفى بعهدك خــــيران ... وبشراك قــد آواك عز وسلطــان

أتجزع إن قالوا ستظعن إظعــــــان ... وكيف تطيق الصبر ويحــك إن بانو

عهدتهم والعيش في ظــل وصلهــم ... أنيق وروض الوصل أخضر فينــان

١- ابن بشكوال: الصلة، ص ٦٩٤، ٦٩٥؛ الحميدى: (أبي عبد الله محمد بن عبد الله الازدي) جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦، ص ٤١٢، ٤١٣؛ الضبي: بغية الملتمس، ص ٥٤٤؛ المقري: نفح الطيب، جـ ٤، ص ٢٩١؛ عبد العزيز بن عبد الله: المرأة المراكشية في الحقل الفكرى، ص ٢٦٧؛ بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٧٣.

Nykl: Hispano, p. 65.

٢- مقري: نفس مصدر، جـ ٤، ص ٢٩١.

Ibid:p. 65.

فياليت شعرى والفراق يكون هل ... تكونون لي بعد الفــراق كما كــانوا[١]

وتاريخ قصيدة ابن دراج كان في سنة ٤٠٧هـ – ١٠١٧م، حيثما استقل خيران الصقلبي بالمرية، وظل بها إلى أن توفي سنة ٤١٩هـ – ١٠٢٨م، أي قبل سقوط الخلافة الأموية بثلاث سنوات،[٢] فلا شك أن قصيدة الشاعرة كانت خلال هذا التاريخ.

(٦) أم العلاء بنت يوسف الحجارية.

وهي من وادى الحجارة،قرب مدريد،ذكرها ابن سعيد في كتابه " المُغرب "، وقال عنها كانت شاعرة تفخر ببلدها، وقبيلتها، وأنشد لها شعراً:

لله بســتــاتـــي إذا ... يهفو به الغصــب المنــدى

فكأنما كــف الريـــا ... ح قد اســندت بنداً فبنداً

لولا مناصــرة المُــدا ... مـة للصبابـة والفنـــا

لعكفت بين كؤسهـــا ... وجمعت أســباب المنـــى[٣]

ولها أيضاً:–

أفهم مطارحَ أحوالي ومــا حكمــتْ

بــه الشواهــدُ واعذرني ولا تــلُمِ

ولا تــكِلنــي إلى عــُــذرٍ أبيــنــه

شــرُ المعــازيــر ما يحتــاجُ للكلــمِ

وكل ما جئتـــه من ذِلــّــة فبــمــا

أصبحـــتُ في ثقــة من ذلك الكــرمِ

١– ابن بشكوال: الصلة، ص ٢٩٦؛ الحميدى: جذوة المقتبس، ص ٤١٣؛ المقري: نفح الطيب، جـ ٤، ص ١٧٠، ١٧١؛الضبي: بغية الملتمس، ص ٥٤٤، ٥٤٥؛ابن سعيد: المغرب، جـ ٢، ص ١٩٢.

٢– راجع: ديوان ابن دراج القسطلي. نشر الأستاذ الدكتور/ محمود علي مكي، منشورات المكتب الإسلامي بدمشق، ١٣٨١هـ ، ١٩٦١م ، ص ٨٦، ٨٧.

٣– ابن سعيد: المُغرب في حلى المَغرب، حققه وعلق عليه الأستاذ الدكتور/ شوقي ضيف، القاهرة١٩٥٥، جـ ٢، ص ٣٨.

وفي قول آخر:-

كلُّ ما يصـــدرُ عنكـــم حسَـــنُ

وبعلياكـــم يحلـــى الزمـــنُ

تعطـــفُ العيـــنُ علـــى منظركـــم

وبذكـــركـــم تَلَـــذُ الأذنُ

من يعـــشْ دونكـــم في عمـــره

فهـــو في نيـــلِ الأمـــاني يُغبنُ

ويبدو أن هذه المرأة قد تمتعت بقسط وافر من الحرية. ففي بعض المقطوعات الشعرية التي تركتها لنا، ما يدل على أن لديها جرأة كبيرة في الرد على سائليها. فقد خطبها يوماً رجل أشيب هام بها عشقاً، وطلبها للزواج،فلم يرقها وكان ردها عليه:-

الشـــيبُ لا يُـــخدَعُ فيـــه الصبـــاً

بحيـــلة فاسْـــمع إلى نـــصحـــي

فلا تكن أجهَـــل من في الـــورى

يبيتُ في الجهلِ كما يُضـــحـــي[١]

(٧) حمدة أو حمدونة بنت زياد المؤدب- الوادى آشية.

وقد عاشت في أواخر القرن الرابع الهجرى، أو العاشر الميلادي. نالت شهرة كبيرة حتى وصل صيتها إلى المشرق، من غير أن تذهب إليه لبراعتها في الشعر،الذي خلب لب المشارقة. ويقول ابن الخطيب عنها: إنها من ساكني "وادى الحنة " بقرية " بادى" من وادى آش Guadix في غرناطة. ولذلك لقبت بالوادى- آشية.[٢]

ويلاحظ أن اسم حمدونة، هو صيغة تكبير لاسم حمدة. لأن الواو والنون في آخر اللفظ تدل على التكبير، أو التفخيم، وهي مأخوذة من المقطع الإسباني un أو On.في آخر الكلمة للدلالة

١- ابن سعيد: نفس المصدر والجزء والصفحة؛ المقري : نفح الطيب. جـ ٤، ص ١٦٩؛ هنري بيرس: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف. ص ٣٧٤، ٣٧٥.

٢- ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، جـ ٢، ص ٤٨٩.

على التكبير أيضاً. وهناك أسماء أندلسية كثيرة تأثرت بهذه الصيغة الإسبانية. مثل. زيدون. وخلدون، وحفصون، وعبدون، وتزهون... الخ.[١]

وقد لقبت حمدة بخنساء المغرب.[٢] وقد اتخذ شعرها طابع الغزل، ويبدو أنها كانت عاشقة للطبيعة الخلابة للبيئة الأندلسية. فأوقفت أروع أشعارها على وصف جمال تلك الطبيعة الخلابة، حتى شبهها البعض " بأبي بكر الصنوبري " رأس شعر الطبيعة في المشرق "حلب ".[٣] ويقول عنها ابن سعيد المغربي: هي من نساء غرناطة المشهورات بالحسب. والجلالة " العربيات " لمحافظتهن على المعاني العربية.[٤]

وقد خرجت يوماً مع بعض صويحباتها إلى نهر، به جداول بين الرياض فسبحن ولعبن معاً في الماء. فأثر فيها المشهد حتى أنشدت:

أباح الدمعُ أسراري بوادى
لـه في الحسن آثار بَوادي
فمن نهرٍ يطوفُ بكل روضٍ
ومن روضٍ يطوف بكل وادى
ومن بين الظِّبا مهاة أنسٍ
سبت لبي وقد ملكت فؤادى
لها لَحظٌ ترقده لامرٍ
وذاك الامر يمنعني رقادى
إذا سدلت زوائبهَا عليها
رأيت البدر في جنح الرآدى
كأن الصبح مات لـه شقيق
فمن حزنٍ تَسَرْبَلَ بالحدادِ[٥]

١- أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٥٩.

٢- جودت الركابي: في الأدب الأندلسي. ص ٩٨؛ عبد العزيز بن عبد الله: المرأة المراكشية في الحقل الفكرى. ص ٢٦٦.

٣- المراكشي: الذيل والتكملة، جـ ٢، ص ٤٨٥؛ بيرس: الشعر الأندلسي، ص ١٤٢؛ مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي، ص ١٥٣.

٤- المقري: نفح الطيب. جـ ٤، ص ٢٨٩.

٥- الضبي: بغية الملتمس، ص ٥٤٦؛ ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة. م ١. جـ ٢، ص ٤٨٩؛ المقري: نفح الطيب. جـ ٤، ص ٢٨٧. ٢٨٨؛ جودت الركابي: في الأدب الأندلسي، ص ٩٨، ٩٩.

ويذكر بيرس: أن مسقط رأسها مدينة وادى آش، من اعمال غرناطة كانت من شدة جمال الطبيعة بها، ووفرة المياه فيها، مهبطاً للشعراء المتازين. ويلاحظ أن اسم وادى آش (أو وادى إيش بالإمالة، وهي لهجة أهل الأندلس) تتكون من مقطعين وادى العربية، وآش acci الأيبيرية، وتعنى الماء. مما يدل على وفرة الماء فيها.[1] ولقد خرجت حمدونة يوماً آخر متنزهة "بالرملة" من نواحى وادى آش، فرأت وجهاً جميلاً وسيماً أعجبها فقالت:-

وقانا لفَحَة الرَّمضاء وادٍ

سقاهُ مضاعَفُ الغيثِ العميمِ

حللنا دَوْحَهُ فحنا علينا

حُنُوَّ المرضِعاتِ على الفطيمِ

وأرشفنا على ظمأٍ زلالاً

ألذَّ من المُدامةِ للنديمِ

يَصدُّ الشمس أنّىٰ واجهتنا

فيحجُبُها ويأذنُ للنسيمِ

يروع حَصاه حَاليةَ العذارَى

فتلمَسُ جانبَ العقدِ النظيمِ[2]

وقد أحدثت تلك الأبيات مشكلة كبيرة تناقلتها كتب المشرق والمغرب؛ وذلك لأن شاعر مشرقي يعرف " بالمنازي" ادعى أنها شعره ومن نظمه. وجاء بها يوماً ليعرضها على " أبي العلاء المعري " ت ٤٥٠هـ - ١٠٥٨م الفيلسوف والشاعر المشرقي المعروف، فلما عرضها " المنازى" عليه جعله كلما أنشد شطراً، أو المصراع الأول، من كل بيت، سبقه أبو العلاء المعرى إلى تكملة المصراع الثاني، الذي هو تمام البيت. كما تم نظمه من البداية عند حمدة. فلما وصل المنازى إلى الشطر القائل " نزلنا دَوْحَةً فحنا علينا" فقال المعري: "حنو الوالدات على الفطيم ". فقال المنازى إنما قلت: " اليتيم " فقال المعري: الفطيم أحسن. ويبدو أن المنازى حاول التلاعب في

---

١ - محمود مكي: الأعلام الجغرافية ذات الأصول العربية في إسبانيا، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٦٧، بيرس: الشعر الأندلسي، ص ١٤٢، ١٤٣.

٢ - المقري: نفح الطيب، جـ ٤، ص ٢٨٨- عبد العزيزسالم: دائرة معارف الشعب، عدد (٦٤) ص ٢٠٢، ٢٠٣.

كلمات بعض الأبيات حتى يضيع ملامحها.[١] ويضيف بيرس حول هذا المعنى بأن المعري: عندما سمع أبيات الشاعرة الأندلسية، أحس بالشعر يغمره، وحفظ المقطوعة عن ظهر قلب، لشدة إعجابه بها. ويا للغضب الجميل الذي إجتاحه، عندما جاءه الشاعر المنازي المتوفي عام ٤٣٧هـ-١٠٤٥م، ليراه وينشده هذه الأبيات الجميلة، التي ترتجف راقصة في غنائية يجهلها المشرق. ولكن المعرى كان على دراية بها وآخرون غيره دون شك، كانوا على علم بما يحدث، وبكل جديد على الطرف الآخر من البحر الأبيض المتوسط. ولابد أن التبادل الأدبي، كان يتم في سرعة فائقة،فقد ظن المنازي:أنه يستطيع أن يسرق أبيات حمدة، وينسبها لنفسه دون أن يدري به أحد،أو دون أن يناله عقاب. ولكنه وجد أبا العلاء المعري سبقه في معرفة هذه الأبيات.[٢]

ومن خلال تلك القصة نرى إلى أي مدى وصلت المرأة الأندلسية المسلمة في البراعة والإتقان، لدرجة إغراء أحد المشارقة من شدة إعجابه بشعرها، أن ينسبه لنفسه، وهو متأكد أن أحداً لن يعرفه، متناسياً أن الشعر الجيد والمتميز يفرض نفسه على أرجاء المعمورة. وينتشر بسرعة تفوق الخيال. وخاصة في ذلك الوقت، الذي لم تكن وسائل الإتصال ميسورة وسهلة. ولذلك لا يبقى منه ويستمر ويتداول، إلا الجيد.

ومن شعر حمدة أيضاً:

ولما أبـــى الواشــون إلا فِراقــنَا
وَمَالَهُمْ عندى وعنــدك من ثــأرِ

وشنُّــوا علـــى اسمَاعَنا كـــل غــارةٍ
وقـــلَّ حُماتِي عند ذَاكَ وأنصَارِي

غَزَوتــهُــم من مُقــلـتَــيك وأدمُعـــي
ومن نفسى بالسيف السَّيلِ والنار

وقد زعم البعض، أن هذه الأبيات لمهجة بنت عبد الرازق الغرناطية، ولكن كونها لحمدة أشهر.[٣]

١- المقري: نفس المصدر، جـ ٤، ص ٢٨٨. ويعلق المقري على هذه العبارة بأن الرواية عند المعري كانت " حنو الوالدات " بدلاً من " حنو المرضعات ". جودت الركابي: في الشعر الأندلسي، ص ٩٩.

٢- هنري بيرس: الشعر الأندلسي، ص ٤٧؛ وعن المنازي حياته وشعره أنظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١، ص ٤٤.

٣- ابن الخطيب: الإحاطة، م ١، جـ ٢، ص ٤٩٠؛ المقري: نفح الطيب: جـ ٤، ص ٢٨٧؛ سالم: دائرة معارف الشعب، عدد (٦٤) ص ٢٠٢.

وكان لحمدة أخت تدعى زينب بنت زياد المؤدب. وإن كانت حمدة قد فاقت أختها زينب. ويذكر ابن الخطيب : عنهما أنهما أديبتان من أهل الجمال، والمال والمعارف، والصون، إلا أن حب الأدب، كان يحملهما على مخالطة أهله، مع صيانة مشهورة، ونزاهة موثوق بها.[١]

(٨) حفصة بنت حمدون الحجارية.

وهي من وادى الحجارة، وقد ذكرها ابن سعيد المغربي في " المُــغرب " وقال إنها من أهل المائة الرابعة، ومن شعرها:

رأىَ ابن جُميلٍ أن يُــرى الدَهر مجملاً

فكل الورى قد عمهم سَيبُ نعمتهْ

لهُ خــُـلُـقٌ كالخمرِ بَعْد امتزاجِها

وحَسُــنٌ فما أحلاهُ من حين خلقتهْ

بوجهٍ كمثلِ الشمسِ يدعو ببشره

عــيُوناً ويُغشيــها بإفراط هيبتهْ [٢]

وقد ذكرها ابن عبد الملك المراكشي وقال عنها. كانت أديبة، وعالمة وشاعرة،[٣] ولها شعراً تتغزل فيه قائلة:

لــي حــبيبٌ لا يَــنثني لِعتابٍ ... وإذا ما تركته زاد تيــــهاً

قال لي هل رأيتِ لى من شبيه ... قلتُ أيضاً وهَــل ترى لى شبيهاً

ولها في موضع آخر تذم عبيدها:

يارب إني من عبيدى علي ... جمر الغضاء ما فيهمُ من نجيبْ

إما جَهولٌ أبلَــه متعب... أو فَطِنٌ من كيــدة لا يجــيب

---

١ – ابن الخطيب: نفس المصدر، م١، جـ٢، ص٤٩٠؛ المقري: نفس المصدر، جـ٤، ص٢٨٩، ٢٩٠.

٢- المقري: نفح الطيب، جـ ٤، ص ٢٨٥.

٣- ابن عبد الملك: الذيل والتكملة، جـ ٢، ص ٤٨٤.

وقال ابن الآبار. إنها كانت أديبة. عالمة. شاعرة. وذكرها ابن فرج الجياني صاحب الحدائق. وأنشد لها أشعاراً منها قوله:

يا وحشتي لأحبتي يا وحشةً متمادية
يا ليلةً ودعتهم يا ليلةً هي ما هيه[1]

(٩) راضية مولاة الخليفة عبد الرحمن الناصر.

كثيراً ما كانت المرأة تشارك أخاها أو أباها أو زوجها شيوخه، أي تتلقى العلم جنباً إلى جنب معهم. ومن أولئك " راضية" مولاة الخليفة عبد الرحمن الناصر. وكانت تسمى أيضاً " بنجم " وقد اعتقها الحكم المستنصر بعد وفاة أبيه. وزوجها " لبيب الفتى ". وذهبت هي وزوجها معاً إلى المشرق لأداء فريضة الحج معاً سنة ٣٥٣هـ. وكانا يقرآن ويكتبان معاً، ودخلا الشام ومصر حيث تقابلا مع سفيان القرطبي، وسمعا عليه معاً. وروى عنها أبو محمد بن خزرج، وقال عندي بعض كتبها. وقد عمرت عمراً طويلاً، فقد عاشت بعد المائة بسبع سنوات.[2]

(١٠) خديجة بنت أبي محمد.

وهناك أيضاً خديجة بنت أبي محمد بن سعيد. فقد شاركت أباها في سماع الشيخ أبي ذر بن أحمد الهروي. وسمعا منه صحيح البخاري وغيره. وذهبت إلى مكة المكرمة بصحبة أبيها، وسمعت هناك من شيوخ مكة. وعادت إلى الأندلس مرة أخرى مع أبيها. ويروي ابن بشكوال: إن والدها أرخ عنها بخط يده في كتاباته.[3]

(١١) أم الحسن بنت أبي لواء القرطبية.

ومن الوافدات إلى المشرق من الأندلس،أم الحسن بنت أبي لواء القرطبية. وكانت صالحة زاهدة فاضلة عاقلة، ذهبت إلى الحج، وسمعت الحديث والفقه في مكة والمدينة، وعادت إلى الأندلس. لتعلم ما تعلمته، ثم حجت مرة ثانية، ثم توفيت بمكة المكرمة. ويبدو أنها كانت لها اهتمامات بالفقه الشافعي، إذ كان من أبرز شيوخها الفقيه الأندلسي بقي بن مخلد ٢٧٢هـ – ٨٨٦م، وهو من كبار الشافعيين في الأندلس.

---

١ – المقري: نفس المصدر، جـ ٤. ص ٢٨٦؛ الشكعة: الأدب الأندلسي. ص ١٣٣.

٢- ابن بشكوال: الصلة ، ص ٦٩٣، ٦٩٤.

٣- ابن بشكوال: نفس المصدر. ص ٦٩٦.

وقد أعانه تسامح الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط على نشر مذهبه رغم عداء المالكية له.ويروي ابن عبد الملك المراكشي:إن هذه العالمة أم الحسن.قد سمعت منه.وقرأت عليه.وصحبته مدة طويلة.وكان لها يوم جمعة من كل أسبوع تنفرد به لأخذ العلم عنه في داره، وقرأت عليه بلفظها كتاب الدهور، أشهر مؤلفاته.(١)

(١٢) إشراق السويداء.

وهي جارية أبي المطرف عبد الرحمن بن غلبون القرطبي. وقد أخذت عن مولاها اللغة العربية وآدابها. ورغم أنها تعلمت منه، وتلقت العلم على يديه إلا أنها فاقته فيما أخذته عنه. وأحسنت وأجادت فى كل ما تناولته. وكان لها تقدم فى علم العَروض. ولذا كانت تشتهر " بالعَروضية " وأخذ عنها العروض، أبو داوود المقري. الذى قرأ عليها أيضاً كتاب الكامل العباسي " المُـبَرِّد " (ت ٢٨٦هـ - ٨٩٨ م)، وكتاب الأمالى لأبي على القالي (٣٠٦هـ-٩٦٧ م)، وقال: كانت تحفظ هذين الكتابين عن ظهر قلب تنصهما حفظاً وتتكلم عنهما.(٢)

والشئ الغريب الذى لاحظته من خلال تلك الدراسة، وخاصة لشاعرات الأندلس المشهورات، أن الكثيرات منهن أضربن عن الزواج. فيبدو أن الزواج لم يكن يشكل لهن هذه الأهمية.التى قد تهتم بها المرأة في عصرنا الحالي. على سبيل المثال. ولعل ذلك يرجع إلى نوع من الإستقلالية تمتعت بها المرأة الأندلسية وبخاصة "المرأة الحرة " التى كانت تحس بأن الزواج الذى لا يقدم لها إضافة جديدة قد تحجم عنه،وبرضاها، وهناك سبب آخر يقوم على الإستقلال الإقتصادي لعدد كبير من النساء في الأندلس. حيث كانت لهن ثرواتهن الخاصة سواء كن جوارى أو حرائر. فربما لتلك الأسباب وجدت ظاهرة كثرة المضربات عن الزواج في الأندلس.

(١٣) أمة الرحمن بنت أحمد الزاهدة.

هي أمة الرحمن بنت أحمد بن عبد الرحمن الزاهدة. وقد كانت تروي عن أبيها. الذي تلقت كل علومها عنه. ويذكر عنها أنها كانت صوامة قوامة وتوفيت بعد الثمانين. وكانت بكرا لم تنكح قط. فقد وهبت حياتها للعمل والتعليم.(٣)

١- ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة. جـ ٢، ص ٤٨١؛ بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي. ص ٤٠٧.

٢- ابن عبد الملك المراكشي: نفس المصدر، ص ٤٨٠، ٤٨١.

٣- ابن بشكوال: الصلة، ص ٦٩٤.

(١٤) فاطمة بنت محمد اللخمي.

ومن المضربات عن الزواج أيضاً، فاطمة بنت محمد بن علي اللخمي. التي شاركت أخاها أبا محمد الباجي الإشبيلي في بعض شيوخه، وأجازهما معاً الشيخ محمد بن فطيس، وأرخ لهما معاً في جميع رواياته بخط يده.[١]

والحقيقة لقد تعددت الأسماء أمامي. وأصبحت من الكثرة التي أخاف إن ذكرتها كلها أكون قد أطلت في هذا الموضوع.

فقد أصبح الحديث عن معظمهن متشابه ومكرر فى القيام بنفس الدور التعليمي. وقد حاولت قدر الإمكان التركيز على دور المرأة فى تلقي العلوم الأدبية و الفقهية والدنيوية. وغيرها، ومحاولة إظهار مدى براعة المرأة الأندلسية المسلمة فى تلقيها واستيعابها والاستفادة منها. ثم محاولة اخراجها إلى تلاميذهن فى أحسن صورة، وتلك بعض الأسماء مع ذكر أهم أعمالهن.[٢] فقد ذكرها المؤرخين بشئ من الإيجاز. وإن كان هذا الإيجاز لا يمنع عظم الدور الذى قمن به. ونختم حديثنا عن شاعرات الأندلس بمسك الختام وهي:

(١٥) ولادة بنت المستكفي.

أشهر شاعرات الأندلس على الإطلاق، بل أشهر شخصية نسائية في التاريخ الأندلسي كلــه. فلم تنعم شخصية نسائية أندلسية بمثل تلك الشهرة التى نعمت بها ولادة. ولذا انقسم البــاحثون حيالها إلى فريقين أو قسمين: قسم معها، وقسم عليها. ونبدأ بالذين جاءوا عليها، فهم يرون أنها قد خرجت خروجا غير مألوف فى التحرر عن عادات وتقاليد زمانها. وفى هذا الصدد يروى لنا المؤرخ الفرنسي جيشار: أنها قد خرجت عن القاعدة المألوفة والمرسومة لنساء عصــرها. وأنهــا تعتــبر الاستثناء وليست القاعدة لنساء عصرها من حيث تمتعها بالحرية الزائدة.

١- ابن بشكوال: المصدر السابق، ص ٦٩١، ٦٩٢؛ الضبي: (أحمد بن يحي بن أحمد بن عميرة) بغية الملتمس، في تاريخ رجال الأندلس؛ تراثنا ، المكتبة الأندلسية، رقم (٦) دار الكاتب العربي ١٩٦٧، ص ٥٤٧.

٢- صفية بنت عبد الربي: كانت أديبة وشاعرة الحميدى: جذوة المقتبس. ص ٤١٢.

وفاطمة بنت يحي: كانت خيرة وفاضلة. عالمة. فقيهة.استوطنت قرطبة. ودفنت بالربض سنة ٣١٩هـــ. ولم يُر على نعش إمرأة قط ما رُؤي على نعشها. من حشود كثيرة من مريديها؛ ابن بشكوال: نفس المصدر. ص ٦٩١. الضبي: نفس المصدر، ص ٥٤٧.؛ وزينب المرية: كانت أديبة وشاعرة ؛ المقرى: نفح الطيب، جــ٤. ص ٢٨٤؛ وأسماء العامرية: كانت شاعرة محسنة. المراكشي: الذيل والتكملة، جــ٢. ص ٤٨٠؛ المقرى: نفس المصدر. جــ ٤، ص ٢٩٢؛ وريحانة التى قرأت بالمرية ، القراءات السبع للقرآن. الضبي: نفس المصدر. ص ٥٤٦؛ والشلبية كانت أديبة وشاعرة مجيدة. المراكشي: نفس المصدر. جــ ٢. ص ٣٩٥.

ولذلك فهي لا تمثل نموذج المرأة الحرة في عصرها. والتي كانت بقدر الإمكان تحافظ على التقاليد الإسلامية. وأيضا تتمتع بحريتها ولكن بتحفظ وفي حدود ما يسمح به المجتمع الإسلامي الأندلسي.[١] ومن منطلق تلك الحرية التي تمتعت بها ولادة في المغرب الإسلامي، حاول الكثير من المؤرخين عقد مقارنة بينها وبين معاصرتها في المشرق الإسلامي " عُـلية " بنت الخليفة المهدي العباسي (٧٧٥- ٧٨٥م) (١٥٨-١٦٩هـ) من حيث أن كلاً منهما كانت تمثل نموذجاً للمرأة المتحررة بمعنى الكلمة. وأصبحتا رمزين لعصرين كاملين. ورغم ذلك نالتا الإحترام العام الذى حـلمت به كثيرات من اللواتي عاصرناهما.[٢]

- أما المستشرق الإنجليزى نيكل Nykl فيرى: أن نزوات ولادة لا تكاد تختلف عن النزعات التحررية بين النساء الجامعيات، ونجمات المسرح والسينما في العصر الحديث، وشبهها أيضاً بالفتاة الجامعية التي تكون لها شخصية مستقلة. وتعتنق أفكاراً متحررة وتؤمن وتتمسك بها.[٣]

ومن منطلق تلك الحرية التي تشدق بها كل من تناول سيرة وحياة ولادة زعـم الكـثير مـن المؤرخين أنها كتبت بيتين من الشعر بالذهب على طرازها الأيمن:-

أنـا والله أصـلح للمعـالـي ... وأمشي مشيتي وأتيه تيهاً

وكتبت على الطراز الأيسر:-

وأُمكّن عاشقي من صحن خدي... وأُعطي قبلتي من يشتهيها

وأول من نقل هذين البيتين ابن بسام في كتابه " الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" ثم توالى النقل بعده في كثير من المصادر. ولكن ابن بسام يبرأ إلى الله من هذا الخبر ويتحفظ من عُـهدة ناقليه. ويعتذر إن كان قد وقع خطأ في النقل. كأنه لا يصدق. أن يكون هذان البيتان قد خرجا من فم ولادة، لما بهما من إباحة واضحة، ويرجح أنهما دُسا عليها. ونلاحظ في بداية حديثه يقول " زعموا " هي كلمة ليست محددة[٤] وقاطعة. وممن نقلوا هذين البيتين فيما بعد "أحمد المقرى التلمساني" صاحب كتاب " نفح الطيب " والذى ينفي بدورد علاقتهما بولادة، ويقول عنها أنها كانت

١- Guichard. Structures Sociales. p. 169

٢- Guichard: op, cit. p. 170.

عبد العزيز بن عبد الله: المرأة المراكشية في الحقل الفكري. ص ٢٦٧.

٣- Nykl : Hispano Arabic Poetry. p. 107.

٤- ابن بسام: (أبو الحسن على بن بسام الشنتريني) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة تحقيق دكتور/ إحسان عباس) بيروت، لبنان ١٩٧٩ القسم الأول. المجلد الأول. ص ٤٢٩. ٤٣٠؛ المقري: نفح الطيب: جـ ٤، ص ٢٠٥. جودت الركابي: في الأدب الأندلسي. ص ١٦٧.

مشهورة بالصيانة والعفاف.[١] وتلك الأراء عن بعض مؤرخي المسلمين ف ولادة تتفق مع ما نعرفه. وما وصل إلينا من شعر ولادة الذى لم يكن فيه هذا الفُحش، وقلة التوقر.[٢]

وينفى نيكل هذه القصة ويقول: إنها غير حقيقية، وأنها نشأت وترعرعت في قرطبة بين النساء الحرائر، اللآتي كن يغرن منها. بدليل تحفظ ابن بسام عند نقل تلك القصة.[٣] أما ابن بسام فعندما أرخ لولادة فقد قال عنها: هي " ولادة بنت محمد بن عبد الرحمن الناصري ". وكانت من نســـاء أهل زمانها، واحدة أقرانها حضور شاهد، وحرارة أوابد، وحسن منظر ومخـــبر، وحـــلاوة مـــورد ومصدر".

وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر، يعشـــوا أهـــل الأدب إلى ضوء غرتها، ويتهالك أفراد الشعب والكتاب على حلاوة عشرتها، إلى سهولة حجابها، وكثرة منتابها، تخلط ذلك بعلو نصاب،وكرم أنساب. وطهارة أثواب، على أنها سمح الله لها، وتغمد زللها، أطرحت التحصيل، وأوجدت إلى القول فيها السبيل، بقلة مبالاتها، ومجاهراتها بلذاتها.[٤]

ويصفها المستشرق الإسباني ريبيرا: بأنها نابغة عصرها، ذكاء ومهارة وقدرة وبلاغة وفصـــاحة، ويبدو ذلك كله ف أشعارها التى نالت شهرة كبيرة وسمعة أكثر مما ناله كثير من أشعارالرجال.[٥] ويقول المقري: أيضاً نقلاً عن ابن بشكوال والضبي: أنها كانت أديبة وشاعرة جزلة حسنة الشعر. وكانت تخالط الشعراء وتساجل الأدباء وتفوق البرعاء .وقد وصفها الشيخ أبو عبد الله بن مكي بالفصاحة والحرارة والندرة وجزالة المنطق. وأنها لم يكن لها تصاون يطابق شرفها.[٦]

أما عن بداية شهرة ولادة وأخذها لطريق الشهرة. فيجمع الكثير من الباحثين على أن ذلك بدأ بصورة واسعة بعد وفاة أبيها مباشرة. وهو الخليفة " محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله ابن أمير المؤمنين الناصر لدين الله، والذى تلقب بالمستكفى بالله عقب تولية الخلافة. وكان جدها عبد الرحمن قد قتله المنصور بن أبي عامر،لسعيه ف نيل الخلافة.[٧] وبعد وفاة والدها سنة ٤١٦هـــ —

١– المقرى: المصدر السابق، جـــ ٤، ص ٢٠٥؛ عبد العزيز سالم: دائرة معارف الشعب، عدد (٦٤)، ص ٢٠٢.

٢- بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٨١.

٣- Nykl: Hispano Arabic Poetry, p.107.

٤– ابن بسام: الذخيرة ف محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول، ص ٤٢٩؛ بالنثيـــا: تـــاريخ الفكـــر الأندلسي، ص ٨٠، ٨١؛ عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، جـــ ٢، ص ١٨١.

٥- Ribera y tarrago: Disertacions, Tomo I . p. 346.

٦– ابن بشكوال: الصلة، ص ٦٩٦، تَصَـــاون وتـــصوّن من العيب: أي حفظ نفسه منه؛ الضبي: بغية الملتمس، ص ٥٤٧؛ المقري: نفح الطيب، جـــ ٤، ص٢٠٧.

Guichard: op, cit, p. 44.

٧- المقري: نفس المصدر، جـــ ١، ص ٤٣٧.

١٠٢٥م، كانت على أبواب السادسة عشر من عمرها. طرية الإرادة غفلاً عن التجربة، تشق طريقها إلى المجد خائفة وجلة،وسط أحداث صاخبة قلقة تبيت على فتنة، وتصبح على بركان.

ووسط هذا كله انطلقت، كأنما كانت تنتظر موت أبيها حتى تطلق لنفسها العنان وتجاهر بحياتها الحرة.[١] ويبدو أنها ورثت عن أبيها شيئاً من الجرأة والخروج عن المألوف. فيذكر المقري: عن أبيها بأنه كان جاهلاً ساقطاً، ولكن هي خرجت فى كامل الأدب والظرف.[٢]

أما أخبار مجالسها أو صالوناتها الأدبية فهي كثيرة، وقيل فيها الأكثر، وذلك بأن أقامت صالوناً أدبياً يجذب إليه أكبر الشخصيات وأعظم الأدباء شهرة. وقد أظهرت بظرفها واحتقارها للخمار، واختلاطها السافر بالرجال، وجرأتها فى الحديث أحياناً ما يدل بوضوح على أنها تحررت تماماً من كثير من الأوهام وهذا ما جعل بيرس يقول:إن الاسلام الذى تشدد كثيراً فيما يتصل بالمرأة المسلمة بصفة عامة قد إرتخت قبضته شيئاً فى الأندلس،ولابد أن نسلم بأن المناخ الذى أوجدته البيئة المسيحية،أتاح للإسلام أن يصل إلى مفهوم أكثر تحرراً فيما يتصل بوضع المرأة.[٣] ويريد هنري بيرس هنا كما أراد غيره من المستشرقين:أن يرد حرية المرأة المسلمة فى الأندلس إلى بيئة مسيحية مؤثرة،بينما يناقضه فى ذلك قول مستشرق آخر وهو"آدم متز"عن المرأة فى البيئة المسيحية التى كانت لا تخلو من التزمت والتأخر فى العصر الوسيط فيقول:" وكانت لا ترى إمرأة قط فى شوارع إيطاليا وفى إسبانيا. وحتى اليوم لا تخرج المرأة فى إسبانيا بعد العاشرة ليلاً بمفردها، وإلا تعرضت للشبهات".[٤] ولسنا مع بيرس فيما ادعاه من تشدد الإسلام مع المرأة. فالإسلام لم يتشدد مع المرأة، إلا بالقدر الذى يحفظ لها عفتها وطهارتها وكرامتها. أما من ناحية أخذ "بيرس" لولادة "كنموذج لتحرر المرأة المسلمة فى الأندلس. فقد كانت هناك نماذج مشرقية أكثر تحرراً مع عدم وجود تلك البيئة المسيحية التى اتخذت ذريعة من معظم المستشرقين لتحرر المرأة الأندلسية المسلمة. وضربنا مثالاً على ذلك"بعُليه" بنت الخليفة المهدي العباسي، والتي عاصرت ولادة زمنياً، والتى ذكرها المقري ، وقارنها بها.[٥]

ولقد ترك الخليفة المستكفي بالله لابنته ولادة ثروة كبيرة جمعها أثناء خلافته، فأعانتها هذه الثروة على أن تعد فى قصرها ندوة للعظماء والعلماء والشعراء، تسمر إليهم ويسمرون

١- الطاهر أحمد مكي: دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة، الطبعة الأولى، دار المعارف ١٩٨٠م، ص ٢٧٥، ٢٧٦؛ جودت الركابي: فى الأدب الأندلسي، ص ١٦٦، ١٦٧؛ علي عبد العظيم: ابن زيدون، ص ١٤٠.

٢- المقرى: المصدر السابق، جـ ٤، ص ٢٠٨.

٣- هنرى بيرس: الشعر الأندلسي، ص ٣٤٥، ٣٥٠ . Guichard: op, cit, p.16.

٤- هنرى بيرس: نفس المرجع، ص ٣٥٠، هامش رقم (١١).

٥- المقرى: نفس المصدر جـ ٤، ص ٢٠٨.

إليها.تساجلهم ويساجلونها. وكانت رئيسة الطبع كريمة النفس. شريفة الأصل. جميلة الشكل. وكانت لا تترك أحداً يتصرف فى مجلسها. ولا بالدرهم الفرد. فهي تنسب إلى أعرق بيت أموى فى الأندلس، فهي أميرة وابنة خليفة.(١)

أما عن علاقة ولادة بالشاعر القرطبي أبي الوليد أحمد بن زيدون المخزومي (٤٦٣ هـ — ١٠٧٠م) فقد اتخذت علاقتهما شكل معظم العلاقات الغرامية المعروفة. أولا: مرحلة الحب والهيام، وثانياً: مرحلة الهجر والخصام، ولقد شغف ابن زيدون بولادة ملبياً بذلك دواعى قلبه، يستضئ بنور محياها فى الليل البهيم.

وكانت هي من الأدب والظرف بحيث تختلس القلوب والألباب. وكان ابن زيدون فى بداية علاقته بها آنذاك. شاباً فى الخامسة والعشرين من عمره، وبدأت بينهم المراسلات الشعرية الغرامية التى تفيض بالشوق والحنين، فقد ذهب يوماً إلى رياض الزاهرة وتشوق إليها:-

فكتب يقول:-

إنى ذكرتك بالزهراء مشتاقاً

والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا

وللنسيم اعتلال فى أصائله

كأنما رق لى فاعتل إشفاقاً(٢)

ويذكر لنا ابن بسام. على لسان ابن زيدون قوله: كنت فى أيام الشباب هائماً بغادة تسمى ولادة. فلما أعجبها ابن زيدون وأحبته دعته إلى لقياها فى الليل . ليكون ستاراً لحبهما، بعيداً عن أعين الناظرين فكتبت إليه:

ترقب إذا جنَّ الظلام زيارتي

فإنى رأيت الليل أكتمَ للسرِّ

وبى منك ما لو كان بالبدر ما بدا

وبالليل ما أدجى وبالنجم لم يَسْرِ(٣)

١- عبي عبد العظيم: ابن زيدون. ص ١٤٠، ١٤٢.جودت الركابي: في الأدب الأندلسي، ص ١٦٨.

٢- المقري: المصدر السابق، جـ ٤، ص ٢٠٩، ٢١٠؛ وراجع باقي القصيدة في النفح، ص ٢١٠؛ صلاح خالص: إشبيلية في القرن الخامس الهجري، دار الثقافة، بيروت ١٩٨١. ص١٧٦، ١٧٧؛ سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، جـ ٢، ص ١٨١.

٣- ابن بسام: الذخيرة. القسم الأول، المجلد الأول ص ٤٣٠؛ المقرى: نفح الطيب. جـ ٤، ص ٢٠٦؛ سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، جـ ٢، ص ١٨١، ١٨٢؛ بيرس: الشعر الأندلسي، ص ٣٧٤؛ بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٨١.

ويسترسل ابن بسام حول هذا اللقاء، ويقول: فلما طوى النهار كافوره، ونشر الليل عنبره،أقبلت تعدُ كالقضيب،وردف كالكثيب. وقد أطبقت ترجس المقل على ورد الخجل، فملنا إلى روض مدبج.[١] وظل مسجسج.[٢] وقد قامت رايات أشجاره، وفاضت سلاسل أنهاره،ودُر الظل منثور. فلما شببنا نارها،وأدركت فينا ثارها، باح كل منا بحبه، وشكا إليه ما بقلبه، وبتنا بليلة نجني أقحوان الثغور.[٣] وحدث أن غاب عنها فترة فكتبت إليه:

ألا هــل لنــا بعد هذا التفــرق

سـبيل فيشكو كل صـب بما لقى

وقد كنت أوقات التزاور فى الشتا

أبيت على جمر من الشوق محــرقِ

فأجابها بقوله:

لحـــا[٤] الله يوماً لست فيه بملتقِ

محياك من أجــل النـوى والتفرقِ

وكيف يطيب العيش دون مسرة

وأى سرور للكئيــب المــؤرقِ

والأشعار التى قالها ابن زيدون فى ولادة كثيرة جداً. ومن أروع تلك الأشعار:

وَدَّعِ الصبــر محـباً ودَّعــك

ذائع من ســره ما استودعــكْ

يقرعُ السن على أن لم يـــكن

زاد فـــى تـلك الخطا إذ شيعك

يـــا أخا البدر سناءً وسـنـاً

حَفظَ الله زمانـــاً أطـلـعــك

١- مدبج: مزين بالأزهار.

٢- سجسج: الهواء المعتدل اللطيف.

٣- ابن بسام: المصدر السابق، القسم الأول، المجلد الأول، ص ٤٣٠؛ المقرى: المصدر الســابق ، جـــ ٤، ص ٢٠٦، ٢٠٧؛ عبد العزيز سالم: نفس المرجـــع، جـــ ٢، ص١٧٧. ١٧٨؛ جـودت الركـابي: فى الأدب الأندلسي، ص ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠.

٤- يُــقال لحا الله فلاناً أى " قبحه ولعنه ".

إن يطـــــل بعدك لَيلى فــَلكم

بتُ اشكو قِصر اللـيــــل معك[١]

ولابن زيدون يتغزل فى ولادة:

يا نازحاً وضمير القلـــب مــــواه

أنســـتك دنياك عبداً أنت دنياه[٢]

ومن فرط إعجاب ابن زيدون بها وبجمالها. كان يحلو له دائما أن يصفها بقوله: إن الله قد خلقها من الفضة الصافية، ووضع فوق رأسها تاجاً من الذهب الناصع.[٣]

وكان لولادة أيضاً أبياتاً من الشعر، يمكن أن نطلق عليها شعر عتاب أو مداعبة. فقد أرسلت يوماً إلى ابن زيدون، وكان له غلام يدعى "علي" مداعبة تقول له:-

مــا لابن زيدون على فــضلـــه

يغتـــــابنى ظلماً ولا ذنب لي

يلحظــنى شــذراً إذا جــــئتــه

كــأنما جئت لأخصى عـــليّ[٤]

وكانت ولادة تغار على ابن زيدون. فقد مال يوماً إلى جارية لها سوداء تسمى "عتبة" فكتبت إليه معاتبة:

لو كنت تــُـنصف فى الهوى ما بيننا

لم تــهـــو جــاريتى ولم تتخــير

وتــركت غـــصناً مثمراً بجماله

وجنحــت للغــصن الذى لم يثمر

١- ابن بسام: الذخيرة، القسم الأول، المجلد الأول، ص ٤٣٠، ٤٣١؛ سالم: دائرة معارف الشعب، العدد (٦٤) ص ٢٠٢.

٢- راجع باقى أبيات القصيدة فى: ابن سعيد: المُغرب، جـ ١، ص ٦٥.

٣- صلاح خالص: إشبيلية، ص ١٧٥.

٤- المقري: نفح الطيب، جـ ٤، ص ٢٠٨.

لقد علمت بأنى بـــدر السمـــا

ولكن دُهيت لشقوتي بالمشتري[١]

تلك كانت أيام المرحلة الأولى فى حياة ولادة وابن زيدون. تلتها مرحلة الهجر والخصـــام، ثم الانفصال نهائياً. ويرجع الأستاذ/ جودت الركابي، وصولهما لتك المرحلة، بسبب مشاعر الغيرة التى أحست بها ولادة، وإن كان هذا السبب وحده ليس كافياً لإحداث تلك القطيعة بينـــهما. وإنمـــا الرأى الأرجح إنضمام ابن زيدون لحركة " الجهاورة " قد ترك فى نفسها أثراً سيئاً، وهي ابنة خليفة أموي، فجاءت الغيرة فى نفسها تزكي شق الوساوس.[٢]

أما بالنثيا، فيرجع مرحلة الفراق واللوعة بينهما بأنها كانت من أهم المراحل فى حياة ابن زيدون بصفة خاصة. فقد صقلته كشاعر مجيد. وأخرجت منه أحسن أشعاره وبخاصة القصيدة " النونية " المشهورة التى يتشوق إليها فيها، والتى قال فيها المستشرق الإسباني غرسية غومـــث: " Garcia Gomez" إنها أجمل قصيدة حب نظمها الأندلسيون المسلمون، وعارضها ناس كثيرون ولا زالـــوا يعارضونها إلى اليوم. ولقد عاش ابن زيدون على الأقل من جانبه قصة حب حقيقية مع تلك الأميرة ذات الـــدم الملكـــي، ولـــولا الفـــراق واللوعـــة مـــن جانبـــها مـــا خرجـــت تلـــك " النونية الرائعة "التي أصبحت من أبدع وأروع ما وصل إلينا من الشعر العربي الأندلســـي كلـــه، ويرجع ذلك لأنه عاش تجربة فراق مريرة وحقيقية، جعلته يخرج هذه التحفة الأدبيـــة الفريـــدة الـــتى أصبحت مشهورة على مستوى الأدب العربي كله.[٣]

والقصيدة كتبها إلى ولادة وهي بقرطبة وهو بإشبيلية، بعد أن هرب من السجن، وذهب إلى إشبيلية، يتشوق إليها ويستديم عطفها وعهدها، ويؤكد حبه لها ويعتذر عن فراقها بالخَطب الذى ألـــم به،ويُعلمها أنه ما سلا عنها بخمر، ولا خبا ما بين ضلوعه لها من ملتهب الجمر ويقول فيها:

أضـــحى التـــنائي بعيداً عن تدانينـــا

ونـــاب عن طيب لُقيانا تجافينـــا

ألا وقد حـــان صبـــح البين صبحنـــا

حين فقـــام بنـــا للحـــين ناعينـــا

---

١ – ابن بسام: الذخيرة، القسم الأول، المجلد الأول، ص، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٢؛ المقري: نفح الطيب، جـــ ٤، ص ٢٠٥ ح ؛ ســـالم: قرطبة حاضرة الخلافة جـــ ٢، ص ١٧٨؛ بيرس: الشعر الأندلسي، ص ٣٧٤؛ علي عبد العظيم: ابن زيدون، ص ٤٢٥.

٢- جودت الركابي: فى الأدب الأندلسي، ص ١٧٠، ١٧١.

٣- Angel Gonzalez palencia: Historia de la literatura de Arabigo, Espanola, Barcelona – 1945, p. 25

بنتمُ وبنّــــا فما ابتلت جوانحنــا

شوقاً إليكم ولا جفت مــآقــينا

نكاد حــين تــناجــيكم ضمائرنا

يقضي علينا الأسى لولا تأسّينــا

حالت لفقــدكم أيامنا فغــــدت

سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا[١]

ويستمر شاعرنا فى الأنين والشكوى. ويبدو من ذلك مدى إخلاصه ورغبته فى الوصال مــع ولادة. التى كانت هي البادئة بالهجران. ويبدو أن ولادة لم تأخذ حب ابن زيدون بالجديــة الــتي أخذها هو، بدليل أنها وجدت البديل وبسرعة متمثلاً فى " ابن عبدوس ". فقد كتب لها ابن زيدون الكثير من القصائد راجياً متوسلاً متشوقاً مذكراً إياها بسوالف أيامهما، ولكن ولادة كانت تصم الآذان وتغلق القلب، ويبدو أن ابن زيدون قد فاضت وزادت والتهبت لديه مشاعر الحب بعــد هجر ولادة له، فكتب لها قصيدة أخرى رائعة فى تلك المرحلة عرفت بالقصيدة " الكافورية" ويقول فيها:

بما التعلل لا أهل ولا وطن ... ولا نديم ولا كأس ولا سكن[٢]

١- ديوان ابن زيدون: شرح الأستاذ/ كرم البُستاني، دار صادر، بيروت ١٩٦٤م، ص ٩ ،١٠؛ ابــن سـعيد: المغرب، جـ ١، ص ٦٦، ٦٧؛ عبد الواحد المراكشي: المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، ص ٥٧؛ المقري: نفح الطيب، جـ ٣، ص ٧٥. جـ ٤، ص ٢١٠، ٢١١؛ عبد العزيز سالم: قرطبــة حاضــرة الخلافــة فى الأندلس. دراسة تاريخية عمرانية أثرية فى العصر الإسلامي. جزآن. مؤسســة شــباب الجامعــة ١٩٨٤ م، الاسكندرية، جـ ٢، ص ١٧٨؛ صلاح خالص: إشبيلية. ص ١٧٧؛ بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي. ص ٨٣.

وراجع القصيدة النونية كاملة فى:

١) ديوان ابن زيدون، ص ٩، ١٠ وما يليهما.

٢) ابن سعيد: نفس المصدر، جـ ١، ص ٦٨، ٦٩.

٣) عبد الواحد:نفس المصدر. ص ٥٨. ٥٩.

٤) المقري: نفس المصدر، جـ ٣، ص ٢٧٦، ٢٧٧ وما يليهما.

٥) بالنثيا: نفس المرجع، ص ٨٣، ٨٤.

٢- عبد الواحد المراكشي: نفس المصدر. ص ٥٨؛ وراجع باقى القصــيدة فى نفــس المصــدر، ص ٥٨. ٥٩؛ الركابي: فى الأدب الأندلسي. ص ١٧٢. ١٧٣؛ اميليو غرسية غومث: الشعر الأندلسي، ص ٢٢.

ويعلق الأستاذ غرسية غومث على القصيدة النونية قائلاً: إن ذوقها قريب جداً من الذوق العربي، وإن كانت تنقصها الألوان الباهرة التى نعرفها فى الشعر العربي، وهي تضم هنا وهناك أبيات ناصعة كأنها المرمر الأبيض القديم.(١)

ووجدت ولادة فى " ابن عبدوس " السلوى بعد فتور مشاعرها لابن زيدون فدخل الرجلان فى صراع على حب ولادة، إلى أن رحل ابن زيدون عن قرطبة، فخلت الساحة لابن عبدوس. ويحدثنا ابن بسام : بأنها مرت يوماً " بابن عبدوس " وكان وزيراً فى ذلك الوقت، وأحد أبرز رجالات قرطبة. وكان يقف أمام داره يعمل فى بركة تولدت من كثرة هطول الأمطار، وبها شئ من أقذار، وقد نشر أبو عامر كميه، ونظر في عطفيه، وحشد أعوانه فقالت له مرتجلة:

أنت الخصيبُ(٢) وهذه مصرُ ... فتدفقا فكلاكما بحر.

فتركته لا يحير حرفاً ولا يرد طرفاً.(٣)

وفي فترة التنافس بين الرجلين على حب ولادة علم ابن زيدون أن ابن عبدوس يستخدم في مراسلاته لولادة سيدة(٤) تزينه لها وتصف غناه وجماله، فاستغل هذه الواقعة وكتب إلى ولادة " رسالته الهزلية " وهي عبارة عن رسالة كتبها ابن زيدون على لسان ولادة، موجهة إلى ابن عبدوس فيها هجوم عليه وتشهير به آخذاً عليه لجوئه إلى إرسال إمرأة لاستمالة ولادة إليه، وترغيبها فيه ونلاحظ فى هذه الرسالة أن الغيرة العنيفة هي الباعث الأول على كتابتها. وأن عاطفته المتأججة هي التى أملتها عليه دون حساب للعاقبة.

ويبدو أن ولادة قد فوجئت بتلك الرسالة، فزادها هجراناً لابن زيدون وبرغم المودة التى كانت بين الرجلين قبل دخولهما حياة ولادة، فقد أفسد هذا الحب والتنافس ما كان بينهما من مودة وصداقة.(٥)

١- غرسية غومث: المرجع السابق، ص ٢٢.

٢- الخصيب: هو والى مصر من قبل الرشيد؛ ابن سعيد: المغرب، جـ ٢، ص ٥٢٠.

٣- ابن بسام: الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول. ص ٤٣٢؛ المقري: نفح الطيب، جـ ٤، ص ٢٠٨.

٤- هذه العادة كانت منتشرة فى الأندلس، وفى إسبانيا المسيحية أيضاً، وأُطلق على هذه السيدة اسم "القوادة" وبالإسبانية Alcahuete.

٥- بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٨١، ٨٢؛ علي عبد العظيم: ابن زيدون، ص ٤٠٩. وللمزيد من التفاصيل حول تلك " الرسالة الهزلية " أصلها، ومغزاها الأدبي، وأسلوبها ومكانتها فى النثر العربي. ما لها وما عليها من ميزات ومآخذ، راجع: علي عبد العظيم: نفس المرجع، ص ٤٠٩. وما يليها؛ وبالنثيا: نفس المرجع، ص ٨٢.

وقد أفحش ابن زيدون فى هجائه لابن عبدوس إلى درجة أن الرسالة أتت بنتيجة عكسية. ونفرت ولادة من ابن زيدون. وجعلت ابن عبدوس بحكم موقعه وثقله السياسي يدبر له ويكيد له، ويثير عليه خصومه السياسيين حتى جعلهم يدبرون له تهمة تبديد أموال. كان قد أؤتمن عليها فزج به فى السجن. وإذا كانت هذه الرسالة قد أوجدت فجوة بين ابن عبدوس وولادة. فقد كانت السبب فى فراق نهائى بين ولادة وابن زيدون.[١] وبعد حادثة هذه الرسالة انقطعت الاخبار عن ولادة وعن صلتها بابن زيدون الذى فر إلى إشبيلية واستقر فيها فى خدمة المعتمد بن عباد، بينما أنزوت هي عن الناس مقتصرة على صلتها بابن عبدوس، حتى أدركتها المنية.[٢] وقد عاشت ولادة عمراً طويلاً يتعدى الثمانين عاماً، ويذكر ابن بسام: أن ابن عبدوس لم يتركها ولم يغفل عن مراسلتها ومواصلتها فكان يحمل كلها، ويرفع ظلمها، إلى آخر حياتها وحياته.[٣]

وماتت ولادة سنة ٤٨٠هـ – ١٠٨٧م، وهي عذراء لم تتزوج قط ويقول ابن بشكوال: أنها ماتت سنة ٤٨٤ هـ –١٠٩١م ليلة مقتل الفتح بن محمد بن عباد.[٤] والحقيقة : أن تلك الأميرة الأموية عاشت حياة حافلة مليئة بالمتناقضات. فقد أخذت قدراً وافراً من التحرر سبقت به عصرها بأكثر من ألف سنة. وهذا ما جعل أخبارها تملأ صفحات المؤرخين والباحثين الحديثين.

فقد أحدثت ثورة وتمرداً على التقاليد التى وجدت نفسها محاطة بها، وأثرت أشعارها وأخبارها الحياة الفنية والأدبية والاجتماعية إثراء كبيراً.

وكانت السبب المباشر فى خروج أروع قصائد الأدب العربي على لسان مريدها ابن زيدون. وقد فرضت نفسها فرضاً على سطح الحياة القرطبية غير مبالية أو مهتمة بما يمكن أن يحدثه هذا من تلويث لسمعتها.

وفى رأيي: أنها كانت لديها من الثقة فى مواهبها وشخصيتها وثقافتها أكثر مما كان لدى البعض من الثقة فيها، بدليل أن معظم المؤرخين المسلمين الذين تحدثوا عنها وأكدوا على نقطتين هامتين، وهما الصيانة والعفاف. فبرغم هذا التحررغير المألوف، إلا أنها لفته وغلفته بصيانة وعفاف لم يغفلهما المؤرخون.

---

١ – بالنثيا: المرجع السابق، ص ٨٢؛ جودت الركابي: فى الأدب الأندلسي، ص ١٧٢؛ علي عبد العظيم: نفس المرجع، ص ٤١٤.

٢ – بالنثيا: نفس المرجع، ص ٨٤.

٣ – ابن بسام: الذخيرة. القسم الأول، المجلد الأول، ص ٤٣٢.

٤ – ابن بشكوال: الصلة، ص ٦٩٦ ؛ الضبي: بغية الملتمس، ص ٥٤٧؛ المقرى: نفح الطيب، جـ ٤، ص٢٠٧؛ سالم: دائرة معارف الشعب، العدد (٦٤) ص ٢٠٢؛ جودت الركابي: فى الأدب الأندلسي، ص ١٦٦، ١٦٧.

وأعتقد أنها يجب أن تكون مثالاً للمرأة المسلمة المستنيرة التي تتصرف بحرية، ولكن من منطلق تقاليد وعادات ديننا الحنيف.

ومن منطلق تلك الحرية المستنيرة لولادة. كان لها الحق، أو أعطت هي لنفسها الحق فى اختيار من تحب، وفى رفض هذا الحب عندما لا يتفق مع مبادئها، وبدون إبداء الأسباب لثقتها بأن هــذا حق من حقوقها.

ولكن الحقيقة التى لا جدال فيها أن ولادة لم تدخل دائرة الضوء والشهرة من منطلــق قصــة الحب التى كانت بينها وبين ابن زيدون فقط، وإنما من منطلق أنها أديبة جزلة وشــاعرة مجيــدة، باعتراف كل من نقلوا عنها أشعارها، وإذا ما أمعنا السمع والبصر فى كل تلك الأشعار. نرى أننا أمام شاعرة موهوبة ومجيدة ومتمكنة ببراعة من مفرداتها اللغوية.

ويبدو أن ثقتها الزائدة في نفسها هي التى جعلتها تحجم عن الزواج طيلة عمرها، فعدم إحتياجها مادياً ومعنوياً أعطاها الثقة الزائدة فى أنها يمكن أن تعيش حياتها بدون رجل، دون أن تحس أن هناك شيئاً ينقصها، وهنا يمكنني أن أختلف مع من أطلقوا عليها إمرأة " رجُــلة" أو مسترجلة، فهي ليست كذلك، وتلك الأشعار الرائعة لا تخرج إلا من إمرأة كاملة الأنوثة، ولكنها واثقة إلى حد بعيد من قدراتها وثقافتها.

ولا يفوتني قبل أن أختم الحديث عن ولادة. أن أشير إلى صديقة لها كانت أديبة وشاعرة هي الأخرى وهي:

(١٦) مهجة بنت التياني القرطبية.

ومهجة من الشاعرات اللاتى عاصرن ولادة، بل كانت أقرب صديقة لولادة ولازمتها زمنــاً طويلاً. وكانت خفيفة الروح، فأنشدت يوماً شعراً تداعب فيه ولادة تقول فيه:

ولادة قد صرت ولادة ... من غير بعَلٍ فـُضحِ الكاتمُ!

حــكت لـنـــــا مريم لكنهُ ... [1]

وقد أظهرت مهجة خشونة فى علاقتها مع الرجال مثل ولادة، ووجدت فى ولادة أستاذة جيدة يحتذي بها فى علاقتها بالجنس الآخر.

١- راجع تكملة الشطر في ابن سعيد: المغرب، جـ ١، ص ١٤٣. لأن المجال لا يسمح بذكره،لأنه مــن الأدب المكشوف؛ المقرى: نفح الطيب، جـ ٤، ص ٢٩٣.

ويقول بيرس عنهما: إن هؤلاء النساء يمكن أن تطلق عليهن " المسترجلات " لأنهن أعطين قليلاً من قلوبهن، ولكن يتمثل فيهن لطف الأندلسيات ومتانتهن.(١)

ويرى الأستاذ الدكتور/ عبد العزيز سالم أن " مهجة " قد ذهبت فى استخدام فُحش القول واستخدام الألفاظ البذيئة العارية، وهذا ما جعلنا نضعها فى مصاف الشاعرات السوقيات.(٢)

ثانياً: الكاتبات والمعلمات والخطاطات والمذهبات:

لم يقتصر دور المرأة الأندلسية فى العصر الأموى على المشاركة في ميادين الفنون والآداب واتقان الموسيقى والغناء، بل تعداه إلى القيام بالأعمال الإدارية والكتابية أيضاً، ومثال ذلك فى عصر الإمارة، رقية بنت الوزير تمام، وكانت كاتبه للأمير المنذر بن محمد،(٣) أما فى عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر،فقد أورد ابن عبد الملك المراكشي.ثلاثة أسماء،لثلاث جاريات أتخذ منهن الخليفة كاتبات وهن " مُزن " و" كتمان " و " زُمرد" ويصف الثانية بالفهم، والثالثة بأنها كانت كاتبة حاذقة.(٤)

وجاء بعد الخليفة عبد الرحمن الناصر، ابنه وولى عهده الحكم المستنصر، وكان له دون أمراء بني أمية اهتمام خاص بالعلوم، ووجد في المرأة خير معين له على نقل ونسخ أمهات الكتب ليضعها فى مكتبته الخاصة. وكانت أشهر شخصية نسائية على أيامه هي " لُبنى" ويقول عنها ابن بشكوال: إنها كانت خطاطة بارعة حاذقة بالكتابة، نحوية وعَروضية وشاعرة بصيرة بالحساب ومشاركة فى العلم، ولم يكن فى قصره أنبل منها، وتوفيت سنة ٣٨٤هـ - ٩٩٤م،(٥) بينما يقول ابن عبد الملك المراكشي: إنها توفيت فى سنة ٣٧٦ هـ - ٩٨٦م.ونرى من خلال تلك الشخصية إلى أى مدى تنوعت مواهب المرأة وعلومها فى شتى المجالات، ويمكن أن نطلق عليها بلغة عصرنا الحالي " مديرة مكتبه " وعقلية موسوعية فى المجال العلمي.

وهناك شخصية أخرى من عصر الحكم المستنصر،أوردها ابن عبد الملك المراكشي أيضاً، ولكن بدون ذكر اسمها فيقول: " إن الحكم المستنصر بالله، أخرج من قصره يوماً،وصيفة غلامية ذكية،كاتبة فهمة،فأمر أبو القاسم سليمان بن أحمد بن سليمان الأنصاري،المعروف

١- بيرس: الشعر الأندلسي، ص ٣٧٤.

٢- عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، جـ ٢، ص ١٨٢.

٣- ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، جـ ٢. ص٤٨٥.

٤- ابن عبد الملك: نفس المصدر، جـ ٢، ص ٤٩٢.

٥- ابن بشكوال: الصلة، ٦٩٢؛ الضبي: بغية الملتمس، ص ٥٦؛ المراكشي: الذيل والتكملة، جـ ٢، ص ٤٩٢.

بالرصافي،وبالقسام،أن يعلمها التعديل وخدمة الإسطرلاب، وما يجري مجرى هذا، فقبلت ذلك، وخدمته، وساعدها قريحتها في ذلك، فأتقنت علمه في ثلاثة أعوام أو نحوها، فأعجب بها الحكم وألزمها خدمة ما تعلمته في داره، ووصل معلمها سليمان بصلة كبيرة وضاعف له الكرم.(١)

وفي عهد هشام المؤيد بن الحكم المستنصر بالله،ظهرت في قصر الخلافة شخصية أخرى هي"نظام"الكاتبة.وكانت بليغة مدركة،مُحبرة للرسائل. ومن أبرز ما خطته بيدها الخطاب الذي جدد فيه المنصور بن أبي عامر،ولاية العهد في الحجابة من بعده لابنه المظفر عبد الملك،وذلك في شوال ٣٩٢هـ -١٠٠٢م.فقد كان الخطاب من إنشائها،وبأسلوبها،ولولا أنها بلغت درجة كبيرة من البلاغة والفصاحة والتعبير،ما عهد إليها المنصور بتلك المهمة الكبيرة.(٢)

وشخصية أخرى في قصر خلافة هشام المؤيد هي " أميمة الكاتبة " جارية وحظية الحسين بن حُيي. فقد عهد إليها المهدى بن محمد بن هشام بن عبد الجبار، بحراسة هشام المؤيد، عندما قام عليه بانقلاب، وخلعه وعزله في دار مالكها الحسين بن حُيي.(٣)

هذا فيما يختص بما ورد عن الكاتبات، أما المعلمات وهن النساء اللاتي مارسن مهنة التعليم أو التدريس للنساء، فقد كن يتلقين أولاً دروساً في مدارس خاصة بهن مثلهن مثل الرجال. وذلك لإعدادهن إعداداً جيداً لتلك المهنة. ويذكر ريبيرا: إن كثيرات منهن كرسن وقتهن للدراسة والتعليم وبرعن فيها.(٤)

ولقد زادت العناية بتثقيف الجواري وتهذيبهن زيادة عظيمة حتى كن يدرسن إلى جانب فنون الغناء والموسيقى التي جاءت في المرتبة الأولى، علوم اللغة وفنون الأدب، بل وفي أحيان كثيرة دراسة الطب وعلوم التشريح والطبيعة أيضاً .

ولم يكن التعليم وقفاً على الجواري فقط، بل حرصت الحرائر على ألا يكنّ أقل من الجواري في العلم والثقافة.(٥) وتلقت المرأة العلوم التي قدمت إليها في عصرها. وبرز من بينهن المحدثات، والفقيهات، والمتصوفات، والواعظات والمرشدات اللاتي قضين معظم أوقاتهن في الارشاد والوعظ وتقديم ما استطعن تقديمه من أعمال البر والخير و الاحسان.(٦)

١- المراكشي: المرجع السابق، جـ ٢، ص ٤٩٥.

٢- المراكشي: نفس المصدر ، جـ ٢، ص ٤٩٣.

٣- المراكشي: نفس المصدر، جـ ٢، ص ٤٨٣.

٤- Ribera y tarragó: Disertaciones y Opúsculos. Tomo I. p.346.

٥- علي عبد العظيم: ابن زيدون، ص ٧٠.

٦- عمر رضا كحالة: المرأة في عالمي العرب والإسلام، جـ ٦، ص ٦١.

وقد نبغت من بين هؤلاء المحدثات " غالية " بالغين المعجمة " بنت محمد المعلمـــة الأندلســـية. وكانت تروى عن أصبغ بن مالك الزاهد. وقد ذكرها مسلمة بن قاسم فى كتاب النساء له.[١]

وبدأت المرأة تأخذ مكانها البارز في المجال العلمي، بدءً من القرن الثالث الهجـــري أو التاســـع الميلادى، وحتى القرن الثامن الهجري أو الرابع عشر الميلادي. وقد عكسن في تلك الفترة بصدق الأفكار الاجتماعية والدينية التى كانت سائدة في عصرهن، كما اشتغلن بالعلوم اللغوية والدينية. وبرز منهن كثيرات.[٢]

أما فى مجال النقل والنسخ، فقد وصل الأمر بين النساء إلى حد التفاخر والتباهي بجمال الخط. فيروى: إن إحدى النساء أرسلت رسالة إلى صفية بنت عبد الربي، وكانت أديبة وشاعرة موصوفة بحسن الخط، تعيب خطها وتصفه بالسوء، ردا على تفاخرها بخطها. فما كان من صـــفية. إلا أن أرسلت لها تلك الأبيات. تدافع بها عن مهارتها فى الخط فقالت:

وعائبة خطي فقلت لها إقصـــرى

فسوف أريك الدر فى نظم أسطرى

وناديت كفى كى تجـــود بخطهـــا

وقربت أقلامـــي وورقى ومحـــبرى

فـــخـــطـــت أبيات ثلاثاً نظمتـــها

ليـــبدو لها خطى وقلت لها انظرى

ورغم ما وصلت إليه صفية المذكورة من مكانة أدبية رفيعة جعلت المؤرخين ينقلون عنـــها، إلا أنها ماتت صغيرة دون الثلاثين سنة (٤١٧هـــ -١٠٢٧م).[٣] ويدلنا هذا على الاهتمام الكـــبير بتعليم المرأة حتى تصبح على تلك الدرجة من المهارة والإجادة، وهي فى تلك السن المبكرة.

ويحدثنا : ابن خلدون عن إهتمام خلفاء بني أمية بتحسين الخطوط بقوله: بعـــد أن إتســـعت الأمصار والعمران، وانفسح مجال الأعمال،صار لتعليم الخط شأن عظـــيم، وخاصـــة فى المغـــرب والأندلس. وكان لتعلم تلك الخطوط قوانين خاصة يلقيها المُعلم للمتعلم وذلك بمحاكاة الخط الذى يخطه المعلم على المتعلم.

١- ابن بشكوال: الصلة، ص ٦٩١؛ الضبي: بغية الملتمس، ص ٥٤٦ .

٢- هنرى بيرس: الشعر الأندلسي، ص ٣٧٣، ٣٧٤.

٣- ابن بشكوال: نفس المصدر، ص ٦٩٣؛ الضبي: بغية الملتمس، ص ٤٤٣.

وكان يبدأ أولاً بتعليم كل حرف على إنفراده. ثم يصير بعد ذلك جملاً.[١] ويسترسل ابن خلدون حول هذا المعنى بقوله: "وتَمَيزَ مُلكُ الأندلس بالأمويين، فتميزوا بأحوالهم من الحضارة والصنائع والخطوط. فتميز صنف خطهم الأندلسي كما هو معروف الرسم لهذا العهد. وذلك تميزاً له عن سائر الخطوط في الأمصار الإسلامية ".[٢]

وبلغ الإهتمام بالنسخ وبالمكتبات أوجه في عهد الحكم المستنصر. فقد كانت المكتبة في عصره تسير على نظام دقيق وراق للغاية. وتضم أقساماً مختلفة إحداها للنسخ، ويعمل فيها مهرة الخطاطين من فتيات وفتيان. وكانت الرئيسة لهن تدعى " لبنى " السالفة الذكر.[٣]

ويذكر/ ليفي بروفنسال: إنه فى عهد رائع حقاً مثل عصر الحكم الثاني، وأثناء ولايته للعهد وانصرافه فى أوقات فراغه، بعد أن كبر ونضجت سنه لاتخاذ جماعة كبيرة من النُساخ رجالاً ونساءً، ينفق عليهم ويجعل من مكتبة الخلافة كنزاً لا يعادله كنز، ولا يقدر بمال.[٤]

وقد حكى ابن فياض فى تاريخه: أن الربض الشرقى من قرطبة كان به مائة وسبعون امرأة كلهن يقمن بكتابة " القرآن الكريم " وتخطيطه بالخط الكوفى، ووضعه فى مصاحف كل نسخة مستقلة عن الأخرى.[٥] هذا في ناحية فقط من نواحي قرطبة، وهي الربض الشرقي فما بالنا ببقية الأرباض العشرين الأخرى التي تحيط بمدينة قرطبة، بل والمدن الكثيرة الأخرى التي تضارع قرطبة إهتماماً بالعلوم والثقافة. فلابد أنها حذت حذو قرطبة، وإن لم تأخذ نفس الإهتمام في النقل والكتابة للمؤرخين، على اعتبار أن قرطبة هي العاصمة وبؤرة الضوء.

ومن المحتمل أن المصاحف كانت تنسخ بخطوط أخرى غير الخط الكوفى، بدليل أن ابن خلدون قد خص الأندلس بخط مستقل بها تميزت به عن بقية الأمصار الإسلامية. ومن أشهر الشخصيات اللآتي نلن شهرة عريضةفي مجال الخطوط " قلم " جارية الأمير عبد الرحمن الأوسط ويقول عنها المقري: أنها كانت أديبة حسنة الخط، راوية للشعر، حافظة للأخبار، عالمة بضروب الأدب.[٦]

١- ابن خلدون: المقدمة، ص ٤٤٥.

٢- ابن خلدون: نفس المصدر، ص ٤٤٨.

٣- الطاهر مكي: دراسات عن ابن حزم، ص ٦٤، ٦٥.

٤- ليفي بروفنسال: سلسلة محاضرات عامة، ص ٩؛ عبد العزيز بن عبد الله : المرأة المراكشية، ص ٢٦٧.

٥- بيرس: الشعر الأندلسي، ص ٣٧٣؛ علي عبد العظيم: ابن زيدون، ص ٧٥.

Ribera y Tarragó: op. cit, T.I, p. 346.

٦- المقري: نفح الطيب، جـ ١، ص ٣٥٠

وعائشة بنت محمد غرصية. كانت حسنة الخط. وتكتب المصاحف والدفاتر. وتجمع الكتب. وتعنى بالعلم. وكان لها خزانة علم كبيرة، وثروة اعانتها على الإنفاق في مجال العلم.[١] وفاطمة بنت زكريا بن عبد الله الكاتب المعروف " بالشبلاري". وكانت كاتبة جزلة. وخطاطة ماهرة، وعمرت عمراً طويلاً. فعاشت أربعة وتسعين عاماً، كتبت فيها مئات الكتب الطوال ويبدو من اسم والدها " الكاتب " أنها ورثت منه هذه المهنة وتوفيت سنه (٤٢٧هـ – ١٠٣٧م) ودفنت بمقبرة أم سلمة. وماتت بكراً لم تتزوج قط.[٢]

وذكر ابن حيان في المقتبس"البهاء".وكانت خيرة نساء بني أمية من أهل الزهد والعبادة والتبتل.وكانت تكتب المصاحف وتوقفها أو تحبسها على المساجد. وينسب إليها مسجد البهاء من مساجد ربض الرصافة. وتوفيت فى صدر دولة عبد الرحمن الناصر. فى سنة (٣٠٥هـ – ٩١٨م) فلم يتخلف أحد عن جنازتها.[٣]

" ومُزنة " كاتبة الخليفة عبد الرحمن الناصر، وكانت حاذقة ومن أخط النساء. وكانت أديبة أيضاً.[٤] وكذلك طونة بنت عبد العزيز وتكنى " بحبيبة ". وكانت حسنة الخط. فاضلة. دّينة. وقد نقل ابن بشكوال: عنها على لسان ابنها أبو بكر بن القسام المقرئ.[٥]

وكانت مهنة الكتابة والتخطيط تحتاج بالضرورة إلى تجميل تلك المصاحف والكتب وتزيينها، ولذلك عملت كثيرات منهن في عملية تذهيب المصاحف والكتب الثمينة على الأغلفة بتلك الخطوط الذهبية الرائعة. ويذكر بيرس أن "حجر الشاذنة " وهو المستعمل فى عملية التذهيب، يكثر في جبال قرطبة. وكانوا يصنعون كذلك المحابر من الأبنوس.[٦]

هذا فيما يختص بدور المرأة فى مجال الكتابة والتعليم والخط والتذهيب. وهو كما رأينا دور كبير بلاشك عمل على إثراء الحياة العلمية فى كل المدن الأندلسية، وعمل أيضاً على ابراز كثير من النماذج المشرقة والمشرفة للمرأة الأندلسية المسلمة التى استحقت عن جدارة، أن يذكرها ويؤرخ لها العديد من المؤرخين بل ويفخرون بأعمالها.

١- الطاهر مكي: دراسات عن ابن حزم، ص ٦٦.

٢- ابن بشكوال: الصلة، ص ٦٩٤- الطاهر مكي: نفس المرجع، ص ٦٥.

٣- ابن حيان: المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق الدكتور/ محمود علي مكي، القاهرة ١٩٧١ م ١٣٩٠هـ، ص ٦٣. هامش رقم (٩٦).

٤- ابن بشكوال: الصلة، ص ٦٩٢؛ الضبي: بغية الملتمس، ص ٥٤٦.

٥- ابن بشكوال: نفس المصدر، ص ٦٩٦. ٦٩٧.

٦- هنرى بيرس: الشعر الأندلسي. ص ٣٥٠

وما كانت المرأة الأندلسية المسلمة. لتصل إلى هذا الإبداع الأدبي العلمي إلا بالحرية التي قدمت إليها. فما كان منها إلا أن اغتنمتها. ولم تسيء فهمها. فأخرجت منها روائع خلدها، ووصلت من خلالها إلى كل ما ترجوه وتتمناه.

فما عرفنا قط مجتمعاً من المجتمعات السابقة أو اللاحقة على فترتنا التي نؤرخ لها،عمل على كبت المرأة،وتنحيتها عن الحياة العامة.وخرجت منه بنموذج واحد من النماذج المذكورة، ويدلنا هذا على وجود اهتمام غير عادى بالمرأة الأندلسية المسلمة، وتعليمها.

ثالثاً: شعر الحب والغزل عند المرأة ما قالته، وما قيل فيها:

نتفق مع بيرس فى قوله: " أن الأندلسيين قد ذهبوا بعبادة المرأة إلى حد بعيد. ويمكن القول بحق أن الشعراء. لم يصنعوا شيئا أكثر من أنهم عكسوا أفكار مجتمعهم. وإذا كان لكثير من معاصريهم أفكار مختلفة، فقد استطاعوا تحت تأثير هذا الأدب المصفى دائماً،أن يعدلوا عن رأيهم، وموقفهم إزاء المرأة . وأن يقووا في أنفسهم علاقتهم بها لكي يجعلوها تبرز أكثر صفاتها الطبيعية. وإن شئت الدقة لتكون أكثر فطنة،وألطف رقة،وأروع تهذيباً،وأصقل ذوقاً.ولنا الحق فى أن ننطق كلمة"عفيف مهذب"Courtoisie.أمام هذا الإحترام الفروسيّ للمرأة. والحق أننا نجد فى تقدير المرأة هذا عناصر كثيرة من الحب المهذب،لقاء حار ووفاء واخلاص وحلاوة وبهجة وحب، ولكن عبثاً نبحث عن التناقض بين الحب المهذب، والحب المتدني.الذى عرفه العصرالمسيحى الوسيط فلا نجد له أثراً فى الأندلس".[١]

ويسترسل بيرس: في أن النماذج المحمودة لهذا الحب فى إسبانيا الإسلامية،لم تكن ميزة للطبقة المتميزة، بل إنها تمتد فى كل مكان، وهي الظرف أو الأدب وكلاهما قديم. وكانا يعبران فى القرون الإسلامية الأولى، بعد أن استقرت حضارة الإسلام في المدن، عن فكرة الأناقة الطبيعية. وقد امتزجت بالمعارف المتنوعة.[٢]

وقد أسهمت كثيرات من نساء الأندلس، وأظهرن مشاعر الحب الملتهبة فى أشعارهن، وأسهمت في دعم الفكرة التى أخذناها عن حرية المرأة الأندلسية المسلمة.

وكل هؤلاء الأندلسيات،أظهرن شخصية حازمة،بل ومبادأة،في التعبير عن أنفسهن وما كن ليفعلن ذلك. بهذا الوضوح والصراحة لو لم يكن المجتمع يسمح لهن بذلك.

إنهن نتاج عصرهن تماماً.ومن الحق أن المكان الذى إحتللنه،يعود فضله إلى الجانب الأكبر،لعبادة الرجل لهن. وهي عبادة ما كان يمكن لها أن تصل إليها دون جهد من جانبها بزيادة ثقافتها،وصقل

١- بيرس: المرجع السابق، ص ٣٧١.

٢- بيرس: نفس المرجع، ص ٣٧٢.

فكرها،والتسامى بقلبها.(١) إلى هنا ونحن مع بيرس:ولكن لسنا معه في رده، حرية المرأة المسلمة.كلية إلى البيئة المسيحية التي أثرت عليها.وقد سبق أن أبدينا الرأى ، رداً عليه في هذا الموضوع.(٢)

وعلى الجانب الآخر. يذكر بالنثيا: إن الأندلسيين لم يروا في المرأة غير الجمال الحسي الملموس، أى الردف الثقيل والخصر النحيل. فقد أهمل الشعراء بصفة خاصة والأندلسيين بصفة عامة، قلة فهم الجانب النفسى من حياقا،ولم يعودوا يستشعرون من جمالها غير الحسى الملموس أى الصورة المادية.(٣)

وهذا الرأى به كثير من التجني على المرأة الأندلسية المسلمة، ونظرة المجتمع إليها. فلو كان صحيحاً. لانزوت المرأة بعيداً عن العيون، والمشاركة، وما ساجلت الرجال، تطارحهم شعراً بشعر. حول أدق تفاصيل العلاقات بينهما، وخاصة " الحب ". وكان ابن حزم. أبرز من كتب عن الحب العميق البعيد عن النزوات والشهوات، المليئ بالشفافية،والتميز،بعيداً عن الإسفاف.وطوق الحمامة، مليئ ومزدحم بنماذج لهذا الحب الجميل، في كل صوره ومراحله.(٤)

ومن الأشعار التى تغزلت بالمرأة. ما ذكره الأمير الأموى الحكم الربضي (١٨٠ – ٢٠٦هـ /٧٩٦– ٨٢٢ م) ابن هشام الرضا. ويبدو أن الأمير الحكم لم يرث عن ابيه هشام " الرضا " نزعته الدينية، إذ أن أشعار الغزل التي تركها تنبئ عن أنه رجل عليم بالنساء، ومحب لهن، فيقول في أحد أشعاره:

قُضُبٌ من البان ماست فوق كُثبانِ

وَلَّيْنَ عنى وقد أزمعنَ هِجرانى

١- بيرس : المرجع السابق ، ص ٣٧٦.

٢- العائلات الإسبانية المحترمة، لا تسمح حتى اليوم، بخروج نسائها بعد العاشرة ليلاً بمفردهن. وإلا تعرضن للشبهات، التي تحط من سمعتهن. ويبدو أن ذلك أحد تأثيرات البيئة الإسلامية، التى مازالت موجودة إلى اليوم.

هنرى بيرس: نفس المرجع. ص ٣٥٠.

٣- بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي. ص ٤٤.

٤- راجع : فصول كتاب طوق الحمامة.

وكذلك مقال الأستاذ/ عبد المجيد تركي: فقد قام بعمل دراسة لموقف ابن حزم من المرأة الأندلسية في مقالة بعنوان:–

Abd el Magid Turki: (Stvdia Islamica) Femme privilégiées dans le Systéme D'Ibn Hazm. paris. 1997. p. 76 – 79.

وقد تناولنا معظم هذه الآراء. من خلال فصول الكتاب. كل رأى في موضعه المناسب.

ناشدْتُـهـنَّ بحقي فاعْـتزمنَ على

الهجران حتى خـلا منهن هيمـانى

مَلكنني مُلكَ من ذلَّـت عـزيمَـتهُ

للحبِ ذُلَّ أسـيرٍ موثـقٍ عـانى

مَن لي بمغتصبـاتِ الروح من بدنـي

يغصبنني في الهوى عزي وسُـلطانى(١)

وقد أنشد هذا الشعر. لتأبيَّ خمس جواري من جواريه عليه، واعراضهن عنه، وبعد مدة عدن إليه، وواصلنه فأنشد يقول:-

نلتُ كل الوصـال بعـد البعـاد

فكـأني مـلكـت كل العبـادِ

وتنـاهي السـرور إذ نلت ما لم

يغنِ فيه تكـاثف الأجنـاد(٢)

وللحكم الربضي أيضاً في موضع آخر يتغزل فيه أيضاً:

ظـل من فـرط حـبهِ مملـوُكـاً

ولقد كـان قبل ذَاكَ مليـكـاً

إن بكا أو شكا الهوى زيـدَ ظـُلماً

وبُعـاداً يُـدني حماماً وشـيكا

يجعـل الخـد ماثلاً فوق تـُرب

وهو لا يَرتضي الحريـر أريـكا

هكذا يُحـسن التـذلـل للحـب

إذ كان في الهـوى مملـوكـا(٣)

١- مجهول: أخبار مجموعة، ص ١٢١، ١٢٢؛ ابن عذارى: البيان المغرب، جـ ٢، ص ٧٩؛ المقرى: نفح الطيب، جـ ١، ص ٣٤٢ ، ٣٤٣؛ العبادى: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٣٥؛ عبد العزيـز سـالم: تـاريخ المسلمين وآثارهم، ص ٢٢٧.

٢- ابن عذارى: نفس المصدر، جـ ٢، ص ٧٩.

٣- مجهول: أخبار مجموعة. ص ١٢٢- ابن عذارى: البيان المُغرب، جـ ٢. ص ٨٠.

ولعبد الرحمن الخامس ابن هشام بن عبد الجبار" المستظهر بالله" (٤١٤ هـــ – ١٠٢٣ م)، الذى أحب ابنة عمه، وتسمى " حبيبة " أم الحكم بنت سليمان"المستعين بالله".فقد كتب يوما إلى أم حبيبته وتدعى" مُشنف ". ويبدو أنها كانت تعارض هذا الحب، وهذا الإرتباط، فأرسل لها قائلاً:–

وجاليــة عُــذراً لتصف رغبــي
وتأبى المعالى أن تــُجيــز لهــا عُــذراً
يُكَلّــفُها الأهلُــونَ ردًى جَــهَالة
وهل حَسَنٌ بالشمس أن تمنع البَــدرا
وماذا عــلى أُمِّ الحــبيبةِ إذ رأت
جَلاَلة قــَدري أن أكونَ لَها صِهرا[١]

وله فى قصيدة أخرى يتغزل فى ابنة عمه " حبيبة " ويمدح، ويفخر بنفسه أمامها، ويــبرز لهــا محاسنه، مرغباً إياها فيه فيقول:

حمامــةً بَيــتِ العَبــشمين[٢] رفرفــت
فطِــرتُ إليها من سَراتهم صَــقرا
تَقــِلُّ الثــُريا أن تكــون لها يــداً
ويرجوا الصباح أن يكون لها نحــرا
وإنى لطعــان إذا الخيـــل أقبلــت
جوانبها حتى ترى جُــونها شُــقرا
ومُكْــرِمُ ضيفــى حين ينــزل ســاحتى
وجاعــلُ وفرى عند سائلِه وفرا

ويذكر عبد الواحد المراكشي:إن القصيدة طويلة،ولكنه لم يأت منها سوى بتلك الأبيات.[٣]

ويصور لنا أبو عبد الملك مروان بن عبد الرحمن الناصــر الملقــب " بــالأمير الطليــق " (ت ٤٠٠هـــ – ١٠٠٩م) بعض معاني الحب فى أشعاره الرقيقة فيقول:

١- ابن بسام: الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول، ص ٥٥ ،٥٦.

٢- العبشميون: هم بنو عبد شمس.

٣- عبد الواحد المراكشي: المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، ص ٣١.

غصـــنٌ يهـــتزُّ فـــي دعص نقا

يجتـــي منه فـــؤادى حُـــــرقـــاً

باســـم من عِقد دُر خِلتـــــــه

ســـلبته للشــــاه العنقـــــــــا

فتاهـــى الحســـن فـــيـــه إنمـــا

يحســـن الغصـــن إذا مـــا أورقـــا

رقّ منه الخصـــر حتى خِلتــــه

من نحول شــَـــفهٌ قـــد عشقـــا[١]

ولهاشم بن عبد العزيز بن المنذر، فى حبه لجاريته " عاج ":-

وإني عـــداني أن أزورك مطبـــــق

وبـــاب منيـــع بالحديـــد مُضببُ

فـــإن تعجبي يا عـــاج ممـــا أصابـــنى

ففى ريب هذا الدهر ما يُتَعجبُ

كم قائـــل أنـــج ويحك سَـــالـــماً

ففى الأرض عنهم مستراد ومذهبُ

فقلت له إن الفـــــرار مَزلــــــة

ونفسى علـــى الاسواء أحلى وأطيبُ

سأرضى بحكـــم الله فيمـــا ينوبـــنى

وما من قضاء الله للمرء مهربُ

فمن يَكُ أمســـى شـــامتاً بـــي فإنه

سينهل من كأسي وشيكاً ويشرب[٢]

---

١ – إميليو غرسية غومث: الشعر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٢، ص ٤٧.

٢ - ابن عذارى: البيان المغرب، جـــ ٢، ص ١١٦.

وتلك الأشعار كانت بعض ما قيل من شعر الغزل في المرأة. وهنا لم تقف المرأة مكتوفة الأيدى حيال تلك الأشعار التى قيلت فيها، بل كان لها رد.وأحياناً كان الرد صريح وبدون تورية، وبألفاظ وعبارات فيها حرارة العاطفة وصدقها. ونبدأها بتلك الأشعار لحمدة بنت زياد المؤدب وتقول:

ولما أبى الواشـــون إلا فراقـنا

وما لهم عندى وعـندك من ثـــأرِ

وشنوا على أسماعنا كل غـــارة

وقل حماتي عـــند ذاك وأنصاري

غزوتـــهم من مُقلتيـــكَ وأدمعـــي

ومن نفسي بالسيف والسيل والنارِ[1]

ولحفصة بنت حمدون الحجارية (من وادي الحجارة Guadalajara) تقول:

يـــا وَحـــشـــتــــي لأحـــبتي

يـــا وحشـــة متـمـــــاديه

يـــا ليلـــة ودعتهــــــــم

يا ليلـــة هي ما هـــــــــيه[2]

ولها أيضاً:

لي حبيبٌ لا ينثـــني لعتـــاب إذا ـــا تركتـــهُ زاد تيـــهاً

قـــال لـــي هل رأيتِ من شبيـــهِ قـــُلت أيضاً وهل تري لي شبيهاً[3]

وهند جارية أبي محمد عبد الله بن مسلمة الشاطبي، وكانت أدية وشاعرة وكتب إليها يوماً أبو عامر بن نـــيَّـــق . يدعوها للحضور عنده ومعها " آلة العود " قائلاً:-

يـــا هند هل لك في زيـــارة فتـــية

نبـــذوا المحـــارم غير شـــرب السلسلِ

١- بيرس: الشعر الأندلسي، ص ٣٧٥.

٢- المقرى: نفح الطيب، جـــ ٤، ص ٢٨٦.

٣- المقرى: نفس المصدر، جـــ ٤، ص ٢٨٥؛ ولحمدة أشعار أخرى. أوردها المقرى فى نفس الجزء، والصفحة.

سمعوا البلابل قــد شــدوا فتذكــروا

نغــماتِ عــودكِ في الثقــيل الأولِ

فكتبت إليه في ظهر الرقعة:

يــا ســـيــداً حـــاز العُلا عن سادة

شُــم الأنــوف من الطــراز الأولِ

حسْبي مــن الإســـراع نحـــوك أنني

كُــنت الجواب مع الرسولِ المقــبلِ(١)

تلك كانت بعض الأشعار التي قالتها المرأة الأندلسية، تبادل الرجل غزلاً بغــزل. وحاولــت قدر،الإمكان عدم الإطالة،أو الإطناب،فى هذا الشعر،مكتفية بتلك النماذج الشعرية الجميلة المعبرة، التي لا تخرج من أفواه نساء مكممات، غير متعلمات، أو غير مشاركات،فى الحياة العامة والخاصة، بل من أفواه حرة منطلقة ليس عليها قيود. وقبل كل ذلك متعلمة، ومثقفة.حــتى بلغــت هــذا المستوى الرفيع من الرقي والقيمة، وهذا ما حاولنا إثباته.

١- المقرى: نفح الطيب: جـ ٤، ص ٢٩٣، ٢٩٤.

الفصل الرابع.

دور المرأة في المجال الاقتصادي في الأندلس.

أولاً: المهن والصناعات التي مارستها المـرأة الأندلسـية:

أمثلة: [الأطعمة– الأشـربة– الغَـزْل– الفقـه– التوليد– الخاطبة...... وغيرها]

ثانياً:– أسواق الجواري وأنواعهن.

ثالثاً:– حالة الجواري الإقتصادية.

رابعاً:– مكانة المرأة فى المجتمع الإسـلامى الأندلسـي بصـفة عامة.

أولاً: المهن والصناعات التي مارستها المرأة الأندلسية:–

أعطى الدين الإسلامي للمرأة المسلمة حرية كاملة للتصرف في أملاكها وجعل لها ذمة مالية منفصلة بعيدة تماماً عن مال الزوج، فإن شاءت وهبت،وإن شاءت تصدقت من مالها الخاص، بدون الرجوع إلى الزوج أو مشورته. وقد حفظ لها القرآن الكريم حقها فى الإرث، فى آية صريحة لا تحتمل التأويل فيقولُ الله تعالى: ﴿ وللرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون. وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون. مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضا ﴾(1)

وما نريد أن نؤكد عليه هنا أولاً: أن الدين الإسلامي والشريعة الغراء حفظت لها حقها الإقتصادى. بحيث تكون لها ملكيتها الخاصة،وبخاصة فى الإرث،ولا تكون لتلك الملكية وصاية من أحد.

ولكن المستشرق الفرنسي جيشار: يرى شيئاً آخر من خلال تناوله للجانب الإقتصادي في حياة المرأة المسلمة في كتابه " الحياة الاجتماعية " فيقول إن جميع الباحثين وعلماء الإجتماع. يؤكدون على أن " النظريات القرآنية " أو " الأحكام الشرعية الإسلامية " لم تقدم الكثير للوضع الإقتصادي والمادي للمرأة، وذلك لأن الحالة الاجتماعية السائدة وقتئذ كانت تعارض فكرة الاعتراف بالاستقلال الفعلي للمرأة. وفى الأوساط القروية يمكن أن تحرم المرأة من الميراث بمنتهى البساطة، أما فى الأوساط المتمدينة فنجد أن الأحكام الشرعية يمكن أن تطبق أكثر من القرى، وأن تحفظ للمرأة ممتلكاتها.

1- سورة النساء: الآية. رقم (7).

أما فى حالة توريث المرأة إرثاً شرعياً فعليا،بحيث تحصل على ممتلكاتها. فقد جرت العادة.وكذلك التقاليد والعادات الإجتماعية،على عرقلة قدرة المرأة على ممارسة حقها الفعلي في التصرف فى حقوقها، حيث أن كل تصرف يتطلب إجراءات عامة، تلزم المرأة أن تلجأ إلى من يقوم عنها بتلك الإجراءات وهذا الشخص بالطبع سيكون أحد أفراد عائلتها الذكور. ومن هنا يتضح التصدي الإجتماعى السافر لتطبيق القواعد الدينية الصريحة. التى لا تتمشى مع ما اكتسب من عادات وتقاليد، أى التعارض بين الشرع والتقاليد. والعادات الموروثة والتي يرجعها جيشار، إلى تقاليد قبلية قديمة.(١)

وقد قضى عليها الإسلام وكسر شوكتها وألغى بعض العادات القديمة السيئة. ولكن بعض الأوضاع الإجتماعية، كانت راسخة الجذور. بحيث لم يستطع الإسلام إستئصالها من جذورها نهائياً.

أما الأساليب التي لجأ إليها المسلمون المتمدينون من أجل تغيير القوانين التي تضمن حق المرأة فى الميراث، فكانت بعيدة كل البعد عن المطالبة بحرمانها من حقها فى الميراث، غير أنها كانت دائما تؤدى إلى نفس النتيجة، وهي التمسك ولو جزئياً بالتقاليد القبلية القديمة، والدخيلة على الإسلام.(٢)

والحقيقة: أن جيشار قد أصاب إلى حد بعيد فى عرض تلك القضية، ولكن لسنا معه، فى أن الأحكام القرآنية. لم تقدم للمرأة ما يحفظ لها حقها. أما عن ضياع حقها الإقتصادى فى الإرث،فالعيب هنا ليس فى التشريع الإسلامي. وإنما فى القائمين على تطبيق تلك الشرائع، واستكانتهم،وعدم تصديهم بشكل حاسم لحفظ حقوق المرأة.

ومن منطلق تلك الآراء السابقة لجيشار: يسترسل فى موضع آخر حول عدم قدرة المرأة على التصرف فى مالها، حتى بعد أن ترثه بالفعل إلى عدة عوامل، منها: عدم قدرة الكثيرات منهن، وبخاصة المستكينات، الأميات،أو قليلات الثقافةوالمعرفة،البعيدات عن الحياة وتجاربها، والمترويات سواء بإرادتهن أو بدونها.(٣) وعامل آخر: يرجع إلى سطوة وسيطرة رجال العائلة، والتسليم من جانب المرأة بالأمر الواقع، الموروث من عادات وتقاليد قبلية. أصبحت واقعاً ملموساً، بل واختلطت أحياناً بالتشريعات الدينية.

وعامل ثالث هو نظرة المجتمع دائماً للمرأة، على أنها كائن ضعيف يحتاج دائماً إلى من يصرف له شئونه.

١- Guichard (Pièrre): Structures Sociales. Orientales et Occidentales dans l'Espagne musulmane, paris, 1977, p. 76.

٢- Guichard: op. cit. p.76.

٣- Guichard: op. cit. p.75.

والحقيقة: أن جيشار قد تحامل كثيراً على المرأة المسلمة، من خلال تلك الآراء، بــل ينــاقض نفسه وعلى صفحات نفس الكتاب. فيضرب لنا مثلاً بالسيدة خديجة زوج الرسول ﷺ قبل وبعد ظهور الإسلام. وكيف ضربت لنا أروع مثل في إدارة أملاكها وممتلكاتها الإقتصادية.

فقد تمتعت تلك السيدة، باستقلال اقتصادي ومادي كبير، سواء في العصر الجاهلي، أو بعد ظهور الإسلام. وكانت لها ثروة ضخمة تديرها بنفسها.(١)

وأود أن أشير هنا: إلى أن قدرة المرأة إقتصادياً،ترجع إلى أشياء كثيرة منها قدرتها، وشخصيتها، والوسط الذى تعيش فيه، والطريقة التى تربت بها،أو عليها، سواء بالاستقلال، أو الاعتماد علــى غيرها، فى تدبير شئونها. وأيضاً مدى القدر الذى نالته من التعليم. والثقافة، ومعرفة شئون الحياة.

والذى لا جدال فيه، هو أنه عندما يصل المجتمــع بــالمرأة إلى درجــة معينــة مــن الثقــة بالنفس،وبقدراتها،وبمن حولها،نستطيع فى تلك الحالة.أن نقول:إنها قادرة على إدارة شئونها بصرف النظر عن الزمان والمكان.

هذا فيما يختص بوضع المرأة المسلمة إقتصادياً بصفة عامة، أما عن وضعية المرأة الأندلسية في هذا المجال.فيرى الدكتور الأستاذ/ صلاح خالص أن دورها الإقتصادي لم يكن مؤثراً، بينما برز تأثيرها بصورة أكبر، وبوضوح أكثر فى مجال الحياة العلمية والأدبية. ويرجع عدم تأثيرها اقتصادياً إلى إمتلاك الرجل لكل وسائل الانتاج، ومسببات العيش كالأرض والعقار.(٢)

وهذا الرأى مردود عليه؛ لأننا من خلال دراستنا لدور المرأة الأندلسية إقتصادياً، رأينا نمــاذج مشرفة لكثيرات منهن كانت لهن حياتهن الإقتصادية المستقلة. وكانت لهن ملكية خاصة ســواء في العقارات كالأرض والحوانيت أو فى غيرها.

ويبدو أن الأستاذ الدكتور/ صلاح خالص. قد تأثر في هذا الصدد برأى أســتاذه المستشــرق الفرنسي/ ليفي بروفنسال: الذى يرى أن المرأة الأندلسية كانت لا ملكية لها، بل لم تتمتع بأي قدر من الحرية. وأن علاقتها بزوجها كانت تأخذ شكل علاقة السيد بالخادم المطيع الذليل، الــذى لا يستطيع أن يناقش أى رأى، ويستطيع زوجها أن يتسرى بما شاء من الجواري عليها وقتما يشاء.

وقد شمل قوله هذا كل النساء الحرائر والجواري، بل وعامة الناس وخاصتهم.(٣)

١- Guichard: op, cit, p. 75.

٢- صلاح خالص: إشبيلية في القرن الخامس الهجرى، دراسة أدبية تارخية لنشوء دولة بني عبــاد؛ دار الثقافــة. بيروت، لبنان ١٩٨١، ص ٩٠، ٩١.

٣- Lévi Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane. T. III. p. 402
Sanchez Albórnoz " Cloudio": La España Musulmana. T.I. p.294

وهذ الرأى أيضا به بعض المبالغة. فكما ذكرنا من قبل: أن الأندلسيين لم يذلوا النساء.كما فعل غيرهم في المجتمعات الأوربية المعاصرة لهم، بل إنهم على حد تعبير هنرى بيرس: ذهبوا بعبادة المرأة إلى حد بعيد. فقد كانت هي الزوجة والابنة والحبيبة. أما فيما يختص بعادة التسرى،وحق الرجل فى التسرى بأى عدد دون الرجوع إلى المرأة وبخاصة الزوجة، فتلك العـادة لم يوجـدها الإسـلام. وإنما كانت موجودة الفعل. وإن كان الإسلام لم يعمل على القضاء عليها سريعا بل تركهـا كـي تذوب فى المجتمع الإسلامي. وتختفى مع مرور الأيام كما هو حادث اليوم.

والواقع: إن المرأة الأندلسية أسهمت بصورة واضحة فى الحياة الإقتصادية الأندلسية. ودليلنـا على ذلك ما ذكره الفقيه الأندلسي الكبير ابن حزم فى كتابه "طوق الحمامة " فقد قدم لنا فى لمحات خاطفة وسريعة ألواناً من المهن والصناعات التى أسهمت فيها المرأة الأندلسية، أو التى كانت خاصة بها وحدها، فقد عملت مربية ومدرسة لأبناء الطبقات العليا. التى ينتمى هو إليها. فقد اعترف هو شخصيا بأنه تربى في حجور النساء. ونشأ على أيديهن، وتعلم منـهن القـرآن والفقـه،وإجادة الخط.وتذوق الشعر. أما المهن الأخرى التى أوردها ابن حزم. فهي الطبيبة، والحجامة، والسراقة، والدلالة. والماشطة. والنائحة، والمغنية. والكاهنة والمستخفة. والصانعة في المغـزل، ومـا أشـبه ذلك.[1]

وكان من الطبيعي، أن تبرز المرأة في مجال صناعة الأطعمة والأشربة. فيذكر بيرس: أن الشعراء بصفة خاصة اهتموا بتلك الناحية، ووصفوا الكثير من المأكولات، واهتموا أيضا بالمواد التى كانت تصنع منها الحلويات. وذكروا أن الذين يقومون بإعدادها فتيات المنزل وحدهن. ويصنعن العجينة من أرق أنواع الدقيق وأنظفها، وبعد أن تنضج تقطع وتقدم. ومنها ما يقطع بالأيدى بدون سكين لطراوته ونعومته.[2]

وعرفت قصور الخلافة في ظل دولة بني أمية. وكبار رجالات الدولة وظيفة أخرى للمرأة وهي " الراشدة ". وهي ما يمكن أن نطلق عليها بلغتنا الحديثة " مديرة المنزل". وقد أشار الأستاذ/ليفي بروفنسال:فى حديثه عن وظائف القصور، وطبقات أهل الخدمة فيها إلى بعض المهن. ويبدو أيضـا من بعض نصوص المقتبس لابن حيان في القطعة الخاصة بالأميرين/ الحكم بن هشام (الربضي) وابنه عبد الرحمن (الأوسط) أن قصر الأمير كان يشتمل على عدد كبير من القائمـات بالخدمـة مـن النساء، ترأسهن كهرمانة، وتتلوها الوصيفات والطاهيات، ثم " الراشدات، أو المدبرات".

ويبدو من النص أن الراشدات، كن ذوات صلة مباشرة بالأمير، والقائمات على رأسه. وكانت لهن الرياسة على من يدعوهن المؤرخ الخزّانات. وهي وظيفة أخرى. وهن الأمينات اللآتي يعهـد إليهن بحفظ الخزائن المختلفة مثل خزانة الكسوة. وغيرها.[3]

١- ابن حزم: طوق الحمامة في الألفة والآلاف. تحقيق الدكتور/ الطاهر أحمد مكي. الطبعة الرابعة، دار المعـارف. ١٩٨٥، ص ٥٨. الطاهر مكي: دراسات عن ابن حزم. ص ٢٦٨، ٢٦٩.

٢- هنرى بيرس: الشعر الأندلسي. ص ٢٧٢.

٣- بن حيان: المقتبس من أنباء أهل الأندلس. نشر وتحقيق. الدكتور/ محمود علي مكي،القـاهرة ١٣٩٠هـــ . ١٩٧١م . ص ٢٥٩ هامش رقم (٧٩).

ويرى ابن حزم: أن عمل المرأة ضروري، فلابد أن يكون لها مغزل للصـــوف يشـــغلها وإن كانت تبريراته لضرورة عملها به شئ من الطرافة، فيقول: إن النساء إذا جلسن بدون عمل فهن لا يفكرن، إلا في الجماع ودواعية، والغزل وأسبابه.[١] والحقيقة: لا أعرف ما الذى حدا بابن حـــزم لتغيير موقفه من المرأة رغم اعترافه، بثقافتها، وتعليمهـــا، ورجاحـــة عقلها،وفضـــلها عليـــه في تعليمه،وصقله منذ نعومة أظافره.

ويدحض رأى ابن حزم هذا، حول علاقة الرجل بالمرأة. وكيف يشغلها دائماً، ولا يكون لها تفكير سواه، أن كثيرات من نساء الأندلس. وخاصة المشهورات منهن كالشاعرات مثلاً. قد أضربن عن الزواج. وبمحض إرادتهن ورغم ذلك أخرجن لنا روائع من الشعر والأدب العربي، ولم يجلسن فارغات البال إلا من الجماع والغزل ودواعيهما.

ومن المهن التى امتهنتها المرأة وبرزت فيها، أعمال غزل ونسج الصوف والقطـــن والكتـــان وغيره. فقلما نجد بيتاً أندلسياً ليس به منسج؛ وذلك لملائمة تلك المهنة لطبيعة جلوس المرأة لفترات طويلة داخل منزلها. فكان لابد من إيجاد وسيلة لقضاء أوقات الفراغ من جهة، ومن جهة أخـــرى للمساعدة في نفقات البيت وعمل الملابس للزوج و الأولاد، وفي حالات أخرى للإنفاق كلية على نفقات البيت والأولاد. فقد أورد لنا المقرى:مثالاً رائعاً لزوجة أموية مكافحة، مـــات عائلـــها في إحدى الغزوات، وترك لها أولاداً صغارا تربيهم، وهي زوجة " بكار المرواني ". وقد أبت عليهـــا كرامتها كأمرأة مسلمة. وزوجة حرة طلب المساعدة من أي فرد.

فقد زارها صاحب السقط،[٢] عندما علم بخروج زوجها إلى الجهاد، وهو يعلم أنه ليس لديها عائل، لكي يطمئن عليها وعلى أولادها، ورغب في تقديم المساعدة لهم، والنظر في شئونهم. فمـــا كان منها إلا أن ردت عليه بحسم بأنها لا تحتاج المساعدة، وأنها تعمل في مهنة " الغزل " بـــداخل بيتها، و لها عجوز تذهب بغزلها إلى السوق، وتصرف شئونها، وأبت منـــه المســـاعدة الماديـــة أو المعنوية.[٣]

وقصة أخرى أوردها الخشني: حول عمل المرأة في الغزل أيضاً. فيحدثنا عن القاضي " المصعب بن عمران الهمذاني " أحد من تولى القضاء للأمير هشام بن عبد الرحمن " الرضا ". فقد أرسل إليه

١- ابن حزم: طوق الحمامة. ص ٧٩.

٢- والمعروف أن صاحب " السقط " أو" السقطى" هو بائع الردئ من المتاع، و هي أحشاء أو أمعاء الحيوانـــات المذبوحة.

٣- المقرى: نفح الطيب، جـــ٣، ص ٣٣٩، ٣٤٠.

وقد ذكر المقرى:تلك القصة فى صفحات طويلة، بداية من صداقة صاحب السقط" لبكار المـــروانى "مـــسروراً خروج بكار للجهاد،وموته،وتلقى زوجته خبر وفاته،وصمودها في تربية أولادها؛ راجـــع القصـــة كاملـــة في المقري: نفس المصدر. جـــ ٣، ص ٣٣٤ وما يليها.

يوماً رسولاً يطلبه لمقابلة الأمير هشام في أمر ما، فأتاه الرسول فوجد زوجته تنسج في منسج لها. والمصعب جالس معها بين يدي المنسج يعمل لها الوشائع.[١] ففتحت المرأة باصبعها فى المنسج. ثم قالت لزوجها: تذهب وترد القضاء عليه، كما رددته على أبيه من قبل، ثم ترجع لعملك فى وشائع المنسج.[٢]

ويبدو من تلك القصة الطريفة، أن أعمال النسج في المنزل لم تكن حكراً على النساء فقط. بل كان الرجل يمكن أن يساعد فيها أحياناً، والمرأة في طبقة العامة بصفة خاصة. كانت إلى جانب عملها الأساسي في تدبير شئون المنزل وتربية الأطفال. تقوم بمساعدة زوجها في كسب العيش. فتحدثنا كتب الحسبة عن العديد من النساء الأندلسيات. وكيف كن يعملن فى غزل الصوف وبيعه فى سوق مخصص لتلك السلعة، ويعرف بسوق الغزل.[٣]

فيقول ابن عبد الرؤوف: في رسالته للحسبة أن النساء كن يقمن إلى جانب غزل الصوف بغزل القطن والكتان.[٤] وبعض النساء كن يقمن " بالتدليس " والغش فيما يصنعنه، كما تحدثنا كتب الحسبة عنهن. وذلك برش الكتان بالماء ووضعه في الأماكن الرطبة الندية قبل بيعه مباشرة، وذلك ليكتسب رطوبة ونداوة ويزيد وزنه عند البيع. وكان المحتسب ينهي الرجال والنساء على السواء ممن يقومون بتلك الأفعال، بل ويأمرهن بتيبيس الغزل، ووضعه فى الشمس، ومن ينهاه المحتسب، ويعود لفعلها مرة أخرى، يعرض نفسه للعقوبة.[٥]

وكانت للنساء سوق خاصة بهن يجتمعن فيها لبيع غزلهن، ولا يجلسن فى الحوانيت العامة ببضاعتهن، ووضعت شروط خاصة لمن يتعامل مع النساء فى أسواقهن بالبيع والشراء. فلابد أن يشترى بأدب.

وبعض النساء كن لا يذهبن بأنفسهن إلى السوق لبيع منتجاهن، بل يرسلنها إلى السوق مع ثقات مثل شيخ كبير السن عُرف عنه الأمانة ، والفضل . فذلك الشيخ يمكن له أن يخالط النساء فى البيع والشراء بدون أن يتعرض كلا الطرفين للحرج. أو يرسلن بمنتجاهن مع سيدات قعيدات. أي كبيرات السن انقطع عنهن الرجاء، ويثقن بهن أيضاً.

١- الوشائع: هي خيوط المنسج أو النول.

٢- الخشني: قضاة قرطبة، ص ٢٥.

٣- كمال أبو مصطفى: مالقة الإسلامية، ص ٦٦.

٤- ابن عبد الرؤوف: ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة و المحتسب، نشر الأستاذ/ ليفى بروفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة١٩٥٥ م، الرسالة الثانية. ص ٥٥.

٥- ابن عبد الرؤوف: نفس المصدر. ص ٨٧.

وكانت الأسواق تتعرض لرقابة المحتسب.ويعاقب كل من يتعرض للنســاء في أســواقهن.[١] ويذكر ابن حزم:أن مكان تجمع النساء في قرطبة كان عند باب العطارين. وهو أحد أبواب مدينة قرطبة السبعة. ويقع فى الجانب الغربي للمدينة. وكان حول هذا الباب تقوم تجارة العطور، وأدوات الزينة. وكما هو واضح فإن تلك الأشياء من أهم مستلزمات النساء، فلذلك أصبح هذا المكـــان ملتقى للنساء من أنحاء المدينة، وعلى مقربة من تلك البقعة. كان يقع حي الرقـــاقين أي صـــانعوا الرقاق المستخدم في صناعة الحلوى.[٢]

وكان يمكن للمرأة: أن تذهب إلى السوق " للحجامة " أى الفصد، وهي عبارة عن وسيلة طبية قديمة وشائعة لمعالجة بعض الأمراض. وكان المحتسب ينهي الحجام عن عدم الخلـــوة بالنســـاء في حانوته. ويجب أن يكون له مكان واضح وبارز فى السوق. تراه كل الأبصار بوضوح مـــن كـــل موضع . حتى يكون تحت أعين ورقابة المحتسب باستمرار.[٣]

ومن الأعمال التى مارستها المرأة الأندلسية المسلمة أيضاً بمهارة " تربية دود القز". والذى كان يستخرج منه أرقى أنواع الحرير. ويذكر المقرى:أن مدينة " جيان الإسلامية" كانت هي المدينـــة الرئيسية التي يربى فيها دود الحرير، لكثرة اعتناء ساكنيها فى البادية والحضـــر بـــدود الحريـــر، وتربيته.[٤]

ومارست المرأة الأندلسية أيضاً الاشتغال بالعلوم الدينية. فقد كانت "عابدة المدينة " تروي عن الإمام مالك بن أنس. وقال بعض الحفاظ أنها روت عن الإمام مالك بن أنس. عشرة آلاف حديث حفظاً، ولعلمها، وفضلها، إتخذها حبيب بن الوليد المروانى " أم ولد" .[٥] " ورشيدة" التي كانت تقوم بجولات علمية فى أنحاء بلاد الأندلس. تعظ النساء وتعلمهن وتذكرهن. وكان لها صيت كبير في الأوساط الأندلسية، واتصفت بالخير.[٦]

وامتهنت المرأة كذلك تلاوة القرآن الكريم بالأجر، وخاصة في المآتم. وكانت النساء تقـــرأ " للنساء" في مجلسهن. وإذا لم توجد إمرأة قارئة يستعاض عنها برجل من العميان. يقرأ علـــيهن في

١- ابن عبد الرؤوف: المصدر السابق. ص ٨٧.

٢- ابن حزم: طوق الحمامة، ص ٤١. هامش رقم (٤).

٣- ابن عبد الرؤوف: نفس المصدر. ص ٤٦.

٤- المقرى: نفح الطيب. جـ ٣، ص ٢١٧.

٥- الشكعة: في الأدب الأندلسي. ص٤٥.

٦- ابن عبد الملك: الذيل والتكملة. جـ ٢، ص ٤٨٥.

تجمعهن من وراء حجاب. بحيث يصل إليهن الصوت فى المكان الذى يجلسن فيه. دون أن يراهن أو يروه.[١]

ومن المهن التى امتهنتها المرأة الأندلسية مهنة " القضاء". ولكن بصفة غير رسمية. فيحدثنا المقري: عن قصة طريفة، لزوجة قاضي مدينة " لوشة "، وكيف كانت تساعده كثيراً. فيما يستعصي عليه الفصل فيه من القضايا لأهل الأندلس، فمع اتساع المجتمع، وتشعب قضاياه، ظهرت الكثير من المشكلات والقضايا الخطيرة، والمستعصية، بين المتقاضين. وعندما كانت تصل القاضي، قضية يستعصي عليه حلها. أسرع إلى زوجته يستنجد برأيها، أو بحكمها، فتشير عليه بما يحكم به.[٢]

وهذا في رأيي:لا ينقص من مقدار القاضي، فالنساء يكون لهن أحياناً نظرة خاصة في أمور معينة،تصعب على الرجل. حتى لو كان قاضياً، ورغم ثقة القاضي في زوجته ورأيها، إلا أنه لم يَسلم، من ألسنة الأندلسيين اللاذعة، وكتب إليه أحدهم مداعباً يقول:-

بلوشة قاضي له زوجـــاً ... وأحكامها في الورى ماضية

فيـــا ليـــته لم يكن قـــاضياً... ويـــا ليتها كانت القاضية

ويطلع القاضي زوجته، على تلك الابيات، التي قيلت فيها، فما كان منها إلا أن تناولت القلم، وكتبت على البديهة، معرضة ومنتقدة بالبيتين:-

وشـــيخ ســـوء مزدرى ... لـــه شـــيوب عـــاصية

كـــلا لـــئن لم يـــنـــتهي... لنـــسفعـــن بالنـــاصية[٣]

ويبدو من خلال ردها، وسرعة بديهتها. أنها على قدر كبير من العلم، والأدب، والتفقه في الدين. وامتهنت المرأة الأندلسية كذلك مهنة الطب. وبرزت منهن في تلك المهنة. أم الحسن بنت القاضي أبي جعفر الطنجالى، من أهل مدينة لوشة. وكانت نبيلة، وحسيبة، وتجيد قراءة القرآن.

وقد خلفت أم الحسن وأقرت،مسائل طبية كثيرة، وذُكرت في "خاتمة الإكليل"،[٤] بما نصه.ثالثة حمدة وولادة، وفاضلة الأدب،وتقلدت المحاسن من قبل ولادة. وقد نشأت في حجر أبيها، ولم يدخر

١- السقطى: (أبي عبد الله محمد بن أبي محمد السقطي) فى آداب الحسبة، نشر/ كولان وليفى بروفنسال، باريس ١٩٣١م، ص ٩٨.

٢- الشكعة: فى الأدب الأندلسي، ص ٩٨.

٣- الشكعة: نفس المرجع، ص٩٠.

٤- خاتمة الإكليل:هو كتاب لابن الخطيب،ويسمى " الإكليل الزاهر فيمن فصل عند نظم الجواهر" .

عنها وسعا في تعليمها وتهذيبها. حتى ظهرت مداركها في المعرفة. ودرست الطب. وفهمت أغراضه، وعلمت أسبابه، وأعراضه.[١]

ومن المتقدمات في الطب أيضاً " أم عمرو بنت أبي مروان بن زهر". ووصفت بالمهارة في التدبير والعلاج، فكانت تلج قصور الأمراء، وتنظر في علاج مرضاهم. ونسائهم، وأطفالهم،وإمائهم. وكانت تستفتى في الطب لرجالهم، فتزيد بذلك مكانة على مكانتها. التي يقتضيها مجدها الكبير. وشرفها العظيم.[٢]

ورغم تلك الأمثلة الواضحة، لبعض النماذج النسائية، في ممارسة مهنة الطب، إلا أن ابن عبدون: له رأى آخر. ففي رسالته للحسبة ينكر عليها القيام بهذا الدور.وهذه المهنة بالذات، ويقول: " إن المرأة لا يجب عليها ممارسة مهن معينة. ومنها بصفة خاصة مهنة الطب. ذاكراً أن خطأ الطبيب،دائماً يكون جسيماً.ولا يستره إلا التراب، والمرأة غير مؤهلة.أو قادرة على القيام بهذه المهنة لما بها من جهل، وخطأ أكثر من الرجال.[٣]

ولا نعرف على أي أساس. كون ابن عبدون هذا الرأي القاسي عن المرأة، رغم المتعارف عليه، منذ صدر الدولة الإسلامية. بأن تلك المهنة، من المهن التي خُلقت أساساً للمرأة، لما تتطلبه من رحمة، وعطف، تتوافر في المرأة أكثر من الرجل، وربما لو عاش ابن عبدون في عصرنا هذا. ورأى ما وصلت إليه المرأة في مهنة الطب " ربما كان قد غير رأيه ".

ويتضح مما أورده السقطي. أن هناك بعض النساء، اللاتي كن يقمن بعمل خبز في منازلهن، زيادة عن حاجتهن. ويبعنه في الأسواق. وأن الغالب على مدن الأندلس شراء الخبز يومياً من الخباز.[٤]

ومن المهن الرئيسية التي برعت فيها المرأة بشكل خاص.وحتى يومنا هذا مهنة " التوليد"، وكانت المرأة التي تمارس تلك المهنة تسمى " القابلة ". وقد أورد لنا ابن خلدون، بشئ من الإسهاب والتفصيل.ما تقوم به القابلة في عملية التوليد، وكيف تكون معينة على إخراج الوليد، ويكون لديها من الخبرة ما يساعدها في حالات تعسر عملية الولادة. ويضيف ابن خلدون، أيضاً. في أن تلك المهنة مختصة بالنساء دون الرجال في غالب الأمر؛ لأنهن ظاهرات بعضهن على عورات بعض.

١- ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، المجلد الأول، ص ٤٣١، ٤٣٢.

٢- ابن عبد الملك: الذيل والتكملة. جـ ٢، ص ٤٨٣.

٣- ابن عبدون: رسالة في الحسبة. الرسالة الأولى، ص ٤٦.

٤- كمال أبو مصطفى: مالقة الإسلامية، ص ٧٣.

وكلمة القابلة استعير منها معنى " الإعطاء والقبول " كأن النفساء تعطيها الجنين، وكأنها تقبله منها.[١]

ويضيف ابن خلدون: أيضاً. بأن القابلة لابد أن تكون مدربة، وعلى دراية باستعمال بعض أنواع المراهم والأدوية التى تلزم المولود وأمه، وعلى ما يلزم المولود لحظة الميلاد، وحتى الفصام أى " الفطام ". ويضيف ابن خلدون: بأن هؤلاء القوابل، كن أعلم وأبصر بهذه الأمور من الطبيب الماهر.[٢] وتلك شهادة عظيمة من مؤرخ علامة، عُرف عنه الدقة في الرأى، وفي تحري الصواب عن مهارة المرأة، بل وتفوقها على الرجل في تلك المهنة الخطيرة التى تمس حياة كل إمرأة. وكانت القوابل يتقاضين في العادة أجوراً عالية، وبعد أن يولد الطفل كانت تختص به امرأة أخرى، ولها وظيفة أخرى، وهي " الحاضنة " أو " المرضعة " وهي التى تقوم على رعاية الطفل، من لحظة الولادة حتى يكبر. ويشب. ودائماً كانت تتم تلك الرعاية في بيت الأب، أما إذا كان الأب ميسوراً ومقتدراً. فيعهد بالمولود في حالات كثيرة، إلى امرأة " قروية". تحمله إلى الريف، ويبقى فى حضانتها، ورعايتها، حتى الفطام. وقد وصلت إلينا عقود في هذا الشأن تحدد الشروط الواجب توافرها في الحاضنة، وأيضاً أهل الطفل.

فكان على الأب أن يدفع للحاضنة، راتباً شهرياً متفق عليه، بالإضافة إلى الملابس ومن جانبها تلتزم بإرضاع الطفل،ونظافته. جسماً، وملبساً حتى يكبر.[٣]

ويمدنا ابن بسام.بنموذج آخر رائع للمــرأة المسـلمة الأندلســية المكافحــة الــتي يمــوت عائلها،فتتحمل بكل شجاعة مسئولية تربية أولادها.وجاء حديث ابن بسام: عنها فى سياق حديثه عن ابنها الأشهر.دون باقي أولادها،هو الأديب والشاعر أبي بكر محمد بن عيسى الداني، المعروف " بابن اللبانة"، ويقول: كانت أمه " امرأة بزرة، فارسة، صاحبة مكيال وميزان. وكانــت امــرأة صدق، وفي حرفتها صاحية حق.مشتغلة ببيع اللبن، مقبلة على ما يعينها من حال زمانها. " حــتى غلب اسم اللبن عليها ونسب أولادها إليها. وبرز من أبنائها " أبي بكر" وأخيه عبد العزيز، إلا أن أبا بكر، كان أوسع أبنائها أدباً، وأكثر من حمل اسمها من أبنائها. فاشتهر في التــاريخ الأندلســي باسم" ابن اللبانة".[٤]

١- ابن خلدون: المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م. ص ٤٣٩، ٤٤٠.

٢- ابن خلدون: نفس المصدر. ص ٤٤٠.

٣- الطاهر مكي: دراسات عن ابن حزم، ص ٤٣؛ كمال أبو مصطفى: مالقة الاسلامية، ص ٦٩.

٤- ابن بسام:الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الثالث، المجلد الثاني. رقم (٦) ص ٦٦٧؛ العبادى: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية هامش رقم (٣)، ص٣١٥؛ صلاح خالص: إشبيلية في القرن الخامس الهجرى. ص ٩١، ٩٢.

ونرى من خلال تلك القصة:أن أعمال المرأة في المجال الاقتصادي.لم تقتصر على الأعمال التقليدية، داخل جدران المنزل، كغزل ونسج الأقمشة فقط،بل تمكنت من اتخاذ "حانوتاً " تعمل به خارج حدود منزلها. وخاصة المرأة من طبقة العامة، والتي دائماً ما تعبر أصدق تعبير، عن وضع المرأة في أي مجتمع، ومثالنا على ذلك أم شاعرنا" ابن اللبانة".

وأشارت لنا كتب الفتاوى والنوازل إلى وجود " الخاطبة " في بلاد الأندلس والمغرب، وهي التي تقوم بالتمهيد والإتفاق بين المتقدم للزواج، وأهل العروس. فيذكر الونشريسي: أنه عقب هذا الإتفاق. يرسل الخاطب والده وإخوته وبعض أقاربه، ومن تقبل شهادقم إلى دار العروس، للإتفاق على كل ما يتصل بعقد النكاح، خاصة من ناحية مطالب والد العروس.[١]

ويبدو أن دور الخاطبة. كانت تختص به النساء العجائز بصفة خاصة. فيقول ابـن حـزم: إن النساء العجائز، كـن يلعـبن دوراً هامـاً في تهيئـة الظـروف بـين الخطيـبين، فـالمرأة إذا أسنت،وصلحت،وانقطع عندها الرجاء إنصرفت إلى العبادة

وتنسكت بعمل الخير، فهي تذلل العوائق،وتحمل الرسائل، وتحفظ السر، وأحب الأعمال إليها، وأرجاها للقبول سعيها في تزويج يتيمة، أو إعارتها ثيابها، وحليها لعروس مُـقلة.[٢]

وكن هؤلاء العجائز، يقمن أحيانا بمهنة "ساعي البريد ". بين محبين، وذلـك لأن دخـولهن إلى البيوت سهلاً وميسوراً، ولا يخشى خطرهن على أهل البيت، ولذلك كن ينفـذن إلى الحجـب المصونة، ويخترقن الأستار الكثيفة، والمقاصير المحروسة،ويصفهن ابـن حـزم:في"الطـوق" بـأنهن صاحبات العكاكيز، والتسابيح، والثوبين الأحمرين، وبحكم السن، والخبرة الطويلـة في الحيـاة،لا يبخلن على الفتيات الشابات بالنصائح الثمينة.[٣]

وكانت المرأة الأندلسية.تخرج بانتظام، إلى النهر لغسل الملابس، وكانت لهن أماكن محددة من النهر. مخصصة لهن، بحيث تكون بعيدة عن أماكن السقاية وبعيداً عن أعين المتطفلين، والمتسكعين، ويمنع المحتسب العاطلين من التسور عليهن، في ذلك الموضع، حتى يأخذن حريتهن في غسل الملابس دون رقابة، أو مضايقة.[٤]

ويقسم النهر إلى أماكن منفصلة، لكل من الرجال والنساء. ومعروف لماذا. لأن كلاهما يمكن أن يتحرر من بعض ملابسه على ضفاف النهر. ففي تحديد الأماكن. صيانة لكل منهما.[٥]

١- الونشريسي: المعيار المغرب، جـ ٣، ص ١٢١، ١٩٠، ٢٤٨؛ كمال أبو مصطفى: مالقة الإسلامية، ص٦٠.

٢- ابن حزم: طوق الحمامة، ص ٥٨ ؛ الطاهر مكي: دراسات عن ابن حزم، ص ٢٦٩، ٢٧٠.

٣- الطاهر مكي: نفس المرجع، ص ٢٦٩، ٢٧٠.

٤- ابن عبد الرؤوف: ثلاث رسائل في الحسبة، الرسالة الثانية، ص ٣٢.

٥- ابن عبد الرؤوف: نفس المصدر، ص ٤٦.

ومن المهن التي مارستها النساء ايضا " المثاقفة " أو الفروسية. ويحدثنا المؤرخ الفرنسي جيشار Guichard عن شخصية نسائية غنائية.عاشت في أواخر القرن الحادي عشر، وأوائل القرن الثاني عشر الميلادي، وتدعى Guibourc.

وكانت زوجة رائعة لحاكم " برشلونة ". وكانت إمرأة ذات نشاط واضح، وقادرة على ممارسة شئون الإدارة،في الإمارة، أثناء غياب زوجها وبعد فشله في إحدى المعارك، وإستسلامه لليأس، تحملت تلك المرأة، تبعة إعادة إنشاء حامية مكونة من " ٣٠٠٠٠" ثلاثون ألف جندي، وحدها.[١]

ومارست الجواري أيضاً صناعة"الثقاف""والمجادلة"و"الحجفة"[٢] و"اللعب بالسيوف"و الأسنة والخناجر،وغير ذلك من فنون المبارزة والنزال.[٣] وأبرز شخصية نسائية في مجال الفروسية في الأندلس.كانت " جميلة بنت عبد الجبار المصمودى" أخت محمود بن عبد الجبار. وقد ذكرها ابن حزم في " جمهرة أنساب العرب " وقال عنها: " جميلة أخت محمود بن عبد الجبار المشهورة بالشجاعة،والنجدة،والفروسية،ولقاء الفرسان ومبارزتهم في العساكر".[٤]

وقد عُرفت جميلة،بجمالها البارع،وتفوقها في الفروسية.وظهر ذلك حينما شاركت أخاها في ثورته التي فجرها في مدينة ماردة، ضد الحكومة المركزية في قرطبة، وصحبت أخاها إلى مملكة ليون، فراراً من جيوش قرطبة، التي سيرها إليهم الأمير عبد الرحمن الأوسط، لاخماد ثورتهم. وقد أكرمها ملك ليون الفونسو الثاني. إكراماً تجاوز كل تقدير في الحسبان، فأقاما لديه مدة طويلة، ومنحهما قلعة بورتولاميجو Portolamego في جنوب البرتغال.كي يتخذها محمود بن عبد الجبار، مع أتباعه، مركزاً لشن غاراته على المسلمين.

ولكن أخاها قتل بعد ذلك، وعندما شاهدت جميلة مصرع أخيها، أمام بصرها. انطلقت تقاتل العدو بضراوة وعنف، إلى أن سقطت أسيرة في أيدي النصارى،وأرغمت على الزواج،من أحد قوامس جليقية Galicia،وأنجبت ولداً،أصبح فيما بعد أسقفاً لمدينة شانت ياقب Santiago de Compostela.[٥]

١- Guichard: Structures Sociales, p. 90.

٢- الثقاف: أداة من خشب. أو حديد، تثقف بها الرماح لتستوي وتعتدل، والمجادلة: أي المناظرة، والحجفة: الترس من جلود.

٣- علي عبد العظيم: ابن زيدون حياته وشعره، ص ٧٠.

٤- ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص ٥٠١.

٥- سحر سالم: مظاهر الحضارة في بطليوس، رسالة دكتوراة/ نوقشت بآداب الاسكندرية سنة١٩٨٧، ص ٢٤٤.

محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الاندلس، العصر الأول، القسم الأول، ص ٢٥٧، ٢٥٨.

ولم تكن الأعمال المنزلية التقليدية، حكراً على النساء فقط. فقد شارك الرجل، وبخاصة عندما يقيم بمفرده،ويكون مضطراً إلى خدمة نفسه. فيروى الخشني:عن القاضي محمد بن سلمة.قاضي الجماعة في قرطبة، دخلت عليه يوماً إمرأة إلى داره تستفتيه. في مسأله فقيهة. وكان الوقت قبل صلاة الظهر. وهو وقت راحة على ما يبدو بالنسبة للأندلسيين. وقد كان متخففاً من ثيابه وليس على استعداد لاستقبال أحد. وعندما قرعت المرأة عليه الباب خرج إليها. وكانت لا تعرفه. فنظرت إلى يديه. فوجدت عليها آثار " عجين " أي كان يعجن. فطلبت منه أن يخبر القاضي بحضورها.فقال لها: اذهبي إلى المسجد، وسيلحق بك القاضي. فلما فعلت جاء وراءها وعرفته.[١]

ولعب الدور الإقتصادي للمرأة، دوراً كبيراً في حياة الجواري بصفة خاصة. فقد كانت الجارية التي تتقن بعض الصناعات،تكون أغلى من مثيلاتها فى السوق. وذلك لأن مشتريها يستفيد منها إقتصادياً أكثر من مثيلاتها اللآتي لا يتقن صناعة، ويروى في هذا المعنى: أن القاضي محمد بن بشر المعافري، رحل يوماً إلى الديار المصرية مع صاحب له، فأراد صاحبه شراء جارية تؤنسه في غربته، وذهبا معاً إلى سوق الرقيق، فوجد أن الجواري،اللاآتى لديهن صناعة، أغلى ثمناً من مثيلاتهن، المتخذات للذة والمتعة فقط.[٢]

وكانت المرأة الأندلسية،تطبق عليها القوانين المعمول بها، مثلها مثل باقي أفراد المجتمع.إذا ارتكبت شيئاً مخالفاً،سواء في تجارة،أو غش،أو تدليس،وما إلى ذلك.وتحدد لهن العقوبة على قدر الجرم. الذى ارتكبنه. ويودعن في السجن مثلهن مثل الرجال. ولكن كان لهن سجن خاص بهن، بعيداً عن سجن الرجال. ولا يكون سجانئهن،إلا شيوخاً،معروف عنهم العفة والسيرة الحسنة بين الناس. وعادة كان سجن النساء لا يطول مثل الرجال، ولكن من الضروري،أن يحكم القاضي على من يجب عليها العقاب، في أي حكم من الأحكام بدون تفرقة.

وأحياناً،كانت توضع من يُحْكم عليها بالسجن، لدى إحدى النساء الفضليات، المعروفات، والمشهورات، لدى القاضي بحسن سيرتهن وسلوكهن، وتمكث معهن السجينة لحين انتهاء مدة عقوبتها، وذلك نظير أجر معين يقدره القاضي، ويؤخذ من بيت المال.[٣]

وكانت هؤلاء السجانات. يتخذن من بيوتهن مكاناً للإشراف على السجينات اللآتي يودعهن القاضي لديهن.[٤]

١- الخشني: قضاة قرطبة، ص ٩٥.

٢- الخشني: نفس المصدر، ص ٣١، ٣٢.

٣- ابن عبدون: ثلاث رسائل في الحسبة، " الرسالة الأولى"، ص ١٩.

٤- ابن عبدون: نفس المصدر. والصفحة.

وعرفت الأندلس، كما عرفت غيرها من الأقطار الإسلامية، مهنة آخرى للمرأة، وإن كانت ليست جديدة. فقد كانت موجودة إلى وقت ليس بعيد. وهي " النائحة ". وهي التي تستأجر للبكاء على الميت. وكان لها طقوس معينة، تستعملها في آداء مهمتها، كالصراخ، والندب، وما إلى ذلك.(١) ويبدو أن النائحة. كانت تتقن عملها بحكم احترافها له. مما جعل ابن عبد ربه يقول عنها: " وليست النائحة الثكلى، مثل النائحة المستأجرة ".(٢)

وكان القاضي يمنع النساء من النواح والصراخ على الميت، ويذكرهن بأن إجتماع النساء على الميت مكروه، وإن لم يمنع خروجهن إلى الجنائز،واكتفى بأنه مكروه.(٣)

وامتهنت المرأة الأندلسية أيضاً، مهنة " الغاسلة " وهي التى تخرج لغسل المرأة الميتة. وكانت الغاسلة لها طقوس خاصة، إذا خرجت يوماً لأداء عملها، وذلك بأن تذهب أولاً،إلى المحتسب،وتأخذ منه ورقة،وتجعلها في مكان بارز فوق عصابتها على رأسها، أو مخيطة في إيزارها، حتى يعلم الناس أنها غاسلة.(٤)

ويبدو أن إشتراط هذا الشرط على الغاسلة. كي يعلم الناس بما حدث. فيذهبون لأداء العزاء.

ومن عادات نساء الأندلس،الخروج إلى المقابر.وذلك في الأيام الأولى من فقد الميت، أو في الأعياد، ويتم ذلك تحت مراقبة القاضي والمحتسب. كي لا تتعرض النساء لمشاكسات المتعطلين، ممن ينتهزون فرصة هذه التجمعات النسائية. ويذهبون لاستراق النظر إليهن.(٥)

وكما ذكرنا، فقد اهتمت المرأة الأندلسية المسلمة، اهتماماً خاصاً، بنسخ وكتابة المصاحف الشريفة.بكل الخطوط العربية المعروفة فى المشرق والمغرب، بالإضافة إلى الخطوط الخاصة بالأندلس.فيحدثنا ابن فياض:بأن الربضي الشرقي من قرطبة.كان به مائة وسبعون امرأة، كلهن يقمن بكتابة" القرآن الكريم".(٦) هذا في ربض من أرباض قرطبة. فما بالنا بجميع الأرباض، بل والمدن الأخرى،التي تضارع قرطبة، اهتماما بالعلوم والثقافة، ولا يسعنا بعد هذا العرض لدور المرأة الإقتصادي، سوى أن نقول: بأن المرأة الأندلسية. لم تعرف الكسل والخمول، بل شاركت بإيجابية كاملة، في كافة المجالات الإقتصادية، سواء من داخل بيتها، أو خارجه.

١- السقطي: في آداب الحسبة. ص ٩٨.

٢- ابن عبد ربه: (أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي) طبائع النساء، جزء منقول من كتاب العقد الفريد، تحقيق الأستاذ/ محمد ابراهيم سليم، مكتبة القرآن للطباعة والنشر ١٩٩٢ م، ص ١٧٧.

٣- ابن عبد الرؤوف: رسالة فى الحسبة، الرسالة الثانية ص ٧٧.

٤- Dozy: Noms de Vêtementes. p. 29.

٥- بن عبدون: رسالة في الحسبة. الرسالة الأولى، ص ٢٧.

٦- Ribera y Tarrago: Disertaciones y Opusuculos. Tomo I. Madrid. 1928. p. 346.

ثانياً: أسواق الجواري وأنواعهن:-

يرى المستشرق الفرنسي جيشار Guichard. أن تدني وضـع المـرأة في مجتمـع مـا قبـل الإسلام.يرجع بصفة عامة وأساسية. إلى عمليات السبي،التى كانت تتعرض لها المرأة، وكانت تلك العمليات من أهم أسباب. جلب العار على ضـحاياها،في حـين كانـت تعـد مـن دواعـي الشرف،والعزة.للطرف الآخر المُغير.[١]

والحقيقة: أن جيشار في هذا الرأى. قد أصاب إلى حد بعيد، ويؤيد ذلك ما جاء في كتاب الأغاني للأصفهاني. الذى تناول هذا الموضوع، وأبرز كيف كانت عمليات السبي، التى تتعرض لها المرأة: من أهم الأسباب، التي أدت إلى ظاهرة

"وأد البنات".فيحدثنا عن المشمرج اليشكرى.الذى أغار يوماً.على قبيلة بنى سعد، واسـتاق منهم أموالاً ونساء كثيرة.وكان من بين السبايا،امرأة لها مكانة كبيرة في قبيلتها. إصطفاها عمرو بن المشمرج لنفسه، فذهب رجال من قبيلتها لافتدائها، وفك أسرها: وإرجاعهـا مـرة أخـرى إلى قبيلتهم.

فجعل عمرو بن المشمرج، لها أمرها في يدها. إن شاءت رجعت وإن شاءت بقيت ففضلت البقاء، فأغضب ذلك أحد الرجال البارزين، ممن ذهبوا لفك أسرها، فعاد إلى قبيلته " ووأد" كل بنات القبيلة، وجعلت هذه العادة سنة. إقتدى بها جميع العرب من بعده فكان كل من تولد له أنثى، يئدها خوفاً من المذلة والعار.[٢]

ويضيف جيشار: حول هذا الموضوع أيضاً،أن الإسلام، والسور القرآنية.لم تتصـدى بشـكل قاطع لنظام السبي والسبايا.[٣] ويبدو أن جيشار: قد وقع في خطأ كـبير، إذ أن ظـاهرة السـبي والسبايا. لم يوجدها الإسلام، بل كانت موجودة بالفعل، قبل ظهور الإسلام، وخير مثـال علـى ذلك، ما ذكرناه من قبل عن مجتمع ما قبل الإسلام.

ولا شك، أن تلك العادة، مثلها مثل عادات كثيرة، كشرب الخمر مثلاً، إذ لم يستطع الإسلام، نظراً لتفشي تلك الظاهرة، واشتدادها، العمل على إلغائها مرة واحدة، ولكنه عمل على إلغائها. والقضاء عليها بالتدريج. فوضع لها نظام الفدية، وحسن المعاملة، وتحرير الرقاب، وهذا الإلغاء

١- Pièrre Guichard: Structures Sociales. p. 41.

٢- الأصفهاني: كتاب الأغاني. صححه الأستاذ/ أحمد الشنقيطي، مطبعة التقدم، الجزء الثـاني عشـر، ص ١٤٣. ١٤٤ بدون تاريخ.

وللمزيد من التفاصيل، حول هذا الموضوع المتصل بعمليات السبي. راجـع الأصـفهاني: نفـس المصـدر. ص١٤٣، ١٤٤.

٣- Guichard: op, cit. p. 78.

التدريجي من المنظور الإسلامي. لم يؤد إلى إنتكاسة. فيما لو ألغي مرة واحدة، وإنما سيؤدي حتماً، في نهاية هذه الظاهرة على المدى البعيد. وهذا ما حدث بالفعل.

ويضيف جيشار: في نقطة أخرى حول هذا الموضوع أيضاً، فى قوله: إن طبقة العبيد في المجتمع الإسلامى، اختلفت اختلافاً تاماً عن باقي المجتمعات السابقة، واللاحقة. لغير المسلمين. من حيث الدور، الذى قامت به فى تلك المجتمعات، حيث كان دور العبيد فيها إقتصادياً في المقام الأول، أى أن الاستفادة منهم كانت اقتصادية في كافة المجالات والأنشطة.

أما فى المجتمع الإسلامى. فقد كانت مشاركة العبيد في النشاط الاقتصادي، والإنتاجي ضـئيلة جداً، سواء كانوا في القرى، أو في المدن، وانحصر دورهم على أعمال الخدمة والجـيش والإدارة، وأحياناً يكون لهم في المجال السياسى، مع عدم تسخيرهم اقتصادياً.

وقد أدى ذلك، إلى تحسين أحوالهم، في ظل النظام الإسلامي، وبدأ انتماء العبيد. يزداد شيئاً فشيئاً. على عكس ما كانوا عليه في الحضارات السابقة، وبدأ توغلهم يزداد، إلى أن ذابوا تماماً في المجتمع الإسلامي.[١]

والإماء أو الجواري. نقصد بهن هنا النساء المملوكات اللاتى يبعن بيع العبيد. وقد وجُدنا بأعداد كثيرة في أعقاب الفتوحات الإسلامية. وكن يملأن قصور الحكام والخلفاء. فقد أباح الإسلام للمسلم، أن يتملك من الأعداد ما شاء. ولم يحدد عدداً معيناً كالزواج، الذى حددته الشريعة، بأربع زوجات فقط. وكانت الجواري من أجناس. وأشكال مختلفة. ولم يكن بينهن وبين الرجال، الذين يشتروهن حوائل كالحجاب، عند الحرائر. فقد كن معروضات لهن فى دور النخاسين فكانوا يختارون ما يشاؤون وفق رغباتهم.[٢]

ولم تكن عملية شراء الجواري، متروكة بدون ضوابط، بل لابد أن تتم " بعقد" مخصوص لذلك. فيذكر لنا السقطي. في أداب الحسبة، أن شخصاً استدعاه لكتابة عقد جارية. وكانـت الجاريـة أيضاً، يكتب لها استبراء من بائعها " أى أنها ليست امرأة حرة " وأنها ليست ملكاً لأحد، وذلك عن طريق ثقة من النساء، يتفقن عليها، أو عند رجل من الثقات، من أهل الدين والأمانـة، تكون عنـد أهله. حتى يتحقق استبرائها.[٣]

١- Guichard: op. cit. p. 77. 78.

٢- Ibid pp. 77, 79.

صلاح خالص: إشبيلية في عصر الطوائف، ص ٩٦؛ شوقي ضيف: العصر العباسي الثاني، ص ٨٢؛ عمر رضا كحالة: المرأة في عالمي العرب والإسلام، جـ ٦، ص ٥٩.

٣- السقطي: في آداب الحسبة والمحتسب، ص ٤٨.

وكانت أسواق العبيد والجواري،منتشرة في كافة المدن الأندلسية،وخاصة في مالقة Malaga، حيث تخضع لإشراف المحتسب، وفي قرطبة أيضاً، وهي من كبريات المدن الأندلسية.[١]

وكان يدير هذه الأسواق، سماسرة ونخاسون، يجلبون الرقيق من أوربا المسيحية، من أماكن كثيرة. فمنهن الجليقيات، ويؤتى بهن من شمال غربي الأندلس،والصقلبيات،ويؤتى بهن من وسط أوربا،والإفرنجيات،وهن القادمات من جنوب فرنسا وإيطاليا، والبربريات، ويؤتى بهن من شمال إفريقيا، والقطالونيات، ويؤتى بهن من شمال شرق إسبانيا، وأجناس أخرى متعددة.[٢]

وقد نظمت تجارة الرقيق في الأسواق،بحيث توضع كل مجموعة متميزة في شئ معين من الجواري مع مثيلاتها. فكن يصنفن من حيث الذكاء، والمهارة والموهبة، والجمال الكثير، وصنف آخر، من الجواري، تميزت به الأندلس بصفة خاصة، وهو إتقان اللهجة الرومانسية La lengua Romance ، وهي اللهجة الدارجة للغة اللاتينية،والمتعارف عليها في الأوساط الأندلسية.[٣]

ومع انتشار وتوسع تجارة الرقيق في المجتمع الأندلسي. اقتضت الحاجة، ذهاب بعض المسلمين واليهود إلى مدينة " براغ ".[٤] لشراء أعداد كبيرة من الرقيق الأوربي من الجنسين. ثم يعودون إلى الأندلس عن طريق نهر الرون وقطالونية.[٥] وكان بعض البيزنطيين يقدمون الرقيق إلى التجار الأندلسيين،وذلك من خلال ما يجلبونه من غزواتهم على سواحل البحر الاسود، والتي يسبون فيها سبياً كثيراً، كان يقدم للمسلمين واليهود للتجارة بهم فى الأندلس. وقد أحرز اليهود بصفة خاصة، شهرة كبيرة في هذا المجال.[٦]

وبعض التجار استخدموا الجواري في التجارة المحرمة. فكانوا يبعثون بهن إلى منازل أصحاب الثراء، للخلوة بهن نظير مبلغ من المال.[٧]

أما عن أنواع الجواري. فقد كن " صنفين " أبيض وأسود، والرقيق الأبيض. كان أغلى ثمناً، وخاصة القادمات من دول أوربا، لأنهن يتميزن ببياض البشرة،وشقرة الشعر،وزرقة العيون. وكانوا

١- Sanchez Albórnoz: Historia la España, T.I, p. 297.

٢- حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص ٤٢١، ٤٢٢؛ عبد الحميد العبادى: المجمل في تاريخ الأندلس، ص ١٠٤؛ كمال أبو مصطفى: مالقة الإسلامية، ص ٧٤؛ الطاهر مكي: دراسات عن ابن حزم، ص ٤٠.

٣- Albórnoz: op, cit, T.I, p. 297.

٤- براغ: مدينة تقع حالياً فى دولة التشيك، بقارة أوربا.

٥- أحمد مختار العبادى: دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢٥١.

٦- عمر رضا كحالة: المرأة في عالمي العرب والإسلام، جـ ٦، ص ٦١.

٧- كمال أبو مصطفى: مالقة الإسلامية، ص ٧٤.

دائماً موضع اختيار الأمراء والحكام. وعلية القوم. وكن أكثر قابلية لتعلم الفن والموسيقى، وكانت الجارية كلما مهرت فى فنها. بولغ في ثمنها.(١)

وقد كان هناك نوع خاص، ومميز. لا يعرض فى أسواق النخاسة. وإنما يجلب خصيصاً للأمراء والأغنياء.(٢) أما النوع الآخر من الرقيق. وهن السوداوات. وكان يطلق عليهن " السودانيات ". فكان يؤتى بهن من السودان والحبشة. ومن إفريقيا عموماً. وقد امتلأت بهن قصور وبيوت الطبقة الوسطى، نظراً لانخفاض أسعارهن، بالمقارنة بالرقيق الأبيض، لكنهن ظللن يمثلن أقلية فى العدد بالمقارنة بالبيضاوات.(٣)

ومما يدل على تواجد هذا العنصر الأسود، بل وتأثيره في المجتمع الأندلسي أن أحد شوارع قرطبة، لازال يحمل حتى يومنا هذا: اسم شارع زقاق السود Calleja de los Negros.(٤)

وكانت السودانيات، أو السوداوات في كثير من الأحيان. يستخدمن في الأعمال المنزلية، وخاصة إذا تعدت الجارية منهن مرحلة الشباب، وأصبحت لا تصلح إلا للأعمال المنزلية.(٥) وإن كان هذا لم يمنع بعض الرجال، من اتخاذهن جاريات للمتعة، مثلهن مثل البيضاوات. فقد كانوا يقدرون فيهن صفات أنثوية لا يجدونها في غيرهن، وشئ عادي أن ترى أبناء لآباء بيض، وأمهات سوداوات، ويوضح هذا بجلاء. أن المسلمين الأندلسيين. لم يعرفوا، التفرقة العنصرية، بسبب الجنس أو اللون، و التى ملأت تاريخ العصور الوسطى، وحتى أيامنا هذه.(٦)

ومثالنا على ذلك،أبو المطرف بن غلبون.من بلنسية،الذى اتخذ جارية سوداء،تحمل اسماً مميزاً وهو"إشراق السويداء" واشتهرت بسعة معارفها اللغوية، وبخاصة في النثر الأدبي والفني.(٧)

١- الطاهر مكي: دراسات عن ابن حزم، ص ١٩؛ كحالة: المرأة فى عالمي العرب والإسلام، جـ ٦، ص ٦٠.

٢- كحالة: المرجع السابق . ج٦، ص٦٠ .

٣- هنرى بيرس: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ص ٢٣٨؛ الطاهر مكي: نفس المرجع، ص ٤٠؛ شوقي ضيف: العصر العباسى الثانى، ص ٨١.كحالة: نفس المرجع،جـ٦،ص٥٤، ٥٥، ٦٠.

٤- الطاهر مكي: المرجع السابق، ص ١٨.

٥- سحر سالم: مظاهر الحضارة في بطليوس، ص ٢٥٢، ٢٥٣.

Huici Miranda: Historia Musulmana de Valencia. Valncia. 1969. Tomo I. p.64

٦- الطاهر مكي: نفس المرجع. ص ١٨.

٧- بيرس: نفس المرجع، ص ٢٣٨.

ويظهر لنا الشعر الأندلسي، مفهوم النساء الأندلسيات عن الحب، الذي يمارسه أزواجهن مع السوداوات. فقد مال ابن زيدون إلى جارية" ولادة"، وكانت سوداء فكتبت إليه، عاتبة عليه تقول:-

لو كنتَ تنصفُ في الهوى ما بيننا

لم تهــــو جاريتي ولم تتخيـــــــر

وتركــــت غصــــناً مثمراً بجماله

وجنحت للغصن الذى لم يثمر.. الخ[١]

وقد برز هذا النوع من الرقيق، وتبوأ مكانة بارزة فى عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر. الــذى استكثر منهم في حرسه الخاص، ولكن ظلت مكانتهم لديه أقل من الصقالبة.[٢]

و فيما يختص بالخادمات الأندلسيات، فكن لا يعملن في البيوت الأندلسية، إلا بعقد متفق عليه بينها وبين مؤجريها، وكانت شروط العقد المتفق عليها ملزمة للطرفين. وكان هذا العقد يحفظ لها حقوقها في عدم مطالبتها بأكثر مما تطيق.[٣]

وقد أمدنا السقطي:في كتابه أداب الحسبة، عن الكثير من حيل النخاسين في بيع الجواري. وبما أن رجال الأندلس يفضلون الجواري العجميات، أي ذوات اللسان واللغه الأجنبية، والقادمات من أوربا بصفة خاصة، ففيهن ميزات، تغرى الرجال كما ذكرناها في وصفهن. ففي أحد الأسواق،إتفقت جارية مع صاحبها أي مالكها، على تمثيل دور جارية أعجمية، رغم أنها كانت أندلسية الأصل، وتتقن التحدث بلغة أهل البلاد المتداولة، بل ومن أدنى طبقات العامة.

وقامت الجارية بتمثيل الدور في السوق، كي يربح مالكها من بيعها ربحاً وفيراً، وعندما كشف أمرها لمالكها الجديد بعد أن دفع فيها مالاً وفيراً، حزن على ماله حزناً شديداً فقالت له: عندى لك حل لتلك المشكلة، إحملنى إلى السوق، ولكن في بلدة أخرى، ومثلت نفس الدور،مرة أخرى، بأنها " أعجمية" ولا تعرف لغة أهل البلاد،وتم ما أراده، وباعها بأكثر مما دفع فيها.[٤]

١- بيرس: المرجع السابق، ص ٢٣٩.

٢- بيرس: نفس المرجع، ص ٢٣٧.

٣- Lèvi Provençal: Historie de L'Espagne Musulmane, T. III, p. 400.

٤- راجع تفاصيل القصة كاملة في السقطي: في آداب الحسبة، ص ٥٤، ٥٥.

Lèvi Provençal: L'Espange Musulmana au Xeme siecle, p. 192.

ومن حيل النخاسين أيضاً، في بيع الجواري، بيع صنف على أنه صنف آخر، أو دهن الجارية بدهانات، مجهزة ومحضرة بطريقة معينة، لتفتيح لون بشرتها، وجعلها بيضاء.ولكن تأثير ذلك الدهان محدود، ويزول بعد فترة قصيرة، فعندما تعود الجارية مع مشتريها، إلى البيت بعد مده يظهر لونها الطبيعي.[١]

وكان المحتسب ينهي عن تلك الأفعال، وكانت الخادمات، أو الجواري، أو المربيات، يخرجن في أيام الأعياد، بأطفال أسيادهن للتتره، ومشاهدة مظاهر العيد.[٢]

أما عن أثمان الجواري. فنعرف أنها كانت في الغالب مرتفعة، خاصة الجواري البيضاوات، الشقراوات، اللآتي يتمتعن بقدر كبير من الجمال والثقافة. فقد كان يصل سعر الجارية إلى ألفين أو ثلاثة آلاف دينار. وتبعاً لما ذكرناه من صغر السن والجمال والموهبة وغير ذلك.[٣] وكانت أثمان العبيد أحياناً تنخفض انخفاضاً ملحوظاً. وذلك خلال فترات الغزو والانتصارات، كما حدث في أثناء حكم المنصور بن أبي عامر، في القرن الرابع الهجري، حيث يذكر: بعض المؤرخين، أن سعر الجارية انخفض إلى عشرين ديناراً فقط.[٤]

وكان يطلق على الجواري أسماء بسيطة، وجميلة، وبها كثير من التفاؤل. ولها معنى من معاني إمتيازهن مثل " العجفاء". وكانت هزيلة نحيلة، وغصن، وروض وصبح، وقمر، وراح، وطروب.. الخ.[٥]

وتأثرت أسماء نساء الأندلس بصفة عامة باللغة الرومانسية وانتشارها تأثراً مباشراً. وكان الإسم دائماً ينتهي بالحرفين " واو " أو " نون " مثل نزهون.[٦] وهو تأثير محلي إسباني. فمن المعروف أن حرفي on في آخر الكلمة الإسبانية، تدل على التعظيم والتفخيم والتكبير.

والقانون الأندلسي. لم يكن يتشدد مع الجواري، مثلما تشدد مع الحرائر. فقد كان عقاب الجارية التي تزني خمسين جلدة، بل وصل الأمر ببعض الفقهاء، إلى ترك الأمر بيد سيدها إن شاء

١- وقد أورد السقطي،في هذا المصدر، العديد من أسماء الدهانات التي يستخدمها النخاسين وأيضاً حيلهم، وتدليسهم في بيع الجواري؛ راجع: السقطي: المصدر السابق، ص ٤٩، ٥٠، ٥١، وما يليهما.؛ كمال أبو مصطفي: مالقة الإسلامية. ص ٧٤.

٢- كمال أبومصطفى: نفس المرجع، ص ٨٠.

٣- عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس، ص ٤٥؛ صلاح خالص: إشبيلية، ص ٩٢؛ مصطفي الشكعة: الأدب الأندلسي، ص ٤٥؛ شوقي ضيف: العصر العباسي الثاني، ص ٨٣.

٤- صلاح خالص: نفس المرجع، ص ٩٢.

٥- عبد الحميد العبادي: المجمل، ص ١٠٥.

٦- الشكعة: الأدب الأندلسي، ص ٤٦. وهذه الظاهرة تجدها بوضوح في أسماء الرجال مثل خلدون، وعبدون وزرقون... الخ.

عاقبها. وإن شاء تركها. لذلك نرى: أن المجتمع كان أميل إلى اللين مع الجواري. عن الحرائر.[١] وكما رأينا: فإن إزدهار تجارة الرقيق. جعل منهن عنصراً هاماً في المجتمع الأندلسي. وأصبح لهن حقوق. وعليهن أيضاً واجبات، وإن اختلفت نوعاً ما عن واجبات الحرائر. فقد كانت الجواري.أنشط من الحرائر، في مجالات الحياة العامة، نظراً لقلة الضغط عليها كالحرة.فأصبحن ملهمات للشعراء. بل ويقرضن الشعر والأدب الرفيع بحرية أكثر من الحرائر.

كما أدخلن إلى الأندلس، أفكاراً وأفاقاً جديدة، نظراً لاختلاف ثقافتهن. فكانت كل جارية كما ذكرنا: تأتي من مكان مختلف عن الأخرى، ولابد أن هذا قد أدى إلى تنوع العادات والتقاليد، و المفردات اللغوية المجلوبة بواسطة كل واحدة منهن، وهكذا نجد أن وضع المرأة الحرة في الوسط الارستقراطي. أو العامي الأندلسي.قد اختلف عن وضع الإماء الجواري، إختلافاً كبيراً واضحاً في المجتمع الأندلسي.

ويبدو أن إزدهار تجارة الإماء والجواري، عمل على إيجاد كثير من المشكلات بين البائع والمشتري. وصل الكثير منها إلى الإحتكام للقاضي. وقد ورد الكثير منها في كتب الفتاوي والنوازل. فقد ذكر الونشريسي: إن بعض الرجال. كان يدعي على إحدى الجواري بأنها ملكه، وفي أحيان كثيرة. كان يثبت العكس. وأنها ليست ملكه، أو أن يبيع أحد التجار، جارية. ثم يثبت بعد ذلك أنها حرة، ففي تلك الحالة، إذا شهد شاهد واحد فقط بأنها حرة لا يحكم لها بالحرية. ولكن يرد الثمن إلى المشتري، وترد الجارية إلى بائعها مرة أخرى.[٢] وكانت الجواري أحياناً، يخضعن لعمليات المقايضة. فقد كانت أحياناً تستبدل الجارية بالحبوب، كالشعير مثلاً. ولكن لو حدث تفاسخ بين الطرفين المتقايضين. كان من الصعب، رد مقابل الجارية. فكان يقدر ثمنه، ويرد دنانير.[٣]

وفي بعض الأحيان. كان يشترى الرجل جارية، على أنها سليمة خالية من العيب. ثم بعد ذلك يجد بها عيبا " كالكى". مثلاً. فكان يلجأ إلى القاضي.ويرد إليه جزء من الثمن. الذى اشتراها به، يوازي قيمة العيب الموجود بها. وكان أهل الثقات يتولون الحكم بهذا في بعض الأحيان. وكان عادة يرد ربع الثمن.[٤]

١- صلاح خالص: إشبيلية في القرن الخامس الهجرى، ص ٩٨.

٢- الونشريسي: (أحمد بن يحيى الونشريسي) المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب. دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى،١٩٨١م.جـ٦،ص١٦٩.

٣- الونشريسي: نفس المصدر ، جـ ٦، ص ٦٧.

٤- الونشريسي: نفس المصدر. جـ ٦، ص ١٦١، ١٦٢.

ثالثاً: حالة الجواري الإقتصادية:ـ

قد يندهش البعض من اختيار هذا العنوان بالذات، وهو حالة الجواري الإقتصادية، ولماذا الجواري بالذات؟ رغم أن موضوع البحث يتحدث عن المرأة الأندلسية المسلمة بصفة عامة.

فقد لعبت الجواري دوراً كبيراً في تشكيل الحياة الأندلسية الخاصة بالمرأة، فكان دورهن أوضح. وأميز كثيراً من دور الحرائر. للأسباب التي ذكرناها من قبل.

ومما لاشك فيه، أن كثيرات من الجواري الأندلسيات كن يتمتعن بثراء فاحش. وكانت لهن أملاكهن الخاصة البعيدة كل البعد عن أملاك أسيادهن، أو أزواجهن بالنسبة " للحرائر " وهي أملاك عريضة وواسعة، وكن يدرنها لحسابهن الخاص.(١)

ومن هؤلاء الجواري، الجارية التي كان يمتلكها الخليفة عبد الرحمن الناصر، وعرفت باسم " الزهراء".فعندما ماتت هذه الجارية، ورث منها الناصر أموالاً طائلة. فأمر بإنشاء مدينة كبيرة بهذه الأموال. وتسمى باسمها فأنشئت مدينة الزهراء.(٢)

ومنهن أيضاً،عجب،والشفاء،وطروب، وفجر وغيرهن، فقد أنشأن مساجد ومنيات تحمل أسمائهن.(٣) ويذكر الأستاذ الدكتور/ شوقي ضيف.بأن الإسلام أباح للعبد حق التملك. بل يستطيع أن يكاتب مالكه أو صاحبه على جزء من المال يدخره من العمل، حتى إذا وافاه.ردت إليه حريته،واستطاع كثير من الأرقاء،بذلك أن يتحرروا بأموالهم من أسيادهم.(٤) ويذكر: الأستاذ/ليفي بروفنسال.أن المرأة في قرطبة،وضعت حجر الأساس، للعديد من المنشآت العمرانية في المدينة، ومن الملاحظ، أن هؤلاء الجواري. كان معظمهن من بين الأميرات زوجات الأمراء، أو من بين أمهات الأولاد أو الحرائر. جميعهن شاركن جنباً إلى جنب.(٥)

١- طاهر مكي: دراسات عن ابن حزم، ص ٢٦٩.

٢- المقري: نفح الطيب، جـ ١، ص ٥٢٣، ٥٢٤.

وهذه القصة عن بناء مدينة الزهراء. لم يوجد اجماع من المؤرخين على صحتها.إلا أنها ترمز لهذه الظاهرة، وهي ثراء الجواري الفاحش.

٣- العبادى: في تاريخ الأندلس، ص ١٥١؛ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، جـ ١، ص ٤٣٦.

٤- شوقي ضيف: العصر العباسي الثاني، ص ٨٠.

٥- Lèvi Provençal: l'Espagne Musulmane au eXe sicele, p. 59.

وأكثر هؤلاء الجواري، ولعاً بالإنشاء، جاريات الأمير عبد الرحمن الأوسط.[١] فقد أنشـأن في قرطبة عدة مساجد سميت بأسمائهن.[٢] ومنهن مؤمرة، التي أطلقت اسمها على جبانة في قرطبة، بعد أن جهزتها على نفقتها الخاصة[٣]

والشفاء جارية عبد الرحمن الأوسط، وينسب إليها مسجد وربض في المدينة الغربية من قرطبة. وقد أهداها عبد الرحمن الأوسط، العقد الشهير بعقد الشفاء، الذي كان في الأصل،عقد السـيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد. ثم انتهب في الفتنة التي قامت في بغداد بين ولـدها الأمـين واخيـه المأمون، ثم اشتراه أحد التجار وباعه للأمير عبد الرحمن في الأندلس،والواقع أن الأمير عبد الرحمن كان يكن للشفاء معزة خاصة، لأنها قامت برعاية وإرضاع الطفل " محمد" ولي العهد مع طفلها من الأمير. وكانت تحنو عليه، كأنها أمه، بعد أن ماتت أمه عقب ولادته مباشرة، وإن كانت المصادر لم تمدنا باسم أم محمد المذكور.[٤]

وهناك أيضاً أم سلمة،التي أنشأت ربضاً ومسجداً عرف باسمها، وأنشأت كذلك مقبرة عنـد أحد الأبواب، في السور الشمالي لقرطبة،عرفت بمقبرة أم سلمة.[٥]

ونذكر كذلك " متعة ". التي أصبحت محظية للأمير عبد الرحمن الأوسط. وعندئـذ أقامـت مسجداً عرف باسمها، وعندما توفيت دفنت في مقبرة تقع إلى الشمال الغربي مـن مقـبرة عـامر القرشي. وعرفت باسمها ونسبت إليها.[٦] وكان الحكم " الربضي" يحب بناء المساجد، ويشـجع جواريه على إنشاء المساجد على نفقتهن الخاصة. مثل مسـجد عجب،الـذي أمـرت ببنائـه جاريته"عجب" غربي قرطبة. وقد حمل ربضان من أرباض المدينة، في الجانب الغربي لقرطبة، أسمـاء

١- مصطفي الشكعة: في الأدب الأندلسي، ص ١٠١.

٢- محمد عبد الله عنان: نفس المرجع، العصر الأول، القسم الأول ، ص ٢٧٨.

٣- Lèvi Provençal: Historie l'Espagne. T.I, p. 267.

٤- من المعروف أن الأمير محمد،لم يعلنه والده عبد الرحمن الأوسط ولياً للعهد رسمياً،ولكن كان معروفاً أنه خليفته. باعتباره أكبر أولاده. وهذا ما أدى إلى تدبير بعض المؤامرات ضده.

Leve Provençal: op. cit. T.I. p. 267.

٥- ابن حزم: جمهرة أنساب العرب. ص ٩٩.

عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم، ص ٢٩٩.

Provençal: Hist.. T.III. p. 369.

٦- سالم: نفس المرجع. والصفحة.

سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، جـ ٢، ص ٩٣.

Provençal: op. cit. T.III. p. 376.

مساجد قامت بانشيهـ خوزي والقيان.أحدهما مسجد الشفاء. وقد زود هذا الجانب الغربي بمساجد أخرى.كمسجد صُروب إحدى الحظيات المقربات للأمير عبد الرحمن الأوسط.(١)

وممن أنشأن المساجد أيضاً،الأميرة " البهاء" ابنة الأمير عبد الرحمن الأوسط. والتي يقول عنها المراكشي: في " الذيل والتكملة " كانت خيرة زاهدة. عابدة. متبتلة. شديدة الرغبة في الخير. وكانت تكتب المصاحف. وتحبسها إليها. وينسب إليها مسجد بربض الرصافة.(٢)

ومن أشهر هؤلاء الجواري. ممن حُزن الثراء بدرجة كبيرة. كانت السيدة "صبح ". أم الخليفة هشام المؤيد. وزوجة الخليفة الحكم المستنصر بالله، و لسعة أملاكها، احتاجت إلى من يديرها لها. ووقع اختيارها على الفتى الطموح محمد بن أبي عامر. وكان ما يزال في بداية حياته السياسية. قبل أن يبزغ نجمه. ويعلو صيته. وكان ذلك بفضل استخدامها له في إدارة أموالها وضياعها.(٣)

رابعاً: مكانة المرأة في المجتمع الإسلامي الأندلسي بصفة عامة:

وفي نهاية هذا الكتاب.ينبغي أن نثبت حقيقة هامة:توصلت إليها من خلال تلك الدراسة.عن دور ووضع المرأة المسلمة في المجتمع الإسلامي الأندلسي. وهي أنه لم يكن بالتدني الكبير،الذى تصوره لنا بعض كتب المؤرخين، والمستشرقين،وأيضاً لم يكن فيه حرية زائدة،خارجة عن التقاليد والعادات الإسلامية المعروفة.والتى وضعت خصيصاً للمحافظة على المرأة المسلمة،بل كان وضعها يتسم بشئ من التوازن،اكتسبت به بعض الحرية من البيئة المحلية. التي لا محالة قد أثرت بعض الشئ في وضعها الإجتماعي. ولكن بدون خروج عن الحدود المرسومة للمرأة المسلمة في إطار الشريعة الإسلامية، وذلك للمحافظة عليها وتجنيبها مواطن الشبهات.

فقد كان من الصعب على الفاتحين المسلمين الجدد.تغيير تلك التقاليد البيئية المحلية الموروثة في إسبانيا بين عشية وضحاها. ولعل توضيح مدى محافظة المجتمع الإسلامي الأندلسي على نسائه في تلك النقطة، التي نختم بها الدراسة، توضح إلى أي مدى حاول المجتمع صيانة المرأة.في المجتمع الأندلسي،من حيث أنها مسلمة في المقام الأول، بغض النظر عن وضعها ومكانتها حرة أم جارية،من طبقة العامة أو من الطبقة الأرستقراطية. فالمهم في النهاية أنها امرأة مسلمة، وكذلك نود:أن نشير إلى حقيقة هامة أخرى، وهي أن المجتمع الأندلسي.لم يحبس نسائه أو يحجر عليهن. فقد أشار الكثير

١- سالم: نفس المرجع. ص ٢٧٧. ٢٩٩.

سالم: قرطبة.جـ٢. ص٩٣.

٢- ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، جـ ٢، ص ٤٨٤.

٣- الضبي: بغية الملتمس، ص ١٠٥؛ ابن سعيد: المغرب في حُلي المغرب، جـ ١، ص ١٩٩.

وراجع تلك العلاقة الإقتصادية، بين صبح وابن أبي عامر. وكذلك الأموال التي استولت عليها صبح، وحاولت استخدامها في صراعها مع ابن أبي عامر. في مرحلة الصراع بينهما.في دور المرأة السياسي. ص ١١٥.

من المؤرخين الأندلسيين،إلى أن خروج النساء مختلطات بالرجال. وخاصة في أيام الأعياد والاحتفالات. كان شيئاً مألوفاً، بل كن أيضاً يذهبن إلى ساحة المصلى،حيث يقمن الخيام للصلاة. ولكن كان يمنع الرجال من المرور بين صفوف النساء، وكذلك تمنع النساء من المرور بين صفوف الرجال، إلا من كان هَرِماً، أى عجوزاً في كليهما. كما كان يمنع اختلاط النساء بالرجال، في أثناء الصلاة. فلابد من وجود فاصل بينهما.(١)

ويذكر الأستاذ الدكتور/ أحمد مختار العبادي. بأن هذه النصوص وأمثالها. تدلنا على أن نساء الأندلس. كن أكثر تحرراً من نساء العالم الإسلامي في ذلك الوقت. بحكم تأثير الجوار والبيئة المحلية الأوربية.(٢)

وكانت الأعياد الإسلامية في الأندلس،ومن أهمها أعياد الفطر،والأضحى، والمولد النبوي الشريف، مثل سائر العالم الإسلامي. تقام فيها الاحتفالات الدينية، وغير الدينية التي يحضرها الرجال والنساء والأطفال، كذلك شارك المسلمون إخوانهم المسيحيين في الاحتفال بأعيادهم المسيحية.(٣)

ولكن كان المحتسب،يمنع النساء من دخول الكنائس،تحسباً من أى غرض مشبوه. ويرى ابن عبدون:إن القسيسين فسقة وزناة،ويجب منع نساء المسلمين،من الاختلاط بهم.(٤)، ولا نحتاج للتأكيد على أن ابن عبدون. كان متحاملاً في حديثه هذا على رجال الدين المسيحى،وربما يكون ذلك،نتيجة رواسب دينية داخل بعض المسلمين تجاه المسيحيين. إذ لم تكن عملية الإختلاط. قد أخذت صورة صافية بينهما.

ويذكر، ابن عبد الرؤوف: إن خروج المرأة كان مألوفاً للذهاب إلى الوادى للتنزه، وأحياناً يذهبن بمفردهن، ولكن يبدو أن هذا. كان ضد رغبة المحتسب،الذى كثيراً ما كان يمنعهن من الخروج بمفردهن خوفاً عليهن من المهرجين، والمهزرين. الذين كان المحتسب يمنعهم بدوره من الجلوس في الطرقات والشوارع السالكة،حتى لا يتعرضن للنساء أثناء سيرهن،(٥) ويمنع كذلك

١- ابن عبد الرؤوف: ثلاث رسائل في الحسبة: الرسالة الثانية . ص ٧٤.

٢- أحمد مختار العبادى: الإسلام في أرض الأندلس. ص ١٠٧ - ١٠٨.

ومشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب والأندلس. جامعة الأسكندرية ١٩٥٨م، ص ١٠، ٩٦.

٣- العبادي: الأعياد في مملكة غرناطة، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية، مدريد ١٩٧٠، ص ١٤٠.

Lèvi Provençal: Histoire. T. III. p. 437.

٤- ابن عبد الرؤوف: ثلاث رسائل في الحسبة. الرسالة الثانية. ص ٤٨.

٥- ابن عبد الرؤوف: نفس المصدر، ص ٥٧؛ السقطي: في آداب الحسبة. ص ٩٧.

الرجال والشباب من الجلوس أمام الحمامات العامة. والمخصصة للنساء. لما في ذلك من إطلاع عليهن. وعلى أسرارهن داخل الحمامات.(١)

وعندما تذهب المرأة إلى السوق،لا يخالطها في البيع والشراء إلا " ثقة "خير، ويكون معروف ومشهور بين الناس بخيره وأمانته. وكان المحتسب يراقب المواضع الخالية في الأسواق حتى لا يختلي بها الفساق من النساء والرجال.(٢)

وتلك الأمثلة تعطينا إنطباعاً، عن مدى محافظة المجتمع الأندلسي على نسائه، وعدم وضعهن موضع الشبهات، وتعريضهن إلى ما قد يسيئ إليهن.

وأيضاً، كان من حق المرأة الأندلسية، إذا وقع عليها ظلم من أى إنسان قريب أو بعيد، أن تشكو إلى القاضي مظلمتها. بل أحياناً يمكن أن تشكو زوجها نفسه، إذا أساء عشرتها أو ضربها ضرباً مبرحاً أثر عليها، فينظر القاضي في مظلمتها بعين العدل، و ربما يستمع منها في مكان منعزل، بعيد عن مجلسه الذى

يمكن أن يطلع فيه الناس على أسرارها، وهو ما يعرف في عصرنا الحالي " بالجلسات السرية ". حتى تكون على حريتها في رواية ما وقع عليها من ظلم، ويمكن أن يكون للقاضي أعوان يساعدونه، ويختلطون بالنساء. فلابد أن يكونوا غير مشبوهين،ومعروف عنهم الصلاح والتقوى، وأيضاً لابد تخطو سن الشباب، حتى لا تكون هناك فرصة للرشوة، والفسق والمراودة.(٣) والتى تشبه إلى حد ما هيئة المحلفين في المحاكم الغربية حالياً.

ووصلت عدالة القضاء في المجتمع الإسلامى الأندلسي. فيما يختص بالنساء إلى حد أن طبق حكم على الأمير " الحكم الربضي".وذلك عندما اغتصب جارية، أي أخذها عنوة، وبدون رضاها من صاحبها.لأنها راقته بعد أن أرسلها له عامله على مدينة جيان، فوقعت من عينيه موقعاً حسناً، وحاول صاحبها استردادها بلا جدوى، فلم يجد أمامه إلا الذهاب للقاضي، يشكو له الأمير "الربضى" لأخذه الجارية دون رضاه. فما كان من القاضي، إلا أن أمر برد الجارية إلى صاحبها. فأراد الحكم الربضى التحايل على قرار القاضي، وعرض شراء الجارية بأكثر من ثمنها. ولكن صاحبها تمسك بها. وقال القاضي للحكم كلمة رائعة: " أيها الأمير، إنه لا يتم عدل في العامة، دون إقامته في الخاصة ". وخيّره بين أن يُخرج الجارية لصاحبها. أو يعتزل القضاء. فعرض الحكم الربضي أمراً آخر. وهو تخيير الجارية بينه وبين صاحبها. فأخرجت الجارية من قصر الحكم أمام

١- ابن عبدون: ثلاث رسائل في الحسبة، " الرسالة الأولى "، ص ٤٩.

٢- ابن عبد الرؤوف: نفس المصدر، " الرسالة الثانية "، ص ٨٣.

٣- ابن عبدون. وابن عبد الرؤوف: ثلاث رسائل في الحسبة. الرسالة الأولى والثانية، ص ١٢، ٨٣.

القاضي. و خُيرت بين الأمير الحكم الربضي وصاحبها. فاختارت صاحبها فردت إليه.[١] ويعطينا هذا النص مثالاً رائعاً عن حرية اختيار المرأة الأندلسية،حتى وإن كانت جارية،لمن ترضاه سيداً. فقد تركت الأمير بكل ما لديه من سلطان وجاه. وذهبت إلى مالكها الأصلي،حيث فضلت الحب على، ما عداه.

وكان من حق المرأة الأندلسية،أن تذهب إلى الحج، وخاصة إذا تقدمت بها السن،وانقطع عنها الرجاء،وفي تلك الحالة،لا يلزمها المحرم. ويحدثنا السلفي:عن "مكية" بنت عمرو بن هانئ.التي حجت، وفي طريق عودها إلى الأندلس، نزلت

بثغر الإسكندرية، ويبدو أن المدينة أعجبتها. فلم تعد إلى الأندلس مرة أخرى، بل استوطنت مصر. وتوفيت بمدينة " قوص " في الصعيد الأعلى.[٢] كذلك نسمع عن مصاحبة المرأة الأندلسية في بعض الأحيان، لأبيها، أو زوجها، أثناء خروجه للقتال. ومثال ذلك ما يحدثنا به ابن حيان: عن مجاهد العامرى أمير دانية Deniaسنة (٤٥٦هـ –١٠١٥م)، الذى أبحر في أسطول كبير مكون من مائة وعشرين ألف مركباً،عليها ألفا فارس، مصطحبا معه زوجته المسيحية "جوذ"،وابنه الأكبر " علياً " وبعض بناته، وهزم في هذه الموقعة، واستولى الأعداء على نسائه، وبناته،وابنة عليٍّ وزوجته "جود" كانت نصرانية.

واستطاع مجاهد،أن يفتدى بناته بعد ذلك سريعاً،ولكن زوجته المسيحية "جود"، فضلت البقاء،ورفضت العودة. وبقيت في الأراضي المسيحية كي تموت على دين أهلها.[٣]

ولم تكن المرأة الأندلسية دائما النموذج المطيع الهادئ المستكين،فقد شذت نماذج كثيرة عن تلك القاعدة. نذكر منهن " كفات " زوجة القاضي محمد بن زياد اللخمي، التى يبدو أنها كانت شرسة،سليطة اللسان، مسيطرة عليه، حتى أن ألسنة أهل قرطبة. أخذته بأفعالها. وعندما تولى الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط الإمارة. لم يوافق بتوليه القضاء والصلاة. كما كان من قبل نظراً لسيرته غير المحمودة، وتسلط زوجته عليه، وقال: " يكفيه الصلاة فقط " فإننى لم أنس. ما كانت الناس تقوله في أمر امرأته " كفات "، وسيطرتها عليه وذلك نموذج سيئ للمرأة المسلمة الأندلسية.[٤]

١– مجهول: أخبار مجموعة، ص ١١٣، ١١٤؛ ابن عذارى: البيان المغرب، جـ ٢، ص٨٧.

٢- السلفي: أخبار وتراجم اندلسية، مستخرجة من معجم السفر، للسلفي. حققها الأستاذ الدكتور/ إحسان عباس، المكتبة الأندلسية، رقم (٧)، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٦٣، ص ١٢٦

٣- العبادى: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٣١١، ٣١٣، ٣١٤

٤ - الخشني: قضاة قرطبة، ص ٦٠، ٦١.

وتتجلى عظمة المرأة الأندلسية،ومكانتها الرائعة في المجتمع الأندلسي.فيما ترويه عنها القصص والحكايات،إلى درجة استنفار الحملات العسكرية،لإنقاذ الأسيرات من أيدى الأعداء، فيحدثنا صاحب " أخبار مجموعة ":عن الأمير الحكم بن هشام "الربضي"،الذى غزا أرض الشرك،بسبب امرأة مسلمة أسيرة استغاثت به،وذلك عندما أبلغه الشاعر/عباس بن ناصح.أنه سمع امرأة بوادى الحجارة،في أثناء زيارة له هناك،وهي تقول"واغوثاه يا حكم.قد ضيعتنا.واسلمتنا،واشتغلت،عنا، حتى استأسد العدو علينا.فأمر الحكم من فوره،بالاستعداد للجهاد،حتى تمكن من فك أسر المرأة،وأجزل لها العطاء،وقال لها:بعد أن رجعت، هل أغاثك الحكم؟ فقالت: إنه ما غفل عنا إذ بلغه أمرنا، فأغاثه الله، وأعز نصره.(١)

وقصة أخرى:على نمط لقصة السابقة، حدثت في عهد الحاجب المنصور بن أبي عامر. وملخصها أن المنصور، أرسل أحد رسله إلى غرسية Garcia صاحب البشكنس، فتناهي غرسية في إكرام الضيف، لما للمنصور من مكانة بين ملوك النصرانية. وخرج الرسول يوماً متنزها، وبينما هو يجول في أحد الكنائس، استوقفته امرأة مسلمة.لها مدة في، الأسر وكلمته، وشكت له ما وقع بها، وقالت له أيرضى المنصور،أن ينسى بتنعمه بؤسها؟وذكرت له:إن لها عدة سنين في لأسر، وناشدته في إبلاغ قصتها إلى المنصور.

فلما عاد إلى المنصور. قدم له تقريراً عن تلك الزيارة،في نهايته قصة تلك المرأة الأسيرة، فعاتبه المنصور، وعنفه بشدة، لأنه لم يبدأ بها كلامه، وهب من فوره، ونادى للجهاد، حتى وافى أرض ابن شانجة موضع المرأة الأسيرة. وكانت هناك معاهدة بينه وبين غرسية، بحيث لا يبقى أسير أو أسيرة مسلمة في أرض الشرك، فلما وصل المنصور إليه، وعلم شانجة بالسبب، الذى جاء من أجله المنصور،فاعتذر له بشدة،وأرسل المرأة الأسيرة في الحال،ومعها امرأتين أخرتين،وحلف للمنصور بأغلظ الإيمان، أنه ما كان يعلم بأمرها، ومبالغة منه في إرضاء المنصور،أمر بهدم الكنيسة التى كانت بها المرأة.وبذلك عادت المرأة إلى أهلها، بفضل حمية وغيرة المنصور على نساء وطنه.(٢)

ومن مظاهر اهتمام الأندلسيين بالمرأة، والعمل على راحتها، اهتمامهم بالعمارة الأندلسية، التى تلبي رغبات وراحة المرأة الأندلسية. ففي تصميم الدور والمنازل، يذكر الأستاذ/ توريس بلباس Torres Balbas. أن المنازل الأندلسية. كانت عبارة عن نوعين:الأول خال من الزخارف وبه

---

١ – مجهول: أخبار مجموعة. ص ١١٧؛ ابن عذارى: البيان المغرب. جـ ٢، ص ٧٣؛ المقرى: نفح الطيب. جـ١، ص ٣٤٣، ٣٤٤.

٢- ابن عذارى: نفس المصدر. جـ ٢، ص ٢٩٨؛ المقري: نفس المصدر، جـ ١، ص ٤٠٤.

وهذه القصة وأمثالها تذكرنا بقصة مشابهه حدثت في المشرق في عصر الخليفة المعتصم بالله العباسى في الشرق الإسلامي، حينما استغاثت به امرأة هاشمية. وقعت في أسر البيزنطيين وصاحت " وامعتصماه " فلما بلغه ذلك، قام على الفور بنجدتها في غزوة عمورية المشهورة ٢٢٣هـ – ٨٣٨ م. وكل تلك القصص. إن دلت على شئ. فهي تعبر أصدق تعبير عن علو مكانة المرأة، واحترامها في المجتمع الإسلامى شرقا وغربا.

نوافذ صغيرة،وهو الخاص بطبقة العامة. والنوع الثاني:وهو للمنازل الخاصة بالطبقة العليا والراقية، وهي عادة تتكون من طابقين، يزين الطابق العلوي فيها شماسات Parasoles أو شراجيب، أو مظلات بارزة إلى الخارج. تشاهد منها النساء ما يحدث في الخارج. " دون أن يشاهدهن أحد من المارة ".

وكان النساء يشاهدن الحياة الخارجية بكل حيويتها ومظاهرها، من تلك الفتحات بحرية تامة. دون أن تأخذهن عيون المارة.(١)

أما الأجزاء الداخلية لهذه المنازل الأندلسية، فهي عبارة عن أحواش، أو صحون داخلية Patios مزينة بنافورات المياة، والورود والأزهار والرياحين. مما يجعلها قاعة استقبال جميلة ومريحة، تتوفر فيها التهوية، وبخاصة في فصل الصيف، حيث ترتفع درجة الحرارة بصورة كبيرة، فيكون المنظر مجتمع فيه بهجة للناظرين، وبخاصة لسيدة الدار.(٢)

أما عن حرية المرأة الأندلسية المسلمة في التصرف في أموالها، فقد جُعلت لها كأي امرأة مسلمة ذمة مالية منفصلة، وذلك أمراً عادياً حتى قبل الزواج فيقول الونشريسي: " إن البنت التي ترث أموالاً من قبل الغير، لا يحق لوالدها التصرف في تلك الأموال، أو الأملاك، فهي ملك خالص لها ".(٣) تلك كانت لمحات سريعة. ختمنا بها الفصل الأخير، عن مدى إهتمام المجتمع الأندلسي بالمرأة الأندلسية المسلمة، وبقضاياها في كافة جوانب الحياة.

وأرجو من الله سبحانه وتعالى.أن أكون قد وفقت في نقل الصورة بشئ من الدقة، وتحريت الأمانة العلمية، في عرض كافة جوانب الموضوع.

والله ولي التوفيق...

١- Torres Balbas: Los Contorns de las Ciudades Hispana Musulmanas, Madrid, Al-Andalus, Vol. XV, 1950, p. 306.

٢- Ibid: p. 395, 396.

٣- الونشريسي: المعيار المعرب، جـ ٦، ص ٤٣٢.

الخـــاتمة

والنتائج التي توصلت إليها من خلال الدراسة.

نعرض فيما يلي أهم النتائج العلمية التي توصلت إليها من خلال هذا الدراسة:

(١) ناقشت الآراء المتضاربة حول دخول الفاتحين من العرب والبربر الأندلس، وهل دخلوا أفراداً من الجنود المحاربين فقط، أم دخلوا على شكل جماعات؟ صحبوا فيها نسائهم. وبعد عرضنا لجميع الآراء حول هذا الموضوع. توصلت إلى أن الفاتحين، من العرب والبربر، دخلوا الأندلس أفراداً وجماعات في آن واحد، ويؤكد هذا تواجد المرأة على مسرح الأحداث منذ بدايات الفتح الإسلامي. وأن هناك زيجات مختلطة حدثت بين الفاتحين الجدد، وبين الإسبانيات من أهل البلاد.

(٢) عرضت على بساط الدراسة، أراء المستشرقين حول حرية المرأة الأندلسية. فقد انقسم الباحثون حيال هذا. ما بين مؤيد ومعارض، فالمؤيد يشيد بتأثير الغرب الإسباني على المرأة الأندلسية،والمعارض يركز على مظاهر التزمت، ويرجعها إلى الإسلام، وإلى تصرفات المسلمين مع نسائهم. وقد اوضحت أن الأندلسيين. لم يعملوا على سجن نسائهم وعزلهن عن الحياة العامة، وإنما عملوا على المحافظة عليهن، وعدم ظهورهن بشكل غير لائق.قد يسئ إليهن، وإلى الإسلام. والدليل على ذلك أن المرأة لم تتعرض لأى نوع من الضغط أو العزلة. وقد حفلت الدراسة ببعض النماذج المشرفة، التى أدت دوراً حضارياً رئيسياً.

(٣) أوضحت أن إسبانيا الإسلامية.عرفت ظاهرة التسرى بالإماء والجواري، مثل باقي الاقطار الإسلامية، وإن كان وضع المرأة الجارية، اختلف اختلافاً كبيراً عن أي مجتمع آخر غير إسلامي. فقد حظيت هؤلاء الجواري بمكانة رفيعة. لم تعرفها المرأة الجارية في أي مجتمع آخر غير إسلامي سابق أو لاحق. وأثبت أيضاً، أن الحياة الإجتماعية والعاطفية بل والعلمية للجواري. كانت أكثر نشاطاً وتفوقاً، عن حياة غيرها، وبخاصة الحرائر. وذلك لما تمتعن به نسبياً من حرية أكثر من الحرائر.

(٤) قارنت بين أراء بعض المستشرقين. الذين اعتبروا البيت الأموى بيتاً مولداً من الدرجة الأولى. وبين شعور وتصرفات بني أمية الذين اعتبروا أنفسهم عرباً أقحاحاً. رغم كون أمهاتهم إسبانيات. بل ذهب بعضهم إلى دفع أموال كثيرة، لمجرد ادعاء النسب العربي. ومن نتائج ظهور طبقة المولدين أيضاً. ظهور ما عرف في التاريخ والأدب الأندلسي " بحركة الشعوبية" وهي حركة ظهرت في المشرق الإسلامى من قبل، وانتقلت إلى الأندلس. وهدفها مهاجمة الجنس العربي والسيادة العربية كعنصر حاكم، وليس مهاجمة الإسلام كدين.

(٥) أبرزت في الدراسة أيضاً، مدى حب أهل الأندلس للغناء والموسيقى وبخاصة في عصر الدولة الأموية. فقد شجع أمراء بني أمية الحركة العلمية والفنية في الأندلس، واستقدموا لذلك

الكثيرات من الجواري المشرقيات البارعات في هذا المجال وبلغ من حب الأنلسيين لفن الغناء والموسيقى،أن ابتكروا منتجاً،أو لوناً جديداً عرف" بالموشحات "،وكانت الخرجة، وهي مركز الموشح، لابد أن تكون على لسان فتاة، ويعتبر هذا الفن ثورة في الشعر العربي كله،وحركة من حركات التجديد فيه.

(٦) أشرت من خلال دراستي لموضوعي،الزواج والطلاق في الأندلس،إلى أن المرأة الأندلسية،كان لديها حرية كبيرة في اختيار شريك حياتها،بل ومن حقها أيضاً،أن تملي كثيراً من الشروط في وثيقة زواجها،ومن حقها أيضاً،إذا ما وقع عليها ظلم أو جور في هذا الزواج،أن تلجأ إلى القاضي،الذى كثيراً ما يرد لها إعتبارها،بأن يعاملها زوجها معاملة حسنة، وإما أن يطلقها القاضي منه.

(٧) أثبت أن المرأة الأندلسية، لعبت دوراً كبيراً في مجال الحياة السياسية في الأندلس. فدسائس البلاط ومؤامراته كانت لا تنتهي، ولكنها غالباً ما تنتهي بالفشل. ومن أبرز هذه المؤمرات تلك المؤامرة التي دبرتها "طروب " لزوجها الأمير عبد الرحمن الأوسط، وإن كنا لم نتوصل إلى نهاية حاسمة حول مصير" طروب "، لصمت المصادر حيال هذا الأمر.

(٨) أبرزت دور السيدة " صبح البشكنسية" في مجال الحياة السياسية، وكيف هادنت المنصور بن أبي عامر، حتى تضمن الحكم لولدها هشام المؤيد. ثم بعد ذلك تنقلب عليه بعد،أن تشعر بأنه قد حجب ولدها،واستأثر بالحكم لنفسه. بل وتحاول تهريب الأموال والإستعانة بحليفها المغربي " زيري بن عطية المغراوي " لولا أن المؤامرة،كشفت. وقضى عليها المنصور.

(٩) بينت كيف أن ملوك النصرانية، أزعنوا أمام هجمات المنصور بن أبي عامر، المتوالية عليهم، بل وأهدوه بناتهم كزوجات وسرارى، ومنهن من أسلمت وحسن إسلامها وأنجبن له الكثير من الأولاد.

(١٠) أوضحت أيضاً، أن المرأة الأندلسية. أثبتت جدارتها في مجال الإبداع الأدبي والعلمي، فقد بلغت كثيرات منهن مكانة عالية وشهرة واسعة زاحمن فيها الرجال. ونلن في ظل هذه الحضارة الراقية مكانة سامية، واستشهدت برأى الفقيه الأندلسي ابن حزم،في طوق الحمامة. عندما ذكر بأنه لم يجالس الرجال،إلا وهو في حد الشباب. وأنه تلقى كل علومه على أيدي النساء،وكيف بهذه الشهادة. حسم القضية لصالح المرأة الأندلسية. وضربت أمثلة كثيرة لشاعرالت الأندلس المشهورات. ولغيرهن ممن شاركن وبرعن في مجالات الحياة العلمية. كالكتابة، والتعليم. والتخطيط والتذهيب وغير ذلك.

(١١) أبرزت من خلال تلك الدراسة، كيف أن المرأة الأندلسية، إذا فاضت بها مشاعر الحب والعشق. عبرت عن مشاعرها بحرية. بل أحياناً تأخذ زمام المبادرة في كلمات رقيقة غاية في العذوبة و الجمال.

(١٢) شرحت دور المرأة الاقتصادي، وأوضحت كيف أن المرأة الأندلسية تمتعت باستقلال اقتصادي بارز من خلال امتلاكها لكل سبل الثروة من عقار وأراضي وغير ذلك، بل وإدارة تلك الثروات بنفسها ومارست. أيضاً العديد من المهن والصناعات الهامة. كالغزل، والنسج، والبيع والشراء، والتوليد والخاطبة وغيرها، وفندت رأى ابن عبدون: حول عدم مقدرة المرأة على ممارسة مهنة الطب في حين أن تلك المهنة تعتبر من المهن التى خُلقت أساساً للنساء لما تطلبه من رحمة وعطف،وهي صفات تتوافر في المرأة أكثر من الرجل.

(١٣) تحدثت عن أسواق النخاسة،وأصناف الرقيق من النساء، وكيف أن الإسلام، نظراً لتفشي، وانتشار هذه الظاهرة. لم يعمل على الغائها مرة واحدة. ولكن عمل على الغائها بالتدريج وهذا ما حدث بالفعل. فمع مرور الأيام لم يعد هناك رق.

وضربت أمثلة لبعض الرقيق ممن وصلوا إلى مناصب القيادة من الرجال، أما النساء فقد تضخمت ثروات الكثيرات منهن، إلى حد إقامة المنشآت العمرانية الضخمة من أموالهن الخاصة. مما يدل على دورهن الإيجابي الفعال في المجتمع الأندلسي.

(١٤) ثم ختمت تلك الدراسة بنتيجة هامة: وهي أن وضع المرأة الأندلسية لم يكن بالتدني الكبير الذى تصوره لنا كتابات بعض المستشرقين، وأيضاً لم يكن فيه حريه زائدة خارجة عن التقاليد والعادات الإسلامية، وإذا كان المجتمع قد سمح للمرأة الأندلسية بشئ من حرية الإختلاط. فقد كان اختلاطاً منظماً. متقناً، يصونها ويحافظ عليها في المقام الأول،ولعل علو مكانة المرأة الأندلسية، يتجلى بوضوح في تلك الأمثلة الشعبية الرائعة، التي تقوم على استنفار الحملات العسكرية الضخمة لإطلاق سراح امرأة أسيرة استصرخت الحاكم.فهب من فوره لنجدتها،وردها إلى أرضها وأهلها.

ولا يسعني في الختام، إلا أن أقول: بأن المجتمع الأندلسي. قد عمل على إفساح المجال للمرأة الأندلسية في كافة المجالات، استجابت، وأعطت، وأبدعت، وخرجت من هذا كله، في صورة مشرفة ومشرقة. أشاد بها مؤرخو عصرها،بل والعصور اللاحقة أيضاً.

المصادر والمراجع.

أولاً: المصادر العربية.

(١) ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي)ت ٦٥٨هـ - ١٢٦٠م

" الحلة السيراء "، جزأن.حققه وعلق على حواشيه الأستاذ الدكتور/ حسين مؤنس.الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣م.

(٢) ابن بسام (أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني) ت ٥٤٢هـ - ١١٤٧ م

" الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة " تحقيق الدكتور/ إحسان عباس، القسم الأول من المجلد الأول، الخاص بقرطبة ووسط الأندلس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩ م.

(٣) ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) ت ٥٧٨هـ -١١٨٢ م

" الصلة في تاريخ أئمة الأندلس " القسم الثاني، المكتبة الأندلسية، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦ م.

(٤) البلاذري (أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر البغدادى)ت ٢٧٩هـ - ٨٩٢ م

" كتاب فتوح البلدان " القسم الأول نشره الدكتور/ صلاح المنجد، القاهرة، ١٩٥٦م.

(٥) ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي)ت ٤٥٦هـ -١٠٦٣ م

أ- طوق الحمامة في الألفة والألاف ضبط نصه وحرر هوامشه لأستاذ الدكتور/ الطاهر أحمد مكي، الطبعة الرابعة، دار المعارف. رمضان ١٤٠٥هـ - يونيو١٩٨٥م.

(٦) ابن حزم ب- " جمهرة أنساب العرب " تحقيق وتعليق الأستاذ/ عبد السلام محمد هارون ذخائر العرب (٢).

الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة،١٩٧١م.

(٧) الحميرى (أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميري) ت: أواخر القرن التاسع الهجري-(١٥م) " صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار" نشره الأستاذ/ ليفي بروفنسال، القاهرة، ١٩٣٧م.

(٨) ابن حيان (أبو مروان خلف بن حيان القرطبي) ت: ٤٦٩هـ - ١٠٧٦م.

" المقتبس من أنباء أهل الأندلس " خمس قطع، اعتمدت منها على القطعة الخاصة بالسنوات الأخيرة من عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم " الأوسط " حققها وقدم لها وعلق على حواشيها الأستاذ الدكتور/ محمود علي مكى. القاهرة ١٣٩٠هـ - ١٩٧١م.

(٩) الحُـميدي (أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبـد الله الأزدي) ت ٤٨٨هـ - ١٠٩٥م " جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس " تراثنا، المكتبة الأندلسية، رقم (٣)، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م.

(١٠) ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبد الله محمد بن الخطيب)ت ٧٧٦هـ- ١٣٧٤م.

أ- الإحاطة في أخبار غرناطة. حقق نصه ووضع حواشيه الأستاذ/ محمد عبد الله عنان. مكتبة الخانجي، القاهرة،المجلد الأول، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م المجلد الثاني، الطبعة الأولى، ١٣١٤هـ- ١٩٧٤م.

(١١) ابن الخطيب " أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام " تحقيق وتعليق الأستاذ/ ليفي بروفنسال. الطبعة الرابعة، بيروت، لبنان، ١٩٥٦ م.

(١٢) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون) ت ٨٠٨ هـ - ١٤٠٦م.

" تاريخ ابن خلدون، المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدا والخبر " سبعة أجزاء، استعنت بالجزئين الأول،والرابع الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

(١٣) الخُشني (أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد القيرواني)ت ٣٧١هـ - ٩٨١م.

" تاريخ قضاة قرطبة " تراثنا رقم (١)، المكتبة الأندلسية. الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م.

(١٤) ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي عامر)ت٦٨١هـ-١٢٨١م. " وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان " حققه الأستاذ الدكتور/ إحسان عباس المجلد الأول، دار صادر، لبنان، بيروت ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

(١٥) ابن سعيد (عليّ بن موسى بن سعيد المغربي) ت ٦٨٥هـ - ١٢٨٦م.

" المُغرب في حُـلى المَغرب " حققه وعلق عليه الأستاذ الدكتور/شوقي ضيف جزأن، ذخائر العرب (١٠) القاهرة، ١٩٥٥م.

(١٦) السقطي (أبو عبد الله محمد بن أبي محمد السقطي)

" في أداب الحسبة "نشر كولان، وليفي بروفنسال.باريس ١٩٣١م.

(١٧) السلفي " أخبار وتراجم أندلسية، مستخرجة من معجم السفر للسلفي "

أعدها وحققها الأستاذ الدكتور/ إحسان عباس، المكتبة الأندلسية، رقم (٧).الطبعة الأولى، دار الثقافة، لبنان،بيروت، ١٩٦٣م.

(١٨) الأصفهاني (أبو الفرج علي بن الحسين) ت ٣٥٦هـ - ٩٦٦م.
" كتاب الأغاني " واحد وعشرون جزء، استعنت بالجزء، الثاني عشر صححه الأستاذ الشيخ/ أحمد الشنقيطي. مطبعة التقدم، شارع محمد علي، بدون تاريخ.

(١٩) الضبي (أحمد بن يحي بن أحمد بن عميرة) ت ٥٩٩هـ - ١٢٠٣م.
" بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس " تراثنا رقم (٦)، المكتبة الأندلسية، دار الكاتب العربي، ١٩٦٧م.

(٢٠) الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري) ت ٣١٠هـ - ٩٢٣م.
" تاريخ الأمم والملوك "الطبعة الثالثة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

(٢١) الطرطوشي (أبو بكر محمد بن الوليد) ت ٥٢٠هـ - ١١٢٦م.
أ- " الحوادث والبدع" تحقيق الأستاذ/ محمد الطالبي، تونس، ١٩٥٩م.
ب-" سراج الملوك " (القاهرة، ١٣٥٤هـ)

(٢٢) ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم) ١٨٧- ٢٥٧هـ/ ٨٠٣ -٨٧١م.
" فتوح إفريقية والأندلس " حققه وقدم له الأستاذ/ عبد الله أنيس الطباع، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٦٤م.

(٢٣) ابن عبدون (وابن عبد الرؤوف، والجرسيفي)" ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب " نشر الأستاذ/ ليفي بروفنسال. مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٥م.

(٢٤) ابن عذارى (أبو عبد الله محمد بن عذارى المراكُشي) عاش حتى ٧١٢هـ - ١٣١٢م.
"البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب " ٤ أجزاء، الجزآن، ١، ٢ تحقيق ومراجعة ج. س كولان- وليفي بروفنسال، المكتبة الأندلسية رقم(٤) دار الثقافة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

(٢٥) ابن عبد ربه (أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي) ت ٣٢٨هـ - ٩٤٠م.
" طبائع النساء " جزء منقول من كتاب " العقد الفريد " تحقيق وتعليق الأستاذ/ محمد ابراهيم سليم مكتبة القرآن للطباعة والنشر. ١٩٩٢م.

(٢٦) عبد الواحد المراكُشي (محي الدين أبي محمد بن عبد الواحد بن علي التميمي المراكُشي) كتب في ٦٢٠هـ - ١٢٢٤م.

" تاريخ الأندلس، المسمى المعجب في تلخيص أخبار المغرب "
المطبعة الجمالية، الطبعة الأولى، ١٣٣٢هـ – ١٩١٤ م.

(٢٧) عبد الواحد المراكشي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك المراكُشي) ت ٧٠٣هـ – ١٣٠٤م.
"الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة". تقديم وتحقيق الأستاذ الدكتور/محمد بن شريفة. جزأن، اعتمدت، علي الجزء الثاني منه. مطبعة المعارف الجديدة، الرباط ١٩٨٤م.

(٢٨) ابن القوطية (أبو بكر محمد القرطبي) ت ٣٦٧هـ – ٩٧٧م.
" تاريخ إفتتاح الأندلس " حققه وقدم له ووضع فهارسه الأستاذ/ ابراهيم الإبياري، المكتبة الأندلسية، رقم (٢) الناشر دار الكتب الإسلامية والمصرية، ودار الكتاب اللبناني، القاهرة، بيروت، الطبعة الاولى، ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م.

(٢٩) ابن قيم الجوزية (شمس الدين أبو عبد الله محمد الدمشقي) ت ٧٥١هـ – ١٣٥٠م.
" أخبار النساء" شرح وتحقيق الأستاذ الدكتور/ نزار رضا. منشورات مكتبة الحياة، بيروت، لبنان ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.

(٣٠) ابن الكردبوس (أبو مروان عبد الملك التوزرى) عاش أواخر القرن السادس الهجرى، (١٢م).
" تاريخ الأندلس لابن الكردبوس، وهو قطعة من كتاب الإكتفاء في أخبار الخلفاء " تحقيق الأستاذ الدكتور/ أحمد مختار العبادى. معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٧١م.

(٣١) مجهول "أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها" حققه وقدم له، ووضع فهارسه الأستاذ/ ابراهيم الإبياري، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.

(٣٢) المقري (أحمد بن محمد المقّري التلمساني) ت ١٠٤١هـ – ١٦٣١م.
" نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب "حققه ووضع فهارسه الأستاذ الدكتور/إحسان عباس. ٨ أجزاء، دار صادر، بيروت، لبنان. ١٣٨٨هـ – ١٩٦٨م.

(٣٣) الونشريسي (أحمد بن يحيى الونشريسي) ت ٩١٤هـ – ١٥٠٨م، بفاس.
" المعيار المغرب، والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب " ثلاثة عشر جزء. استعنت بالجزئين الثالث، والسادس، دار الغرب الإسلامي. بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.

ثانياً: المراجع العربية الحديثة والمعربة

(٣٤) أرسلان (الأستاذ/ شكيب أرسلان)

" تاريخ غزوات العرب " مصر، ١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م.

(٣٥) بروفنسال (الأستاذ/ ليفي بروفنسال)

سلسلة محاضرات عامة في أدب الأندلس وتاريخها ١٩٤٧- ١٩٤٨م. ترجمها إلى العربية الأستاذ/ محمد عبد الهادي شعيرة، وراجعها الأستاذ/ عبد الحميد العبادي. المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥١م.

(٣٦) بروفنسال " تاريخ إسبانيا الإسلامية " الطبعة الثانية، بيروت، لبنان، دار المكشوف، ١٩٥٦م.

(٣٧) بالنثيا (الأستاذ/ أنخل جنثالث بالنثيا)

" تاريخ الفكر الأندلسي "ترجمة الأستاذ الدكتور/ حسين مؤنس.الطبعة الأولى، مكتبة النهضة المصرية، مايو، ١٩٥٥ م.

(٣٨) بيرس (الأستاذ/ هنرى بيرس)

" الشعر الأندلسي في عصر الطوائف "ملامحه العامة، وموضوعاته الرئيسية، وقيمته التوثيقية. ترجمة الأستاذ الدكتور/ الطاهر أحمد مكي. الطبعة الأولى، دار المعارف، ذو القعدة ١٤٠٨هـ - يونية ١٩٨٨م.

(٣٩) حسين (الدكتور/ حمدى عبد المنعم حسين)

" مجتمع قرطبة في عصر الدولة الأموية في الأندلس " رسالة دكتوراة نوقشت بآداب الإسكندرية. سنة ١٩٨٤م.

(٤٠) حجاجى (الأستاذ/ حمدان حجاجى)

" حياة وأثار ابن زمرك شاعر الحمراء " المؤسسة الوطنية، الجزائر، بدون تاريخ.

(٤١) خالص (الدكتور/ صلاح خالص)

" إشبيلية في القرن الخامس الهجرى " دراسة أدبية تاريخية لنشوء دولة بنى عباد، ٤١٤- ٤٦١هـ.دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٨١م.

(٤٢) ابن زيدون (ديوان شعر ابن زيدون) شرح وتحقيق الأستاذ: كرم البستاني. دار صادر للطباعة والنشر، بيروت ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

(٤٣) الركابي (الأستاذ/ جودت الركابي)

" في الأدب الأندلسي " مكتبة الدراسات الأدبية، رقم (٢٢). الطبعة الرابعة، دار المعارف، مصر، ١٩٧٥م.

(٤٤) زينب (الدكتورة/ زينب رضوان)

" الإسلام وقضايا المرأة " المواجهة، التنوير،الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣م.

(٤٥) سالم (الدكتور/ السيد عبد العزيز سالم)

" تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي.. حتى سقوط الخلافة بقرطبة " مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٦١م، الاسكندرية.

(٤٦) سالم " قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس "

دراسة تاريخية عمرانية أثرية في العصر الإسلامي. جزأن، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، ١٩٨٤م.

(٤٧) سالم " دراسات في تاريخ العرب " تاريخ الدولة العربية الناشر، مؤسسة شباب الجامعة، للطباعة والنشر، الإسكندرية، ١٩٨٤م.

(٤٨) سالم " دائرة معارف الشعب " كتاب الشعب. العدد (٦١) عن فن الغناء والموسيقى.

العدد (٦٤) عن الحياة العلمية والأدبية في الأندلس، ١٩٥٩ م.

(٤٩) سحر (الدكتورة/ سحر السيد عبد العزيز سالم)

" مظاهر الحضارة في بطليوس " رسالة دكتوراة، نوقشت بأداب الإسكندرية، سنة ١٩٨٧م.

(٥٠) سحر " بحث عن الزواج المختلط في الأندلس " تحت الطبع.

(٥١) الشكعة (الدكتور/ مصطفى الشكعة)

" الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه " دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٧٥م.

(٥٢) الشامي (الدكتور/ أحمد الشامي)

" التطور التاريخي لعقود الزواج في الإسلام " " دراسة مقارنة " كلية الأداب، جامعة الزقازيق، ١٩٨٢م.

(٥٣) ضيف (الدكتور/ شوقي ضيف)

" العصر العباسي الثاني، تاريخ الأدب العربي " دار المعارف، مصر، الطبعة الثالثة، القاهرة، مايو ١٩٧٣م.

(٥٤) العبادي (الدكتور/ أحمد مختار العبادى)

" في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، بدون تاريخ.

(٥٥) العبادى دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، بدون تاريخ.

(٥٦) العبادى من التراث العربي الإسباني. نماذج لأهم المصادر العربية، والحوليات الإسبانية. التي تأثرت بها.

" مجلة عالم الفكر"، المجلد الثامن، العدد الأول ابريل – مايو– يونيو، ١٩٧٧م.

(٥٧) العبادي " عالم الفكر " المجلد الحادي عشر، العدد الأول

" مقال عن الحياة الإقتصادية في المدينة الإسلامية ١٩٧٩م.

(٥٨) العبادي " الأعياد في مملكة غرناطة " صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية. مدريد. ١٩٧٠م.

(٥٩) العبادي " مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب والأندلس " مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٥٨م.

(٦٠) العبادي " الإسلام في أرض الأندلس أثر البيئة الأوربية"

مقال بمجلة عالم الفكر، العدد الثاني، المجلد العاشر الكويت، وزارة الإعلام، ١٩٨٤ م.

(٦١) العبادي (الأستاذ / عبد الحميد العبادي)

" المجمل في تاريخ الأندلس " المكتبة التاريخية. جمع مادته ونسقها الأستاذ / أحمد ابراهيم الشريف وراجعه الدكتور أحمد مختار العبادي إشراف الدكتور/ أحمد عزت عبد الكريم، مكتبة النهضة المصرية. الطبعة الأولى، ١٩٥٨م.

(٦٢) عبد الله (الأستاذ/ عبد العزيز بن عبد الله)

" المرأة المراكشية في الحقل الفكري " صحيفة معهد الدراسات الإسلامية.

مدريد، ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م. العدد (١، ٢).

(٦٣) عنان (الأستاذ / محمد عبد الله عنان)

" دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى بداية عهد الناصر والخلافة الأموية والدولة العامرية" مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٥٥م.

(٦٤) العقاد (الأستاذ / عباس محمود العقاد)

" المرأة في القرآن " دار الهلال. القاهرة، ١٩٦٧م.

(٦٥) عبد العظيم (الأستاذ / علي عبد العظيم)

" ابن زيدون، عصره وحياته وشعره وأدبه "

رسالة ماجستير نوقشت بكلية دار العلوم في يوليو ١٩٥٤ م،

مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٥م.

(٦٦) غومث (الأستاذ / إميليو غرسية غومث)

" الشعر الأندلسي بحث في تطوره وخصائصه" ترجمة الأستاذ الدكتور/ حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٢م.

(٦٧) غنيم (الدكتورة/ إسمت غنيم)

" المرأة في الغرب الأوربي في العصور الوسطى. دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٣م.

(٦٨) فاطمة (الدكتورة/ فاطمة المرنيسي)

" مقال تحت عنوان الأيدلوجية والإسلام " جامعة الرباط، " مجلة فكر وفن " العدد (٤٧) ميونخ ، المانيا،١٩٨٨م. الناشر Frouen Buchverlag

(٦٩) القادري (الدكتور/ ابراهيم القادري)

" مجلة دراسات أندلسية " مقال عن ظاهرة تبرج في الأندلس إبان الحقبة المرابطية من خلال نصوص ووثائق جديدة. تونس. العدد التاسع، رجب ١٤١٣هـ - يناير ١٩٩٣م.

(٧٠) كُحيلة (الدكتور/ عُبادة كُحيلة)

" تاريخ النصارى في الأندلس " الطبعة الأولى. ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

(٧١) كحالة (عمر رضا كَحالة)

" المرأة في عالمي العرب والإسلام " سلسلة بحوث اجتماعية، الجزأن السادس والسابع، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، القاهرة ١٤٠١ هـ – ١٩٨١م.

(٧٢) ممدوح (الدكتور / ممدوح حسين)

" مقال بمجلة العربي عن فن الطلاء " المكياج"

مجلة العربي، العدد (٣٢٨) السنة التاسعة والعشرون، مارس ١٩٨٦م، جمادي الآخرة، ١٤٠٦هـ.

(٧٣) مؤنس (الدكتور/ حسين مؤنس)

" فجر الأندلس" دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية، ٧١١م – ٧٥٦م. الشركة العربية للطباعة والنشر. الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٥٩م.

(٧٤) مؤنس إسلاميات " مقال عن العباسة أخت هارون الرشيد " بمجلة أكتوبر، العدد (٦٦٠) الأحد ١٨يونيو ١٩٨٩.

(٧٥) مكي (الدكتور/ محمود علي مكي)

" تحقيق ديوان ابن دراج القسطلي. " منشورات المكتب الإسلامي " دمشق ١٣٨١هـ – ١٩٦١م.

(٧٦) مكي (الدكتور/ الطاهر أحمد مكي)

" دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة" الطبعة الأولى، دار المعارف ١٩٨٠م.

(٧٧) مكي " دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة" الطبعة الثالثة، دار المعارف، ذو الحجة ١٤٠١هـ – أكتوبر ١٩٨١م.

(٧٨) أبو مصطفى (الدكتور/ كمال أبو مصطفى)

" مالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف" في القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي. دراسة في مظاهر العمران. والحياة الاجتماعية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٣م، الإسكندرية.

(٧٩) الأهواني (الدكتور/ عبد العزيز الأهواني)

" الأغنية الشعبية أصل التوشيح" المجلة، العدد الثاني، فبراير ١٩٥٧م.

Third: References in Foregin Languages.

(80) Albómoz (Cloudio Sanchéz Albómoz)
" La España Musulmana", Tomo I, Buenos Aires. 1946.

(81) Aubrun (Charles Aubrun)
" La Femme au mayen âge Espagne, "
Paris, 1960.

(82) Balbás (Torres Balbás)
" Los Contornos de las Ciudades Hispano Musulmanas."
Al -Andalus, Vol XV, Madrid, 1950.

(83) Cantero (Valentin Beneitez Cantero)
" Vocabularia Espanol – Arabe – Marroqui". 1949.

(84) Corriente (Federico Corriente)
" Diccionario Espanol – Arabe"
Instituto Hispano Arabe de Cultura,
Madrid. 1977.

(85) Cagigas (Isidro de las Cagigas)
" Los Mozarabes" Tomo I, Madrid, 1947.

(86) Dozy (Reinhart Dozy)
" Histoire des Musulmans d'Espagne
3 Vols, éd – lévi Provençal, leiden,
1932.

(87) Dozy "Historia de los Musulmanes de España". Tomo I. leyden. 1861.

(88) Dozy "Dictionnaire - Détaillé des Noms des Vêtements chez les Arabes"
Amsterdam. 1845.

(89) Dozy Diccionario de Historia de España Tomo2. Madrid, 1952.

(90) Dozy Spanish Islam. History of the Moslems in Espain. Lonon. 1912.

(91) El Hajji (Abdurrahman El Hajji)
Inter marriage between Andalusia and northern Spain in the

Umayyad Period. Oxford. 1938.
"Revthe Islamic Quarterlyu"
Vol XI, No 1-2.

(92) Eduardo (Saavedra Eduardo)
" Estudia Sobre la invasion de los Arabes en España " Madrid. 1892.

(93) Gomez (Garcia Gomez)
una Cronica anonima de Abd El-Rahman, III.
" Al Nasir " Madrid, 1958.

(94) Guichard (Pièrre Guichard)
Structures Sociales "Orientales"
et Occidentales dans L'Espagne
Musulmane, Paris, 1977.

(95) Hurtado (Juan Hurtado Y Angel Gonzales Palencia).
" Historia de la Literatura Espanol"
Madrid, 1944.

(96) Miranda (Ambrosio Huici Miranda)
" Historia Musulmana de Valencia Y Su Region"
Valencia. 1969.

(97) Makki (Mahmoud Makki)
" Ensayo Sobre las Portaciones
Orientales en la España Musulmana"
Madrid, 1967.

(98) Nykl (B.A.R Nykl)
" Hispãna Arabic Poetry and Its Relations with the old Provençal Troubadours" Baltimore, 1946.

(99) Palencia (Angel Gonzales Plancia)
Historia de la lateratura arabigo
Espãnola 2ed. Barcelona. 1945.

(100) Painter " History of the middle ãges"
Great Britain, 1979.

(101) Pedro (Aguado Bleye)
"Manuel de la Historia de España",
Tomo I. Madrid. 1947.

(102) Pérès (Heneri Pérès)

" La Poésie Andalouse en Arabe Classique au XIe Siécle Paris, 1953.

(103) Provençal (E. Lévi Provençal)

" La Civilizácion Arabe en España"

Segunda edición, Buenos Aires, 1953.

(104) Provençal " Histoire de L'Espagne Musulmane" leiden. Paris, 3 Vols. 1950 – 1954.

(105) Provençal " L'Espagne Musulman au Xéme Siècle" Institutions et vie Sociale Paris, 1932.

(106) Ribera (Julián Y Tarragó)

" Disertaciones Y Opúsculos"

Tomo1. Madrid, 1928.

(107) Provençal " El Concionero de Abn Cuzman en Disertaciones Y Opúsculos"

Madrid, 1928.

(108) Simonet (Francisco Javier Simonet)

" Historia de los Mozarabes de España

Madrid, 1897 – 1903.

(109) Schack (Adolfo Federico de Schack)

" Poesia Y Arte de los Arabes en España Y Sicilia, Traducción de:

Juan Valera, Mexico, 1944.

(110) Turki (Abd El Magid Turki)

" Stvdia Islamica "

Femmes Privilégiées dans le Systeme

D'Ibn Hazm. Paris. 1977.

محتويات الكتاب

صفحة

الفصل الرابع

رقم الإيداع	٢٠٠٤/٤٥١٧
الترقيم الدولي .I.S.B.N	977-17-1310-8

مطبعة صحوة

٧ شارع اسماعيـــل رمضان– فيصـــل

ت / ف ٣٨٧١٦٩٢ – ٠١٠١٠٠٩٦٧٨



د. راوية عبد الحميد شافع

المرأة فى المجتمع الأندلسى

من الفتح الإسلامى للأندلس حتى سقوط قرطبة







للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES